زاد الداعية

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(صدق الله العظيم)

الدكتور أحمد عمر هاشم

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلى ت: ٣٥٤٢٠٧٩

المكتبة:
١ ش كامل صدقى الفجالة ت: ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقى الفجالة ت: ٥٩١٧٩٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أما بعد ...

فإن ساحة الدعوة الإسلامية الآن أصبحت فسيحة الأرجاء متشعبة المناحى تحتاج إلى تضافر الجهود المخلصة وتضامن القلوب المؤمنة ، فإن قضايا العصر ومشكلاته تنادى إلى معالجتها كل العلماء والمصلحين ، والدعاة والمفكرين ، وتستوجب على كل المؤسسات الدينية والدوائر العلمية أن تقدم الزاد الروحى ، الذى يشبع النفوس ويروى القلوب المتعطشة إلى وحى السماء وهداية الإسلام ، توحيدا لأمتنا وترشيدا للصحوة الإسلامية .

ولما كان للمسجد مكانته الروحية فى قلوب المسلمين ، وكان دور المنبر فى تقديم خطبة الجمعة له أكبر الأثر ، فقد عنى الإسلام بتقديم الرشد والتوجيه عبر منابر المساجد ، وكان المنبر موقف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يخطب المسلمين ويوجههم من فوقه ، ومن هنا برزت رسالة المسجد ، وتجلى دور المنبر ، وعرف الناس لخطبة الجمعة مصداقيتها وفاعليتها فى إثراء الحياة الإسلامية ، وصياغة الشخصية المؤمنة ، ومعالجة قضايا العصر والبيئة .

وقد رأيت أن أسهم فى هذا المضمار بمجموعة من الخطب المنبرية التى ألقيتها من فوق المنبر لأقدمها إلى إخواننا من الدعاة وطلاب العلم ، وعشاق الثقافة الإسلامية ، لتكون

زادا علميا وروحيا للداعية ، ولتكون توجيها وتنبيها لكل مسلم ، فقد توخيت فيها أن تكون مشتملة على أهم القضايا العصرية والموضوعات العلمية ، والمناسبات الدينية ، مدعومة بآيات القرآن الكريم ، والحديث النبوى ، وقصص السنة الصحيحة ، حتى يكون لها تأثيرها فى الوجدان الإسلامى ، وإقناعها للعقل البشرى ، وتصحيحها للعديد من المفاهيم ، وتجلية لوسطية الإسلام وسماحته وعظمته وعالميته ، وقدمت لها بتمهيد عن الدعوة حتى يتضح المنهاج الإسلامى الأمثل فى الدعوة إلى الله ، داعيا الحق سبحانه وتعالى أن تكون عونا للدعاة والمرشدين ونبراسا لهداية المسلمين ، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [1] وبالله التوفيق ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أ. د. أحمد عمر هاشم

(١) سورة إبراهيم (٤١)

تمهـــيد

الدعوة والداعية

إن أمتنا الإسلامية ، التى ختم الله بها الأمم ، وختم برسولها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جميع الرسل والنبيين ، مكلفة بالدعوة إلى الله ، ونشر هداية الإسلام فى كل الأرض .

وإذا كانت الأمم السالفة مكلفة بعبادة الله وحده مخلصين له الدين ، فإن الأمة الإسلامية الخاتمة مكلفة بذلك وبنشر دين الله فى الأرض .

ذلك لأن الأمم السالفة كان يبعث لها نبى برسالة ، وإذا ما انتهت رسالته ولحق بالرفيق الأعلى ، بعث رسول آخر برسالة أخرى ، وهكذا كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة .

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فبعث إلى الناس كافة ، وكانت رسالته عامة وخالدة إلى أن يقوم الناس لرب العالمين ، فلم تنته رسالته بوفاته بل هى مستمرة ، تقوم بها أمته وتبلغها إلى جميع الناس من بعده .

ولذا كانت الأمم السالفة مكلفين بالعبادة ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾(1) أما هذه الأمة فهى مكلفة بالعبادة ، وتبليغ الدعوة الاسلامية ونشرها، قال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(2)

وأيضا فإن الوحى السماوى نزل بلغتها العربية فكان عليها أن تبلغه إلى سائر الناس ، وجميع من فى الأرض .

---

(1) سورة البينة (٥)

(2) سورة آل عمران (١٠٤)

فالدعوة إلى الله هى رسالة الرسل ، وهى واجبة على هذه الأمة أن تدعو الناس بعد انتقال رسولها إلى الرفيق الأعلى وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)

وللداعى من الأجر مثل أجور من اتبعه ، وتلك منزلة كبرى للدعاة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا» (٢) .

ولاشىء فى الوجود أسمى من الدعوة فهى عمل الأنبياء ورسالة الرسل ، خص الله بها هذه الأمة ، لأنها الأمة الخاتمة التى سعدت بالرسالة الخاتمة والنبى الخاتم الذى لانبى بعده ولارسول ... وهداية واحد على يد إنسان خير له من حمر النعم ، كما جاء فى الحديث عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى بى أبى طالب رضى الله عنه - يوم خيبر - :

«أنفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فو الله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم» (٣) .

وقد تعددت **وسائل الدعوة** فى العصر الحديث :

فلئن كانت قديما تقتصر على خطبة الجمعة والمجالس العلمية المباشرة ، فإنها الآن قد تنوعت بحيث أصبح من الممكن انتشار الكلمة بسهولة إلى أكبر عدد من ممكن من المستمعين والمشاهدين فى بلاد العالم عبر الإذاعة المسموعة والمرئية .

---

(١) سورة يوسف (١٠٨)

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

كما أمكن نشرها عن طريق الكلمة المكتوبة فى الصحف والمجلات والكتب والنشرات.

كما تعددت **مجالات الدعوة** : فلم تقتصر على خطبة الجمعة ولا بعض مجالس العلم ، بل وجدت أماكن عامة كالأندية ، والمدارس والمعاهد والجامعات ، والندوات ، والمؤتمرات ، والمحاضرات ، وفى المساجد وسائر التجمعات المختلفة .

وعلى الداعية أن يتحلى بالفضائل ، ويتخلى عن الرذائل ، وأن يكون داعيا بفعله وسلوكه ، قبل قوله وإرشاده ، فإن تأثير إنسان واحد بسلوكه وفعله وقدوته فى مائة شخص أعظم من تأثير قول مائة متحدث فى شحص واحد ، ولذلك كان قدوة الدعاة وإمام المتقين وخاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم السلام متمثلا ومطبقا لكل مايدعو الناس إليه ، فكان خلقه القرآن ، ومن هنا وجب على الدعاة الذين هم ورثة الأنبياء أن يكونوا نماذج عليا فى البر والطاعة ، فليس من المعقول أن يأمروا بالبر دون أن يفعلوه .

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [1]

واستنكر القرآن سلوك بعض الذين يتصدون للدعوة ، وأفعالهم تخالف أقوالهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [2] .

وعقوبة هذا النوع من الناس فى الآخرة أليمة ، وعاقبته وخيمة، عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتابه - أى الأمعاء - فى النار فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه ، فيقولون : أى فلان ماشأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» [3] .

ومن أهم مايجب أن يتسم به الداعية : الإخلاص فى دعوته ، فلا يقصد بدعوته حب الظهور ، ولا إعجاب الناس به ، ولاالرياء ولا الشهرة ، وإنما يقصد بدعوته توجيه العباد وإرشادهم ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة البقرة (٤٤).

(٢) سورة الصف (٢، ٣).

(٣) رواه البخارى ومسلم.

وفى الحديث : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ثلاثة نفر ....»

ثم ذكر منهم الذى يرائى الناس بعلمه وقراءته ، حيث قال :

«رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار» (١) .

وعلى الداعية أن يكون متزودا بالعلم والمعرفة ، والقرآن والسنة ، والفقه والسيرة النبوية، وغير ذلك من العلوم الدينية والعربية وسائر أنواع الثقافات الأخرى ، وأن يكون متفقها نابها عالما بأحوال الذين يدعوهم ، فلكل مقام مقال ، حتى يدعو إلى الله على بصيرة .

وأن يكون ذا خبرة واسعة ، واطلاع كبير ، وعلم غزير ، حتى إذا تصدى لعلاج الأمراض الخلقية ، أو لأهل الباطل ، كان مسلحا بالعلم والإيمان والمعرفة الكافية فيصف العلاج المناسب ، ويقدم الدليل الصحيح ويستنبط الحكم الصائب ، فمثله كمثل الطبيب ، فحين يكون طبيبا ماهرا يصف الدواء الناجع والجرعة الملائمة ، فلا يقصر بحيث يطيل المرض ولايغالى فى الدواء ويعطى جرعة أكثر فيضر بالمريض ، ولذلك فإنه لايصح أن يمكن من الدعوة من لاخبرة له ومن ليس له علم غزير ، حتى لايترتب على دعوته المضرة وحتى لايسيء إلى الغير وهو يزعم أنه يحسن صنعا .

وعلى الداعى إلى الحق أن يسير على المنهاج القرآنى الذى أنزله رب العزة سبحانه وتعالى على رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ، لأننا مأمورون بالاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ومأمورون بتطبيق هذا المنهج الذى يقول فيه رب العزة سبحانه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (٢) فالذى يعترف بالحق ويقر به ويتبعه ندعوه

---

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة النحل (١٢٥).

بالحكمة ، والذى يقر بالحق ويفرط فيه فلا يقوم بالعمل نرشده بالموعظة الحسنة ، حتى يثوب إلى رشده ويقوم بالعمل ، وأما المعارض الذى لايعترف بالحق فنجادله بالتى هى أحسن.

وعلى الداعى أن يكون صبورا فلا يتبرم ممن يدعوهم حين يعارضونه أو يكذبونه أو يؤذونه فله فى رسوله والرسل السابقين عليهم جميعا الصلاة والسلام ، الأسوة والقدوة فى الصبر واحتمال الأذى حتى جاءهم نصر الله قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾ (1)

وفى الآية الكريمة، وعد بالنصر لرسول الله والرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام ولأتباعهم وورثتهم من العلماء والدعاة «ولامبدل لكلمات الله » وكما يقول ابن عباس فى هذه الآية : أى لمواعيد الله ، وفى هذا تقوية للوعد الذى وعد الله فيه بنصر المرسلين وورثتهم من العلماء والدعاة .

وعلى الداعى أن يتسم باللين فى دعوته ، والتيسير وعدم التعسير، وألا ينفر من يدعوهم ولايسبهم حتى لايعرض الحق إلى التجريح من أعدائه الجاهلين ، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (2) وقد روى فى سبب نزول هذه الآية الكريمة عن ابن عباس رضى عنهما قال : قال كفار قريش لأبى طالب: إما أن تنهى محمدا وأصحابه عن سب آلهتنا والنيل منها وإما أن نسب إلهه ونهجوه فنزلت: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وفى رواية أخرى أن المشركين قالوا : يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنزلت .

(1) سورة الأنعام (34)

(2) سورة الأنعام (108).

وعلى الداعيــــة أن يلتزم بآداب الدعــــوة ، فلا يكون جافا غليظ القــــول بل رفيقا لينا ، ولقـد وعظ واعظ الخليفـة المأمــــون وعنف له في القـول فقـال المأمون للواعـظ : يارجل ارفق ، فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى ، وأمره بالرفق قال تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (1) .

وعلى الداعية أن يحدث الناس بما يفهمون ، وألا يحدثهم بما يعلو على فهمهم ، وأن يتناول فى حديثه مشاكل البيئة والمجتمع ، وأن يحاول تقديم الحلول المناسبة ، والعلاج الملائم بصورة ميسرة وبأسلوب مقنع ومقبول .

وألا يشـهر بأحد من الناس ولايذكر أسـماء بعض الناس ، فإن النصيحة فى الملأ فضيحة، ومن وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه ... وقد كـان قدوة الدعاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لايذكر أسماء الذين يريد إرشادهم بل كان يقول : مابال أقوام يقولون كذا .. أو يفعلون كذا ، وهذا من أدبه العالى وذوقه الرفيع وكمال رفقه ، فما كان الرفق فى شىء إلا زانه ولا نزع من شىء إلا شانه .

وعلى الداعية ألا يهمل الأحداث التى تجرى فى المجتمع ولا المناسبات التى تمر به دون أن يعلق عليها ، ويستنبط العبرة منها .

وألا يكون الكلام طويلا مملا ، ولا قصيرا مخلا ، بل عليه أن يتوسط فى الحديث وفى الزمن الذى يستغرقه .

وألا يخرج المتحدث عن الموضوع الذى يتحدث فيه ، فقد تتداعى الأفكار ويأخذ فى الإطناب مما يجعل الحديث بعيدا عن الموضوع الذى أراد الكلام فيه وتوجيه الناس إليه ، فإن طول الكلام ينسى بعضه بعضا .

وعلى الداعية أن يتحرى اختيار الأحاديث النبوية والأحاديث القدسية التى يستدل بها، وأن يبتعد عن الأحاديث الموضوعة والضعيفة فلا يأخذ الأحاديث إلا من الكتب الصحيحة المعتمدة .

---

(1) سورة طه (٤٤).

وأن يحافظ على التعود بالنطق باللغة العربية وأن يصون حديثه عن الأخطاء النحوية واللغوية .

وعلى الداعية أن يعمل بما علم فيجمع بين الإيمان والعلم والدعوة والعمل مصداقا لقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] .

(١) سورة فصلت (٣٣) .

(١)

تقوى الله وثمراتها

الحمد لله رب العالمين ، أنزل دستوره السماوى ذكرا للعالمين ، وهدى للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله من اتقاه حظى بمعيته ، ونعم برعايته ، فهو القائل : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [١] ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله إمام المتقين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وضح أن السعادة للطائعين ، وأنزل عليه ربه سبحانه وتعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [٢] وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أيها الإخوة المؤمنون ...

إن التقوى : هى أن يبتعد العبد عما يغضب الله ، ويفعل ماأمر الله به ، فيجعل بينه وبين مايخافه من رب العزة سبحانه وتعالى ، وقاية تقيه من غضب الله وعذابه ، فيلتزم بفعل ما أمر الله به والاجتناب عما نهى الله عنه .

وقد تضاف التقوى إلى اسم الله سبحانه وتعالى كما فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٣]

وقد تضاف إلى العقاب ، مثل ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٤].

وقد تضاف إلى الزمان كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [٥]

---

(١) سورة البقرة (١٩٤ .
(٢) سورة هود (٤٩) .
(٣) سورة الحشر (١٨) .
(٤) سورة آل عمران (١٣١) .
(٥) سورة البقرة (٢٨١) .

وأحيانا يغلب استعمال التقوى على اجتناب ماحرم الله والبعد عما يغضبه من المعاصى ، فقد سـئل أبو هـريرة رضى الله عنه عن التقـوى فقال : هـل أخـذت طريقا ذا شـوك؟ قال : نعم قال : فكيف صنعت ؟ قال : إذا رأيت الشوك عزلت عنه أوجاوزته أو قصرت عنه قال : ذالك التقوى .

وكتب ابن السماك إلى أخ له : أما بعد، أوصيك بتقوى الله الذى هو نجيك فى سريرتك ، ورقيبك فى علانيتك ، فاجعل الله من بالك على كل حال فى ليلك ونهارك ، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك ، واعلم إنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ، ولا من ملكه إلى ملك غيره ، فليعظم منه حذرك وليكثر منه وجلك والسلام» وقال أبو الجلد : أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء ، «قل لقومك مابالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى إن كنتم ترون أنى لأراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون أنى أراكم فلم تجعلوننى أهون الناظرين إليكم» [1] .

والتقوى : هى وصية الله للأولين والآخرين ، وللسابقين واللاحقين ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [2] .

والتقوى : هى علامة على الإيمان ، وسمة من أهم سماته فقد قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [3] . وقال جل شأنه : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [4]

وقد وضح رب العزة سبحانه وتعالى صفات المتقين فى مواطن عديدة من القـرآن الكريم ، ففى أول سـورة البقـرة قـال الله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [5] .

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب

(٢) سورة النساء (١٣١) .

(٣) سورة المائدة (٥٧) .

(٤) سورة المائدة (٨٨) .

(٥) سورة البقرة (٢-٤) .

فذكر الله سبحانه وتعالى فى صدر سورة البقرة من أوصاف المتقين : الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة ، والإنفاق ، والإيمان بما أنزل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وماأنزل من قبله ، واليقين بالآخرة ، والإيمان بما فيها من بعث ونشور ، وجزاء وحساب ، وجنة ونار .

فنلاحظ أن القرآن وصف المتقين بصفات تجمع بين الإيمان والعمل ، وبين العبادة البدنية كالصلاة ، وبين العبادة المالية كالإنفاق ، وبين الإيمان بما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان بما أنزل من قبله على الرسل السابقين والإيمان بالآخرة وما فيها .. فأشار إلى أهم أنواع الإيمان وأهم أنواع العبادات ... وكان التركيز على الجانب الإيمانى ، لأنه لاتقوى بدون الإيمان ، قال عطاء رضى الله عنه : لقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته : ماكان وصية أبيك عند الموت ؟ قال : دعانى أبى فقال لى : يابنى اتق الله واعلم إنك لن تتقى الله حتى تؤمن بالله وتؤمن بالقدر كله خيره وشره ، فإن مت على غير هذا دخلت النار .. إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول ماخلق الله القلم فقال اكتب فقال : ماأكتب ؟ قال : اكتب القدر : ماكان وماهو كائن إلى الأبد [1] .

ومن صفات المتقين فى القرآن الكريم قول الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [2] .

وفى سورة آل عمران ، وصف الله تعالى المتقين بصفات تجمع بين التكافل الاجتماعى بالإنفاق فى السراء والضراء ، وبين مراعاة الجانب النفسى والمعنوى بكظم الغيظ ، والعفو عن الناس والإحسان إليهم ، والتوبة الصادقة فقال جل شأنه :

---

(١) رواه الترمذى فى القَدَر .

(٢) سورة البقرة (١٧٧) .

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (1) .

أما عن ثمرات التقوى : فبالتقوى يأمن الخائف ويفرح المحزون ، فلا خوف على المتقين فى الدنيا ولاخوف عليهم فى الآخرة ، ولاهم يحزنون فى الدنيا و لا هم يحزنون فى الآخرة . قال الله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (2) .

ومن ثمرات التقوى : **تيسير الله للتقى أموره** ليقوم بعمل الخير وفعل الطاعات والبعد عن المحرمات ، فيهيىء الله من اتقى إلى عمل الخير والاستمرار فى الطاعة ، ويسهل الله عليه الخصلة التى تؤدى إلى اليسر ، قال الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (3) أى من أعطى ماله منفقا له فى سبيل ابتغاء مرضاة الله واتقى الله وصدق بالحسنى فسيهيئه الله لليسر فى كل أموره ، وقال تعالى ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ (4) .

ومن ثمرات التقوى : **سعة الرزق ، والبركة فيه** ، بحيث يرزق الله المتقين رزقا واسعا، ويفتح عليهم بركات من السماء والأرض ، وينزل عليهم المطر، وينبت لهم الثمار ، قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (5) .

---

(1) سورة آل عمران (١٣٣ - ١٣٦) .

(2) سورة الأعراف (٣٥) .

(3) سورة الليل (٥ - ٧) .

(4) سورة الطلاق (٤) .

(5) سورة الأعراف (٩٦) .

ومن ثمرات التقوى : **أن الله سبحانه وتعالى مع المتقين** ومن كان فى معية الله فلا خوف عليه ، فهو فى الرعاية الربانية ، والعناية الإلهية ، ويعينه وينصره ، ويمده بالعون قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (١).

ومن ثمرات التقوى حفظ الله للمتقين من كيد أعدائهم : فإذا اتقى الإنسان ربه سبحانه وتعالى ، وصبر على الأذى الذى يلحقه ، فإن الله تعالى يكون معه بالعون والتأييد ، يرد عنه كيد عدوه ، فلا يضره ، فشرط نفى الضرر أن يكون صابرا وأن يتقى الله فى قوله وفعله وفى كل سلوكه ، قال سبحانه ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٢) .

ومن ثمرات التقوى : تنوير القلوب وغفران الذنوب ومضاعفة الرحمة فمن اتقى الله أضاء الله قلبه بنور العلم والمعرفة والهداية فيكون لديه فرقان يفرق به بين الحق والباطل ويمحو الله عنه ماسلف من الذنوب والآثام ويغفرها له ويسترها عليه ولايؤاخذه بها ، لأن التقوى تجبّ ما قبلها فهى توبة ورجوع إلى الله وعمل للصالحات قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣)

وبين سبحانه أن الله يضاعف للمتقين رحمته ويجعل لهم نورا يمشون به ، ونورا فى الآخرة يسيرون به على الصراط حيث قال جل شأنه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ (٥).

وقال سبحانه : ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٦)

---

(١) سورة النحل (١٢٨) .

(٢) سورة آل عمران (١٢٠) .

(٣) سورة الأنفال (٢٩) .

(٤) سورة الحديد (٢٨) .

(٥) سورة الطلاق (٥) .

(٦) سورة الأنعام (١٥٥)

وقال سبحانه : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] .

ومن ثمرات التقوى أنها طريق الفلاح ، والفوز والنجاح ، فالمتقون هم المفلحون والسعداء فى الدارين ، فى دار الدنيا وفى دار الآخر قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] . وقال سبحانه ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [3] .

ومن ثمرات التقوى : أن المتقين يحظون بمحبة الله سبحانه وتعالى ، فمن اتقى الله، واجتنب المحارم وأدى الطاعات فإنه يسعد بحب الله له ، ومن أحبه الله ، فاز فى الدارين قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [4] .

ومن ثمرات التقوى تفريج الكروب وكشف الهموم، والرزق من حيث لايحتسب العبد قال سبحانه ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [5] . وقد روى أنها نزلت فى عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابنه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الفاقة وقال إن العدو أسر ابنى وجزعت أمه فما تأمرنى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم له : اتق الله واصبر، وآمرك وإياها أن تستكثرا من قول لا حول ولاقوة إلا بالله» ففعل هو وامرأته فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها[6] فنزلت ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

---

(١) سورة الأعراف (١٥٦) .

(٢) سورة آل عمران (٢٠٠) .

(٣) سورة النور (٥٢) .

(٤) سورة آل عمران (٧٦) .

(٥) سورة الطلاق (٢، ٣) .

(٦) رواه الطبرى .

وهكذا نرى أن للتقوى ثمرات فى الدنيا وثمرات فى الآخرة ، فمن ثمرات التقوى فى دنيا الإنسان أن فيها الأمان والفرح وتيسير الأمور وسعة الرزق وحفظ الله للمتقين من كيد أعدائهم ، وتنوير قلوبهم ، وتفريج الكروب والرزق من حيث لايحتسب الإنسان .

ومن ثمراتها فى الآخرة : الفلاح ورحمة الله والفوز برضوان الله ، ودخول الجنة التى وعد بها المتقين قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ (١).

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ (٣)

والتقوى هى خير زاد للآخرة قال تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (٤).

ولأهمية التقوى كان التوجيه النبوى يأمر بها فى كل وقت وحين وفى كل زمان ومكان وحيثما كان الإنسان فقال صلوات الله وسلامه عليه :

«اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» (٥).

---

(١) سورة آل عمران (١٥) .

(٢) سورة الذاريات (١٥) .

(٣) سورة القمر (٥٤) .

(٤) سورة البقرة (١٩٧) .

(٥) رواه الترمذى .

(٢)

منهاج الدعوة الإسلامية قام على ركيزة الرفق والتيسير لا على العنف والتعسير

الحمد لله رب العالمين ، سمّى نفسه الرحمن الرحيم ، وأشهد أن لا إله إلا الله هو الرءوف الرحيم ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، قال الله فى شأنه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد القائل «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» وعلى آله وأصحابه ، الذين آمنوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، واتبعوا منهاج الدعوة الإسلامية بالرفق والتيسير ، والبعد عن العنف والتعسير.

أيها الإخوة المؤمنون : الإسلام هو دين الرفق والتيسير ، يدعو أتباعه أن يكون الرفق طريقهم فى الحياة ، ومنهاجهم فى السلوك ، ولذا بعث الله تعالى رسولا اتسم بالرفق ، وتركزت دعوته فى الرأفة والرحمة ، قال الله سبحانه وتعالى . ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة التوبة ١٢٨ .

(٢) سورة التوبة (١٢٨ .

والرفق : ضد العنف ، وهو اللطف وأخذ الأمر بأحسن الوجوه وأبصرها ، ويكون الرفق فى القول ، وفى الفعل ، وفى الأخذ بالأسهل .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطى عليه مالايعطى على العنف » [1] .

وفى هذا الحديث وصف الله سبحانه وتعالى بأنه رفيق أى لطيف بعباده يريد بهم اليسر ولايريد بهم العسر ، ولايكلفهم من الأعمال مالاطاقة لهم به ، ويحب سبحانه وتعالى أن يرفق بعباده ، وأن يرفق عباده بعضهم ببعض ، ولذا فهو يعطى على الرفق مالايعطى على العنف، فيعطى على الرفق فى الدنيا الثناء الحسن ، وتحقيق المقاصد ، وأما فى الآخرة ، فيجزل الثواب لمن كان رفيقا بعباده .

ومن آثار الرفق وثمراته : زيادة الخير والبركة لصاحبه ، ومن حرم الرفق حرم الخير كله : قال صلى الله عليه وسلم : « الرفق به الزيادة والبركة ، ومن يحرم الرفق يحرم الخير» [2] .

وكان عليه الصلاة والسلام يأمر بالرفق مع كل المخلوقات ، الرفق بالإنسان والرفق بالحيوان ، فعندما ركبت السيدة عائشة رضى الله عنها بعيرا فيه صعوبة ، فجعلت ترده وتضربه ، قال صلى الله عليه وسلم :

«عليك بالرفق ، فإن الرفق لايكون فى شىء إلا زانه ، ولاينزع من شىء إلا شانه»[3].

و الرفق كما هو مطلوب مع المؤمنين ، مطلوب مع غيرهم ، وكما هو مطلوب مع الودعاء والرفقاء ، مطلوب مع غيرهم ، فعندما قال بعض اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم «السام عليكم» يريدون الموت والدعاء عليه ، فطنت السيدة عائشة لقولهم ، فردت

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ، وأبو داود .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير .

(٣) رواه مسلم .

عليهم قائلة : «عليكم السام واللعنة» قال عليه الصلاة والسلام للسيدة عائشة رضى الله عنها «عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش» [1] ، ولايشغل عن الرفق شيء مهما كان محببا للإنسان حتى العبادة نفسها لايصح أن يشق الإنسان على نفسه فيها ، ولا على غيره لو كان إماما فيطيل فيها ، بل عليه بالرفق.

عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : قال رجل : يارسول الله إنى لأتأخر عن الصلاة فى الفجر مما يطيل بنا فلان فيها ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مارأيته غضب فى موضع كان أشد غضبا منه يومئذ ثم قال : «ياأيها الناس إن منكم منفرين ، فمن أم الناس فليتجوز فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة» [2] .

فالرفق فى العبادة أمر مطلوب ، والرفق بالمصلين الذين يقتدون بالإمام فلا يطيل عليهم حتى لاينفرهم أو يتعبهم ، وحتى يؤدوا العبادة بانشراح وارتياح ، وإقبال على الله رب العالمين .

ومن آثار الرفق وثمراته : اجتماع القلوب ، والألفة ، قال الله تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [3] .

وحتى لو حدثت مخالفة ، فلا يصح أن يتعامل الناس مع صاحبها بالعنف بل عليهم أن يعالجوا الموقف بالرفق ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قام أعرابى فبال فى المسجد، فتناوله الناس ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : دعوه وهريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوبا من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» [4] .

---

(١) رواه البخارى فى الأدب .

(٢) رواه البخارى .

(٣) آل عمران (١٥٩) .

(٤) رواه البخارى .

والرفق هـو سـمة الدعوة إلى الله ، يجب على الدعـاة أن يلتزموا به حتى لو كانوا يدعون أعداءهم وأعداء الله ، فلا يسوغ لهم ذلك أن يتسموا بالعنف ، فعندما وعظ المأمون واعظ ، وعنف له فى القـول ، قال له المأمون : يارجل ارفق ، فقد بعث الله من هو خير منك – وهو موسى وهارون – إلى من هو شر منى – أى فرعون – وأمره بالرفق ، فقـال تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [1]

هذا هو التوجيه الربانى لمن أراد أن يدعو إلى دين الله على هدى وبصيرة ، أن يدعو بالحسنى ، وأن يقول لمن يدعوه حتى ولو كان أعتى الجبابرة والطواغيت فى الأرض ، فإن فرعون – الذى أمر الله موسى وهارون عليهـما السلام باللين فى دعوته – كان يدعى الألوهية ، ويقـول : أنا ربكم الأعلى ، ومع هذ أمـر الله باللين فى القـول معه ... وليس العنف ولا الشدة .

ولقـد طبق البيت النبـوى ، وآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم هذا المنهاج على أكمل وجه ، وأرق صورة من الرفق ، فهذا الحسن وهذا الحسين ريحانتا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحفيداه الحبيبان إلى قلبه ، نظرا ذات مرة إلى رجل شيخ ، كان كبير السن ، ولكنه لايحسن وضوءه ، فقـال أحدهما للآخر : تعال نرشد هذا الشيخ ، فقـال أحدهمـا : ياشيخ إنا نريد أن نتـوضـأ بين يديك ، حتى تنظر إلينا ، وتعلم من يحسن منا الوضوء ومن لايحسنه ، وأظهرا أنهما يريدان أن يوجههما بينما الحقيقة أنهما يريدان أن يوجها هذا الشيخ الكبير ، وأخذا يتوضآن أمامه ، وهو ينظر إليهما ، فلما فرغا من وضوئهما قال الشيخ الكبير لهما : أنا والله – الذى لا أحسن الوضوء وأما أنتما ، فكل واحد منكما يحسن وضوءه ، وهكذا استطاعا – دون تعنيف أو تشدد – أن يوجها الرجل الكبير دون أن يكون هناك حرج له ، بل فى صورة من الرفق والأدب العالى ، والذوق الرفيع ..

وللإسلام حرصه على تحقيق الرفق فى العبادات ، والتيسير فيها ، حتى لايقع أحد فى حرج أو مشقة ، فما أقر الإسلام – حتى فى العبادة – أن يظل المتعبد قواما لليل ،

---

(١) سورة طه (٤٣) .

صواما للنهار بصفة دائمة ، بل عليه أن يعطى بدنه حقه من الراحة ويعطى عينه حقها من الراحة ويعطى زوجه حقها كذلك ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«ياعبد الله ، ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم بالليل ؟ قلت : بلى يارسول الله ، قال : فلا تفعل ، صم وأفطر وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا» (١) .

وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يأخذ نفسه بمزيد من العبادات ، ولكنه كان يوضح للمسلمين خصوصيته فى ذلك حتى لايشق أحد منهم على نفسه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال فى الصوم ، فقال له رجل من المسلمين : إنك تواصل يارسول الله ، قال : «أيكم مثلى ، إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى » فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يومائم يوما ثم رأوا الهلال ، فقال : «لو تأخر لزدتكم ، كالتنكيل بهم حين أبوا أن ينتهوا (٢) .

ومن الرفق أيضا الرفق بالعصاة ، ولا نقصد بالرفق بالعصاة التهاون معهم ، وإنما نقصد بالرفق بهم ألا نقنطهم من رحمة الله تعالى وألا نعين الشيطان عليهم ، لأن الإنسان حين يلعن العاصى ويبتعد عنه يتركه فريسة سهلة للشيطان ، ولقد ثبت أن أحد المسلمين – على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جيء به مرات شاربا للخمر ، وكان يضرب ويعاقب فى كل مرة ، وذات مرة ، حين جيء به شاربا ، قال أحد الصحابة: ماله لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به ؟

فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لمن لعنه : «لاتلعنه فإنه يحب الله ورسوله » وفى رواية : «لاتكونوا عونا للشيطان على أخيكم» .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى .

ونلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن لعنه مع مقارفته لأم الخبائث ، لأنها لم تقتلع منه أصل الإيمان ، ووصفه بأنه يحب الله ورسوله . وفى الرواية الأخرى أبقى عليه وصف الإيمان ، ولم يقطعه عن أخوة الإيمان التى تربط بينه وبين سائر المؤمنين فقال : «لاتكونوا عونا للشيطان على أخيكم» لقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ينظر إلى فطرة الإيمان الكامنة فى داخل هذا الرجل ، وأنه حين يؤخذ بالرفق ويدعى إلي الإصلاح والتهذيب والتقويم أولى من أن يترك نهبا للأهواء والشيطان ..

فإذا كان هذا موقف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مع إنسان ارتكب الذنب فأخذه بالرفق ، فما بالنا بمن يسيئون الظن بعامة المسلمين ، ويكفرونهم ويفسقونهم ؟ إننا نحرم ونجرم من يرتكب الذنوب ، وليس فى الموقف السالف تبرير لها ، بل علاج منها بمنهاج الرفق الذى يصلح الفرد كعضو فى المجتمع ولايبتره ولايعزله .

ولننظر إلى هذه الصورة المشرقة من رفقه صلى الله عليه وسلم ببعض الجاهلين من العصاة والمذنبين ، روى أبو أمامة أن غلاما شابا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يانبى الله أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال : النبى صلى الله عليه وسلم : قربوه أدن ، فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أتحبه لأمك ؟ قال لا والله جعلنى الله فداك ، قال ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، ثم قال له : أتحبه لابنتك ؟ قال: لا، جعلنى الله فداك ، قال : كذالك الناس لايحبونه لبناتهم ، ثم قال له : أتحبه لأختك قال : لا جعلنى الله فداك ، قال : كذلك الناس لايحبونه لأخواتهم ، ثم ذكر له العمة والخالة.. فوضع الرسول صلى الله عليه وسلم يده عليه وقال : اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه ، فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شىء» [(١)] .

وهكذا نهج رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى توجيهه التربوى العالى منهج الرفق بالنفوس الضعيفة ، فقوم مابها من اعوجاج ، وأصلح ما فيها من انحراف ، ليكون فى هذا التوجيه النبوى ، أسوة للدعاة والمصلحين ، وأنهم يبلغون بالرفق والتيسير ما لايمكن أن

---

(١) رواه أحمد الطبرانى .

يبلغوه بالعنف والتعسير ، إن علاج النفوس ، لايقل عن علاج الأبدان ، وإن دور الدعاة والهداة كدور الطبيب الماهر الذى ينظر إلى المريض نظرة عناية ورحمة ، فيفحص مريضه فحصا دقيقا ، ويشخص الداء ، ويصف له الدواء بما يليق بحاله ، وبالقدر الذى يتناسب مع علته .

وكذلك الحال بالنسبة للعصاة ، فمثلهم كمثل المرضى ، يحتاجون إلى تحديد حالهم، وتشخيص وضعهم ، فما يصلح من التوجيه للبعض قد لا يصلح للآخرين ، وكما أن المريض لايأخذ جرعة الدواء كلها مرة واحدة لأنها قد تودى بحياته ، ويتحول الدواء من علاج ناجع إلى سم قاتل ، فكذلك الحال بالنسبة للدعاة مع من يدعونهم ... ولذا كان التدرج فى الدعوة ، وكان الرفق والتيسير ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

(١) سورة التوبة (١٢٨) .

(٣)

دعوة الإسلام إلى حب الأوطان

الحمد لله الواحد الديان ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، شهادة يقر فيها بوحدانيته الإنس والجان ، وسائر المخلوقات والأكوان ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد ولد عدنان ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، الذين جمعوا بين العلم والعمل والإيمان ، وأحبوا فى إخلاص أكيد وطنهم ودعوا إلى محبة الأوطان ، ورأوا أن حب الوطن من الإيمان .

أيها الإخوة المؤمنون : إن الناظر إلى التعاليم الإسلامية ، يرى أنها تشتمل على عقيدة وعبادة وأخلاق ، وجهاد فى سبيل الله دفاعا عن العقيدة والدين ، وعن الوطن والأرض ، والمال والعرض .

ومما لا شك فيه أن محبة الأوطان ، تسرى فى دم كل إنسان ، لأنه يعيش على ظهر الوطن ويستظل بسمائه ، ويحيا فوق أرضه ، ويتمتع بخيراته ، فلا غرو أن يسرى حب الوطن فى قلبه ودمه . وإن محبة الأوطان من دلائل الإيمان ، فما شرع الجهاد فى سبيل الله إلا دفاعا عن العقيدة والأوطان ، ورد ا للظلم والطغيان ، وتأمينا لدعوة الإيمان ، ونشرا للسلام والأمان .

ومما لاشك فيه أن فى الجهاد بذلا للمهج والأرواح ، فى سبيل الدفاع عن الدين والأوطان ..

وللأوطان فى دم كل حر ... يد سلفت ودين مستحق

وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة يدق

وقدوتنا فى حب الأوطان ، هو سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فعندما خرج مهاجرا من مكة إلى المدينة ، نظر إلى البيت الحرام نظرات حانية ثم قال مخاطبا مكة المكرمة البلد الحرام ومسقط رأسه ، ومنزل الوحى وقبلة المسلمين :

«والله إنك لأحب أرض الله إلىّ ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت» (١).

ثم توجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الله سبحانه وتعالى بهذا الدعاء : «الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا .. اللهم أعنى على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ومصائب الليالى والأيام ، اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللنى ، وعلى صالح خلقى فقونى ،وإليك ربى فحببنى وإلى الناس فلا تكلنى .

رب المستضعفين ، وأنت ربى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين ، أن تحل على غضبك وتنزل بى سخطك ، أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نقمتك ، وتحول عافيتك وجميع سخطك لك العتبى عندى خير ما استطعت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله» (٢) .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم لمكة : « إنك لأحب أرض الله إلى» مايدل على حبه لها ، وعدم رغبته عنها إلا للضرورة ، ولذلك لما خرج عليه الصلاة والسلام من مكة ، فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾(٣) انتهى .

ومما يدل على أن حب الوطن من الإيمان ، قول الله تعالى : ﴿ ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا﴾ (٤) والناس يحبون أوطانهم ففيها حياتهم ونشأتهم وبها

---

(١) رواه أحمد والترمذى .

(٢) البداية والنهاية ، ورواه أبو نعيم.

(٣) رواه ابن أبى حاتم والآية رقم ٨٥ من سورة القصص .

(٤) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

تعلقت عواطفهم ، وفيها تواصل الأرحام ، والإحسان إلى أهل الوطن من فقراء ومحتاجين، وفى كل جزء فى الوطن عاطفة للإنسان ترتبط به ولاتفرط فيه .وإذا كانت مكة وطنا أول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن المدينة المنورة كانت هى الوطن الثانى الذى هاجر إليه ، ودعا للمدينة ولأهلها ودعا بالبركة فيها حيث قال : «واجعل بالمدينة ضِعْفَىْ ماجعلت بمكة من البركة » [1] .

وتتجلى محبته صلوات الله وسلامه عليه للمدينة ،ومحبة أهل المدينة إليه فى استقبالهم وحفاوتهم به وبالمهاجرين من أول لحظة قدم فيها المدينة .كما تتجلى محبة المدينة ومحبة أهلها له بعد أن فتح الله تعالى عليه مكة وفرح بالفتح فرحا عظيما ، وكان حفيا بالكعبة المشرفة والمسجد الحرام ... وعندئذ خاف الأنصار أن يقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة ولايرجع إلى أهل المدينة فيحرموا منه ، فقال بعضهم لبعض أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ، ورأفة بعشيرته ، أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟

فأوحى الله إليه بما جرى ، فذهب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إليهم ، فأخبرهم بما قالوا .

فأقروا ، فطمأنهم قائلا : «كلا إنى عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله ، وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم » فأقبلوا إليه يبكون ويقولون : والله ما قلنا الذى قلنا إلا الضن بالله ورسوله» .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم » .

هذا هو النموذج الأمثل فى حب الوطن والتعلق به ، والوفاء له والانتماء الصادق إلى العقيدة الحقة ، التى تدعو إلى حب الوطن وصدق الانتماء إليه ، وهذا يجعل الناس ينافحون عنه وينتصرون له ، ويضحون بالنفس والنفيس فى سبيله، وتكون خيانته أو التفريط فى حقه فى الأمن والاستقرار من الخيانة العظمي التي تورد صاحبها موارد الهلاك .

---

(١) رواه مسلم

إن حب الوطن ، يدعو كل مؤمن صادق الإيمان ، أن يكون وفيا لتراب الوطن الذى نشأ عليه ، وأن يصونه ، من كل غائلة ومن كل ترويع أو اضطراب ، فلا إيمان لمن لا أمانة له ولادين لمن لا عهد له .

إن سمات المؤمن أن يأمنه الناس على دمائهم و أموالهم وأعراضهم ، بل يكون اسمه نداء النجدة للمكروبين والمفزعين ويكون فى جواره الأمن والطمأنينة .

وإن الإسلام حين يدعـو إلى حب الأوطان ونشر الطمأنينة فيهـا والأمان ، إنما يقرر المبـدأ الإسـلامى الذى يجب أن يسـود فى الأرض وهو مـبـدأ الحـرية والسـلام ، والأمن والاستقرار . بل إن الإسلام قرر مبدأ الجوار ، ومبدأ الأمن لمن يجير إنسانا ولو كان كافرا ، فلا تمتد يد بسوء إليه .

فقد كانت السيدة أم هانىء بنت أبى طالب زوج هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، قد أجارت بعض أقارب زرجها بعد الفتح وهما : الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية المخزومى ، فدخل عليها أخوها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، يريد أن يقتل الرجلين فمنعته أم هانئ ، ثم جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مكة ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «مرحبا بك وأهلا يا أم هانئ ماجاء بك » فقالت : يانبى الله كنت أمنت رجلين من أحمائى فأراد علىّ قتلهما . ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أجرنا من أجرت ياأم هانئ» [1] .

فماذا كانت نتيجة هذا الجوار والأمان لهذين الرجلين ؟ لقد أسلم الحارث وزهير وكانا عونا للإسلام وأهله . وهكذا كانت ثمرة تعاليم الإسلام فى دعوتها إلى الأمن والاطمئنان ، وحب الأوطان ، ولله در له القائل :

بلادى وإن جـــارت على عـــــزيزة

وأهـــــلى وإن ضـــــنوا على كـرام

ومعنى هذا أن الإنسان يعز عليه أن تشقى بلده ، حتى لو فرض أنها جارت عليه ، أو ناله منها عسف أو تعب أو نصب ، فإنهـامع هذا عزيزة على الإنسـان ، ولا يرضى لها

(١) البخارى ومسلم .

الضياع ولاالهوان ، ومعلوم أن الوطن بمؤسساته وتراثه ، وبحضارته وخيراته ، لاتكون هذه الأشياء هي الجائرة ، ولكن مراد الشاعر أن الذين فيها قد يجورون ، فلا يصح أن يكونِ هذا مسوغا للإنسان أن يكره الوطن برمته ولا أن يكون حربا عليه ، بل تظل بلاده عزيزة عليه .

كما أن أهل الإنسان وعشيرته ، قد يبخلون عليه ، فلا يكون بخلهم أو بخل أحدهم على الإنسان مسوغا له أن يبغضهم ، بل عليه أن ينظر إلى زوايا أخرى ناله من خلالها وبسببهم خير كثير ، فقد تربى بخيرهم ، ونشأ في جوارهم ، وإن ضنوا عليه في جانب ، فقد كانو ا كراما في جوانب أخرى .

ومن هنا تغنى الشعراء بحب الأوطان ، وبالتفاني في سبيل رفعتها وسؤددها

وطنـــــي لو شغلت بالخـــــلد عنه

نازعتني إليه في الخلـــــــد نفسي

إن الإنسان المؤمن ، يحب وطنه ، ويظل وفيا له ، منافحا عنه ، وعونا لأهله في السراء والضراء ، يعز عليه أن يشقى الوطن أو أحد أهله مهما كانت الأحوال .

دم الأهــــــل والقربى وإن كان ظالمـــــا

عـــــزيز عليـــــــنا أن نراه يســـــــــيل

إن الإنسان المؤمن ، محب لوطنه ، وَفِيٌّ له ، متعاون مع أهله ، ومدافع عنه ، يعز عليه عنت الوطن أو شقاوته أو ترويعه أو إرهاب أحد بنيه ، بل يحب له الخير والسلام ، والأمن والاستقرار ، فالمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

روى الدينوري ، عن الأصمعي قال : قالت الهند «ثلاث خصال في ثلاثة أصناف من الحيوان: الإبل تحن إلى أوطانها ، وإن كان عهدها بعيدا ، والطير إلى وكره وإن كان موضعه مجدبا، والإنسان إلي وطنه ، وإن كان غيره أكثر له نفعا» وعن الأصمعي قال: سمعت أعرابيا يقول :

إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه ، وبكاؤه على مامضى من زمانه .

(٤)

دعوة الإسلام إلى التخلى عن الكبر والتحلى بالتواضع

الحمد لله الواحد القهار ، نحمده ونشكره آناء الليل وأطراف النهار ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، هو الكبير المتعال ، والعظيم الجبار ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله النبى المختار ، خاتم الرسل الأطهار ، وزين المرسلين الأخيار ، وأكرم من أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد النبى الأمى ، خير المتواضعين ، وخاتم الرسل والنبيين ، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين .

أيها الإخوة المؤمنون : إن دعوة الإسلام إلى لين الجانب وتراحم الناس وتواضعهم ، يسبقها تحذير الإسلام من الكبر والغرور ، لأن التخلية عن الرذائل مقدمة على التحلية بالفضائل .

فقبل أن نتناول فضيلة التواضع وبيان ثمراتها ، يجدر بنا ، أن نبين آثار الكبر السيئة ، وأسبابه ، ثم نوضح بعد ذلك ، فضيلة التواضع ، وثمراتها :

الكبر هو استعلاء الإنسان على غيره من الناس ، والترفع على من دونه ، وهو مرض خلقى ، ورذيلة من أسواء الرذائل نهى الإسلام عنها وحذر منها .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ (٢) .

---

(١) سورة لقمان (١٨) .

(٢) سورة الإسراء (٣٧) .

والصورة الواضحة فى معنى الكبر ، تظهر عندما يدفع المتكبر الحق ويرده ، فلا يقبله، وحين يزدرى الناس ويحتقرهم ، ولا يحترمهم . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنة ؟ قال : إن الله جميل يحب الجمال ،الكبر بطر الحق وغمط الناس [١] . ومعنى بطر الحق : رده وعدم قبوله، ومعنى غمط الناس : إحتقارهم وعدم إحترامهم .

والكبر من صفات الله تعالى ، فهو سبحانه : «الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر .. » فالعظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **قال الله تعالى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى»** [٢] .

والكبر يورد صاحبه موارد الهلاك ، لأنه يدفعه إلى كل شر ويبعده عن كل خير ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : التقى عبد الله بن عمرو وعبدالله بن عمر على الصفا فتواقفا ، فمضى ابن عمرو ، وأقام ابن عمر يبكى ، فقالوا : ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟

فقال : هذا – يعنى عبد الله بن عمرو – زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه» [٣] .

ومن الآثار السيئة التى تترتب على هذا المرض الخلقى – الكبر – مايأتى :

أولا : أن الله تعالى يعمى قلب المتكبر ، فلا يهتدى إلى الحق ، ولايفهم آيات الله تعالى ، ولا يتدبر مافيها ، لأن الله تعالى طمس على قلبه عقوبة له على تكبره ، وفى هذا

---

(١) رواه مسلم والترمذى .

(٢) رواه مسلم وأبو داود ابن ماجه واللفظ له .

(٣) رواه أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان .

إنذار لكل من تسول له نفسه أن يتكبر ، وأن العاقبة الوخيمة لكل من يصرف عن آيات الله بسبب تكبره ، قال سبحانه : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (٢) .

ثانيا : أن الله تعالى لايحب كل مختال فخور ، ولايحظى بكرم الله تعالى إلا من أحبه فالمتكبر بعيد عن الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٣)

ثالثا : يمتد خطر الكبر حتى يصل صاحبه إلى أن يستكبر عن عبادة ربه سبحانه وتعالى ، فتكون نهايته جهنم وبئس القرار قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٤) .

رابعا : من الآثار التى تعود على المتكبر غضب الله سبحانه ، وسوء خاتمته حتى يلقى الله وهو عليه غضبان ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان » (٥) .

خامسا : أن الله تعالى يعجل للمتكبر العقوبة ويضاعفها له حتى تصل إلى الخسف فى الدنيا ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بينما رجل يتبختر فى بردته ، إذ أعجبته نفسه ، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» (٦) .

---

(١) سورة الأعراف (١٤٦) .

(٢) سورة غافر (٣٥) .

(٣) سورة لقمان (١٨) .

(٤) سورة غافر (٦٠) .

(٥) رواه الحاكم والطبرانى فى الكبير .

(٦) رواه البخارى ومسلم .

سادسا : أن المتكبر يظل فى جهل ، وإذا علم شيئا لايزداد علمه ، لأن كبره يمنعه أن يسأل أهل العلم ، وأن يحضر مجالس العلم ، وأن يستفسر عما يجهله .. وهذا على عكس الإنسان المتواضع فإنه لايرى بأسا من أن يأخذ العلم عن العلماء وعمن هو أكبر منه وعمن هو مثله وعمن هو دونه ، كما قال بعض سلفنا .

«لاينبل الرجل حتى يأخذ العلم عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه» .

سابعا : ومن آثار الكبر السيئة التى تعود على صاحبه بالويل والثبور ، أنه يمنع الإنسان من قبول آراء الآخرين ونصائحهم وتوجيهاتهم ، فتراه يتعصب لرأيه ، أو للرأى الذى يعتقده ويزعم أن ماعداه من الآراء الأخرى غير صحيح ، وأن رأيه هو وحده الصحيح ، فيظل جامدا على رأى واحد ، وفكر معين ، لايقبل غيره ، ولايقبل نصائح الآخرين..

وفى هذا التعصب مافيه من الأضرار ، التى تضيق ماوسع الله ، وتمنع الخير عن الإنسان ، وعمن يحيط به من إخوانه ، وبنى جنسه ، والتعصب هو شر الآثار السيئة التى تأتى نتيجته الكبر والغرور والصلف .

أسباب التكبر

والذى يدفع الإنسان إلى رذيلة التكبر ، هو ضعف إيمانه بالله تعالى إذ لو كان قوى الإيمان بالله ، ماتكبر ، لأنه يكون حينئذ - مؤمنا بأن الله وحده هو الكبير المتعالى ، وهو العزيز الجبار المتكبر .

فأول أسباب التكبر ، هو ضعف الإيمان بالله ، وعدم الإيمان بالآخرة ، ومافيها من ثواب وعقاب ، وأن الملك فيها لله الواحد القهار ، قال الله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١) .

ومن أسباب التكبر التفاخر بالأحساب والأنساب ، والله تعالى قد جعل ميزان الأفضلية

(١) سورة النحل (٢٢) .

بتقواه لا بالأحساب ولا بالأنساب ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1] وعن أبى بن كعب رضى الله عنه أنه قال : إن رجلين تفاخرا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة ، فمن أنت لاأم لك » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : قل للذى افتخر : بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم [2] .

ومن أسباب التكبر أن يكون الإنسان أكثر عبادة من غيره ، وكان عليه أن يدرك أن حسن الخاتمة بيد الله تعالى وحده ، ولا يدرى أحد من نفسه أيثبت على الطاعة أم لا ، ورب معصية أورثت ذلا وصغارا ، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا وقد روى أن رجلا من بنى إسرائيل أتى عابدا فوطىء على رقبته وهو ساجد فقال له العابد : ارفع فوالله لايغفر الله لك ، فأوحى الله إليه « أيها المتألى على بل أنت لايغفر الله لك » [3] .

ومن أسباب التكبر : المال وكثرة العرض ، وعلى من بيده مال ألا يتعالى على الناس به ، بل عليه أن يشكر الرزاق فيصرفه فى الوجوه المشروعة ، فالمال عرض زائل ، وهو فتنة لصاحبه ، فيكون سبب هلاكه إن طغى وتكبر بسبب المال ، ويكون خيرا له إن تواضع به وأعطى حقوق العباد منه ، وعليه ألا ينسى أنه من تراب وإلى تراب .

قال الشاعر

نسى الطين ساعة أنه طين	حقير فصال تيها وعربد
وكسا الخز جسمه فتباهى	وحوى المال كيسه فتمرد
يأخى لا تمل بوجهك عنى	ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
أنت فى البردة الموشاة مثلى	فى كسائى الرديم تشقى وتسعد
أأمانى كلها من تراب	وأمانيك كلها من عسجد

(١) الحجرات آية ١٣ .

(٢) رواه عبدالله بن أحمد فى زوائد المسند .

(٣) رواه أبو داود .

وأمـــــانى كلها للتلاشــــــى وأمـانيـــــك للخلود المؤكـد

لا فـهـذى وتلك تأتى وتمضــى كـذوبهــا وأى شئ سـرمـد

أنت مـثلـــــى من الثرى وإليـه فلماذا ياصاحبى التيه والصد [1]

وكان على صاحب المال ألا يتعالى على الناس به وألا يتفاخر ويتكاثر ، بل يخرج زكاة ماله ، وينفق منه ، فنعم المال الصالح للرجل الصالح ، فحبذا لوجعل منه صدقة جارية تبقى له بعد موته .كما قال صلى الله عليه وسلم : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» [2] .

والذى يتكبر بالمال ، لايأمن أن تزول النعمة من يده ، أو يهلك ماله ، فليس له أن يستعلى على الناس بالمال بل عليه أن يؤدى حق الله وحق العباد .

ومن أسباب التكبر : المنصب والسلطان والجاه ، فكثير من الناس يتغيرون فى معاملاتهم إذا ولوا منصبا ، ويأخذهم الصلف والغرور ، وينسون رفقاء رحلتهم أيام التعب والخشونة ، ولكن شأن كرام المؤمنين ألا تغيرهم المناصب ، وألا ينسوا إخوانهم ، كما قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أيســـروا ذكروا من كان يألفهم فى الموطن الخشن

وعلى من رأى فى نفسه الاستعلاء بسبب المنصب أن يُرىَ نفسه أصلها وأن يتخلى عن مرض الغرور ، ويتحلى بالتواضع ، فها هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخطب فيقول: أيها الناس لقد رأيتنى أرعى الغنم عند خالات لى من بنى مخزوم ، فأقبض من التمر والزبيب ، فأظل بها يومى ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين ، مازدت على أن عبت نفسك ؟ فقال له عمر : ويحك يابن عوف ، إنى خلوت بنفسى فحدثتنى ، فقالت : أنت أمير المؤمنين ، فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها نفســـها . وها هو

---

(١) الجداول «ديوان شعر إيليا أبو ماضى» .

(٢) رواه مسلم والبخارى فى الأدب .

عمر بن عبد العزيز كان مع بعض جلسائه فاحتاج السراج إلى إصلاح فقام ليصلحه ، فقالوا له : كلنـا نكفـيك ذلك ؟ فقال : ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه ، قمت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر ، ما نقص منى شىء .

وبمثل هذا التصرف الحكيم يعالج العقلاء نزوات النفوس التى توردهم موارد الصلف والغرور ويعالجون ضعف أنفسهم بالحكمة .

وقد يكون العلم من أسباب التكبر عند بعض الناس ، وذلك حين لايطلبه صاحبه لوجه الله ، وحين يباهى به الناس أو يتظاهر بأنه أعلم الناس وأعظم الناس ، والله تعالى يقول: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) [1] .

وقد كان الأولى بأهل العلم أن يكونوا أكثر الناس تواضعا ، لأنهم أعلم الناس بفضل التواضع ، وأدرى الناس بنهاية المغرورين والمتكبرين ..

وقدكان أهل العلم من سلفنا أكثر الناس تواضعا ، وقدوتهم فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان يستوقفه الرجل والعجوز والصغير والكبير فى الطريق وفى كل مكان فيقف ويجيب كل سائل دون ملل أو تبرم ، وكان لسلفنا الصالح نماذج عالية فى هذا المضمار ، رأى ابن عباس رضى الله عنهما زيد بن ثابت يوما يركب دابته فأخذ بركابه يقود به ، فقال زيد : تنح ياابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا . فقال زيد : أرنى يدك ، فأخرج ابن عباس يده فقبلها زيد ، وقال : وهكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

وهكذا نرى تواضع العلماء مع كبارهم ، وتوقيرهم لهم وتواضع كبارهم وآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، إنها قمة التواضع والخلق الرفيع والأدب العالى العظيم .

---

(١) الإسراء آية ٨٥ .

فضيلة التواضع من دلائل كمال الإيمان

وإذا كان التكبر مبعثه ضعف الإيمان ، فإن فضيلة التواضع مبعثها كمال الإيمان ، قال الله تعالى ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ (١)

وإذا كان الكبر طريقا إلى الانخفاض وعدم الرفعة ، فإن التواضع طريق إلى العلو والارتفاع ، قال صلى الله عليه وسلم « مانقصت صدقة من مال ، ومازاد الله عبـدا بعفو إلا عزا ، وماتواضع أحد لله إلا رفعه الله» (٢) . ولطالما طبق صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم خلق التواضع فى كل تصرفاتهم وسلوكهم ، عن طارق قال : خرج عمر إلى الشام ومعنا أبوعبيدة فأتوا على مخاضة (مستنقع) وعمر على ناقة له ، فنزل وخلع خفيه فوضعها على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض ، فقال أبوعبيدة : ياأمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا ؟ مايسرنى أن أهل البلد استشرفوك . فقال : أوه لوقال ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد ، إنا كنا أذل قوم فأعـزنا الله بالإسـلام ، فمهـما نطلـب العـز بغير ماأعزنا الله به أذلنا الله (٣) .

وقد خاطب رب العزة رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ (٤) وقال : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥)

ثمرات التواضع

من أهم ثمرات التواضع رضا الله تعالى عن المتواضعين ، وإكرامه لهم ورفعه لدرجاتهم ، فمن تواضع لله رفعه الله ، كما جـاء فى الحديث : «وما تواضـع أحـد لله إلا رفعه الله» .

(١) الفرقان آية ٦٣ .

(٢) رواه مسلم والترمذى .

(٣) رواه الحاكم .

(٤) آل عمران آية ١٥٩ .

(٥) الشعراء آية ٢١٥

ومن ثمرات التواضع : منع التفاخر والبغى والظلم بين العباد ، فكم من ظالمين دفعهم كبرهم وغرورهم إلى ظلم إخوانهم ، قال صلى الله عليه «إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد»[1] .

ومن ثمراته : حب الناس للمتواضع ، لأنه يمشى على الأرض هونا (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) .

ومن ثمرات التواضع سلوك سبيل الجنة ، على عكس الكبر فإن فيه سلوك طريق النار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر»[2] .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود .
(٢) رواه مسلم .

(٥)

حقوق الجيران في الإسلام

الحمد لله رب العالمين ، دعا إلى الإحسان إلى الوالدين وذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (١) وأشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذى أكد الوصية بالجار ، وجعلها علامة لتمام الإيمان ، وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هديه بإحسان إلى يوم الدين .

أيها الإخوة المؤمنون :

لقد أكد الإسلام حق الجوار ، سواء كان جارا قريبا أو جار ا أجنبيا ، أو كان جارا مرافقا فى السفر ، أو زميلا فى تعلم العلم ، أو كان جالسا إلى جوارك فى مجلس ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾(٢) .

فنرى أن الآية الكريمة وصت بالجار ذى القربى ، وهو الجار القريب له حق الجوار وحق القرابة ، كما وصت بالجار الجنب : وهو الجار الأجنبى الذى لاقرابة بينك وبينه ،

---

(١) سورة النساء (٣٦) .

(٢) سورة النساء (٣٦) .

كما وصت الآية بالصاحب بالجنب ، وهو كما قال ابن عباس رضى الله عنهما : «هو الرفيق فى السفر» وقال الزمخشرى : هو الذى صحبك إما رفيقا فى سفر ، أو جارا ملاصقا، أو شريكا فى تعلم علم ، أو قاعدا إلى جنبك فى مجلس ، أو غير ذلك . وقيل : هو المرأة .

وكانت الوصية بالجار مؤكدة لدرجة أن الذى نزل بها جبريل عليه السلام من قبل الحق تبارك وتعالى ، ولم ينزل بها مرة ولا مرتين ، بل نزل بها عدة مرات ، ووصى بالجار كثيرا ، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظن أنه يشارك الجار جاره فى الميراث كما يشارك القريب الوارث قريبه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» (١) .

وجعل الإسلام إكرام الجار لجاره دلالة على الإيمان بالله واليوم الآخر ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» (٢) .

كما جعل الإسلام من دلائل الإيمان وكماله أن يأمن الجار بوائق جاره أى غوائله وشروره ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : «لايؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه» (٣) .

وإيذاء الجار ، وعدم القيام بحقه يحبط عمل صاحبه ، لأن الإسلام دين عبادة ومعاملة ، ولذلك لما قيل للرسول صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها فقال ، صلى الله عليه وسلم : «هى فى النار» (٤) .

ومن حقوق الجوار احتمال أذى الجار ، ولايكفى منع الأذى عنه ، ولايكفى احتمال الأذى ، بل لابد من الرفق وإسداء الخير والمعروف للجار .

ومن حقوق الجار : أن يبدأ المسلم جاره بالسلام ، وأن يكثر من السؤال عن حاله والتتبع لأخباره ، وعليه أن يعود جاره إذا مرض ، وأن يعزيه إذا كان مصابا ، ويهنئه إذا فرح ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه البخارى .

(٤) رواه أحمد والحاكم.

ويصفح عن زلاته ، ولايتطلع إلى عوراته ، ولايضيق طريقه إلى الدار ، ولايتطلع إلى مايحمله إلى داره ، ويرشده إلى مايجهله من أمور دينه ودنياه . وفى الحديث ، وان استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وألا تستعلى عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولايخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولاتؤذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها ، ثم قال «أتدرون ماحق الجار ؟ والذى نفسى بيده لايبلغ حق الجار إلا من رحمه الله» [١] .

وللجار حق وإن لم يكن مسلما ، قال مجاهد :كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال : ياغلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى ، حتى قال ذلك مرارا ، فقال له كم تقول هذا ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه .

ويوصى الإسلام الجارات المسلمات بتواصل الود بينهن فيقول صلى الله عليه وسلم : «يانساء المسلمات لاتحقرن جارة جارتها ولو فرسن شاة» [٢] .

وعليه أن يطيع الله فى جاره ، فقد روى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود رضى الله عنه فقال له : إن لى جارا يؤذينى ويشتمنى ويضيق علىّ فقال : اذهب فإن عصى الله فيك فأطع الله فيه .

وأما إذا زاد الجار فى شره وإيذائه لجاره ولم يجد معه الصبر ولا الملاينة ، فعليه بتحريك الرأى العام معه ، فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره فقال له النبى صلى الله عليه وسلم «اصبر» ثم قال له فى الثالثة أو الرابعة «اطرح متاعك فى الطريق» قال : فجعل الناس يمرون به ويقولون : مالك ؟ فيقول : آذاه جاره فجعلوا يقولون : لعنه الله ، فجاءه جاره فقال له : رد متاعك فو الله لا أعود [٣] .

---

(١) أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق وابن عدى وهو ضعيف ويمكن العمل به فى فضائل الأعمال .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه أبو داود والحاكم .

(٦)

وجود الله تعالى

الحمد لله رب العالمين ، حمدا يليق بجلاله وكماله ، سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شيء قدير . نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره ، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له بيده مقاليد السموات والأرض، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ رسالة ربه أعظم مايكون التبليغ ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه ، اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد فيا معشر المسلمين ، إن أولى مراحل الإصلاح ..... إصلاح الجانب الإيمانى فى نفوس الناس ، وإصلاح المجتمع بالعقيدة الصحيحة ، فإذا صلحت عقيدة الإنسان وصح يقينه وإيمانه صح عمله ، وإذا صح عمله أثمر السلوك الحسن والخلق الفاضل ، ومن أجل هذا نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى الشطر الأول من الدعوة الإسلامية فى مكة يرسخ العقيدة فى النفوس ويدعو إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ، ونحن فى مرحلة حاسمة من مراحل الإصلاح ، تحتاج منا قبل أن نتقدم خطوة فى الإصلاح ، أن نصلح جانب الاعتقاد .. وأن نؤسس المجتمع على عقيدة يؤمن الناس فيها بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، وماكان من إصلاح بغير هذا الأساس الإيمانى فلا وزن له ولاقيمة، لقد انهارت الفلسفات المادية التى بعدت عن الإيمان بالله ، والتى تنكرت لمنهاج الله ، وسقطت كل هذه الأيديولوجيات المادية الملحدة التى تنكرت للشرائع وتنكرت لوجود الله الخالق سبحانه وتعالى ، بيد أن الأدلة القائمة على وجود الحق سبحانه وتعالى مبثوثة فى كتاب الكون المفتوح إنها موجودة فى الأرض وفى

السماء ، وفى كل مخلوقات الله ، فهذه السماء حين تتفكر فيها وتقول كيف رفعها الله بلا عمد ، وهذه الأرض كيف بسطها ؟

وتتفكر فى الشمس والقمر ، والنجوم والأشجار ، والنبات ، والدواب ، والإنس والجن. هل يقع فى ذهن عاقل أن توجد هذه المخلوقات العظيمة دون أن يكون وراءها خالق عظيم ؟ إن أية صنعة لايمكن لإنسان أن يصدق بوجودها بلا صانع ، فكيف بهذا الكون الفسيح ، ومافيه من مخلوقات عظيمة ، إنها تشهد بوجود الله الخلاق العظيم ، يقول الدكتور دراز : «قدر فى ذهنك بيتا منسق البنيان فاخر الأثاث والرياش قائما على جبل مرتفع تكتنفه غابة كثيفة ، وقدر أن رجلا جاء إلى هذا البيت فلم يجد فيه ولا حوله ديارا ولانافخ نار ، فحدثته نفسه بأنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها ثم تجمع ماتناثر فيها ليأخذ شكل هذا القصر البديع بما فيه من مخادع ومقاصير ، وأبهاء ومرافق ، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحا وتركبت أبوابا وسررا ومَقاعد ومناضد، ثم أخذ كل منها مكانه فيه ، وأن تكون خيوط النبات وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشاة ثم تقطعت طنافس ووثائر وزرابى ، فانبثت فى حجراته واستقرت على أرائكه ، وأن المصابيح جعلت تهوى إليه بنفسها من كل مكان فنشبت فى سقفه زرافات ووحدانا ، ألست تحكم بأن هذا حلم نائم أو حديث خرافة قد أصيب صاحبه باختلاط فى عقله ؟ فما ظنك بقصر ، السماء سقفه والأرض قراره ، والجبال أعمدته ، والنبات زينته ، والشمس والقمر والنجوم مصابيحه؛ أيكون فى حكم العقل أهون شأنا من ذلك البيت الصغير ؛ أو لا يكون أحق بلفت النظر إلى بارئ مصور حى قيوم خلق فسوى وقدر فهدى» [1] .

وأن رجلا أعرابيا لم يتخرج من مدرسة ولم يدخل جامعة ولكنه عاش فى الصحراء القاحلة برمالها الصفراء وسمائها الصافية فليس معه سوى نوقه وجماله وماتركه النوق والجمال من تلك المخلفات من البعر ، هذا الأعرابى البدوى استطاع أن يدرك بعقله كيف

---

(١) من كتاب «الدين» للدكتور محمد عبد الله دراز .

تدل المخلوقات على خالقها فقال : : البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ... أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، أفلا تدل على اللطيف الخبير ... نعم ... إن فى داخلنا فطرة إيمانية .. فطر الله الناس عليها ، ووفدوا إلى دنيا الحياة ومعهم هذه الفطرة النقية ، وهى تعنى الإيمان بالله تعالى ، ولكن الناس يشوهون هذه الفطرة ، ويضيعونها كما يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[1] إذن فقد وفدنا إلى دنيا الحياة ومعنا فطرة الإيمان التى فطرنا الله سبحانه وتعالى، عليها وإذا كان العقل البشرى حين ينصف فى بحثه لايسعه إلا أن يؤمن بوجود الله عن طريق النظر فى خلقه ، فإن هناك نوعا من خلق الله الذين عرفوا الله عن طريق النظر فى المخلوقات ، بل رأو أن الله تعالى ليس فى حاجة إلى دليل يدل على وجوده ، إنهم العارفون بالله ، أولئك الذين قالوا إن وجود الله ليس بحاجة إلى دليل يدل عليه ،كما قال ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه النفيسة : «إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك » هذا نوع آخر من الاستدلال وهو أن وجود الحق سبحانه لايحتاج إلى دليل يدل عليه ... رغم مافى الكون من آيات مبثوثة تستوجب على كل الجاحدين أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يؤمنوا بربهم ، ولو خاطبوا عقولهم خطاب إنصاف ، وقالوا لأنفسهم أمن المعقول أن يخلق الإنسان بدون خالق ، أمن المعقول أن يخلق من غير شئ ، أم يدعون أنهم هم الذين خلقوا أنفسهم، والأول مستحيل لأن لكل مسبب سببا ، وأن لكل صنعة صانعا ، فلابد أن يكون لهذا الخلق من خالق ، وكذلك الثانى مستحيل كيف يخلقون أنفسهم ؟ ولقد كانوا من قبل لاشيء ، ماكانوا شيئا مذكورا ؟ ولذلك يخاطبهم القرآن ويقول : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [2] . إذن فالقضية لاتعدو أحد أمور ثلاثة ، إما أن يكونوا خلقوا من غير

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه ؟

(٢) سورة الطور (٣٥) .

شيء ، وإما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم ، وإما أن يكون هناك خالق ، ومادام قد استحال أن يخلقوا من غير شيء ، ومادام قد استحال أن يكونوا هم الذين خلقوا أنفسهم، فلم يعد هناك سوى شيء واحد ، وهو أن الخالق هو الله الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية . إنه الله .. الذى آمنت به كل النفوس ، وكل الخلق شاهد بعظمته .

وفى كـــل شيء لــــه آيـــة   تـــدل عـــلى أنـــه الواحـد

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ، ويكره ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم . ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال [1] .. أو كما قال التائب : من الذنب كمن لا ذنب له» ادعو الله يستجب لكم .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الأقضية باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة وأخرجه مالك فى كتاب الكلام باب ماجاء فى إضاعة المال وذى الوجهين .

(٧)

وحدانية الله تعالى

الحمـد لله الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهـاية ، الظاهر بلا اسـتظهـار ، والبـاطن بلا استتار ، قدرته قادرة قوية ، وإرادته نافذة على جميع البرية ، إن أسعد أحد فبفضله وإن أشقاه فبعدله . يحكم على الجميع العاصى منهم والمطيع، ولامعقب لحكمه إذا حكم ولامحاسب له إذا أعطى أو حرم، فهو صاحب الخلق والملكوت، والعزة والجبروت، جميع الكائنات طوع إرادته وكلهم رهن إشارته كما قال فى كتابه المكنون﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1]. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، هو الواحد الأحد، الفرد الصـمد ، الذى لم يـلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وأشهد أن سـيدنا محمـداً عبده ورسوله وصفيه وخليله أنزل عليه ربه :﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[2] اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، الذين آمنوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا.. رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

أيها الإخوة المؤمنون .كان حديثنا فى الجمعة السالفة عن دعوة كل من على ظهر الأرض للإيمان بالله فقد أعلنت أيديولوجيات مادية إفلاسها ، وترنحت نظرياتها الوجودية والمادية ، التى تنكرت للشريعة ، ولوجود الخالق البارىء سبحانه وتعالى ، ورأينا كيف دلت الأدلة النقـلية والعقـلية على وجود الله الذى برأ الكون وخلق كل مافى الوجود ، وأنه هو الملك المعبود والإله المقصود ، واليوم نتحدث عن الإيمان بوجود الله القوى القادر ، وعن وحدانيته سبحانه وتعالى فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لايشاركه أحد فى ربوبتيه، ولايشاركه

(١) سورة يس (٨٢) .

(٢) سورة الأنعام (١٦٢ ، ١٦٣) .

ملك ولارئيس ولا عظيم فى ألوهيته ، إنه واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى أفعاله سبحانه وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) . إنه سبحانه الإله الواحد ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٢) ويقول سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم :« أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله»(٣)

لقد دلت على وحدانيته سبحانه وتعالى ، هذه الأدلة النقلية من الكتاب والسنة وشهدت بذلك الأدلة العقلية بما هو مبثوث فى كتاب الكون المفتوح ، وبما هو مشاهد للناس جميعا من خلق الليل والنهار ، ومن سائر المخلوقات ، فلو كان لهذا الوجود إله آخر لاعترض على هذا الإله ، ولفسد أمر السماوات والأرض . لكن قيام هذا الخلق على هذا النظام البديع الذى لاخلل فيه ، ولايعتريه اضطراب يوما من الأيام ، ولالحظة من اللحظات ، أكبر دليل على أن وراءه إلها واحدا لاشريك له ، إن وحدانية الربوبية مشاهدة فى أن هذا الكون يقوم برزقه وتربيته والإنعام عليه إله واحد ، لارب سواه ، وأن توحيد الألوهية مشاهد محسوس فإن هذا الكون وجميع الخلق لايتجهون بالعبادة إلا إلى هذا الإله الواحد لا إله غيره ولارب سواه ، إن هذه الوحدانية التى اتصف بها رب العزة سبحانه وتعالى ، شعارها والإعلان عنها والإيمان بها فى كلمة واحدة هى كلمة التوحيد ، التى قال عنها رب العزة: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٤) أصلها ثابت وراسخ فى قلب كل مؤمن وكل موحد بالله ، إنها تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، إنها تدفع صاحبها للطاعة الصادقة التى لا يشرك فيها مع الله أحدا ، إن كلمة التوحيد تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، فلانرى صاحبها يمد يده لغير الله ولانرى صاحبها يسأل أحدا غير الله ، ولانرى قائلها المؤمن بها يستعين بغير الله ، بل يستجيب لقول

---

(١) سورة الأنبياء (٢٢) .

(٢) سورة البقرة (٢٥٥) .

(٣) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه عن جابر .

(٤) سورة إبراهيم آية (٢٤) .

رسوله صلى الله عليه وسلم : «إذا سألت فأسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك [1] . إن كلمة التوحيد هذه تعصم دم صاحبها ، وتعصم ماله ، قال عليه الصلاة والسلام : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله [2] . حساب كل إنسان يقول هذه الكلمة على الله ، أما دمه وماله فمعصوم بمجرد أن ينطق بهذه الكلمة ، إن لهذه الكلمة قدسيتها عند رب العالمين سبحانه وتعالى ، ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه العتاب الشديد لهذا الصحابى الذى ذهب مع تلك السرية وحين شذ بعض الذين كانوا يعادونهم ونطق بكلمة التوحيد قتله فلما علم النبى صلى الله عليه وسلم قال له أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قال الصحابى: يارسول الله قالها متعوذا – أى لم يقلها من قلبه ولا صادقا بها – فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ثلاث مرات أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟ أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ وماذا تفعل بلا إله إلا الله يوم القيامة ... وفى رواية للحديث هلا شققت عن قلبه[3] ؟

إن كلمة التوحيد تعصم دم صاحبها بنص القرآن ونص السنة الصحيحة . وتعصم ماله ، ومن أجل ذلك ، ومن أجل ما لها من مكانة فإن الذى يختم الله تعالى له حياته بهذه الكلمة يكون مصيره إلى الجنة . يقول النبى صلى الله عليه وسلم : من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة [4] . ويروى فى سنن ابن ماجه حديث يقول فيه النبى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده ٣٠٧/١ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب تحريم قتل الكافر بعد قوله لا إله إلا الله .

(٤) أخرجه أبو دواود فى كتاب الجنائز باب فى التلقين .

صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول له رب العزة ياعبدى أتنكر من هذا شيئا ؟ فيقول : لا يارب ؟ فيقول له: أظلمتك كتبنى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول له ألك عذر أو حسنة فيبهت الرجل فيقول لا يارب فيقول له رب العزة : بلى .. إن لك عندنا حسنة واحدة لاظلم اليوم عليك . يقول النبى صلى الله عليه وسلم : فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيقول العبد : يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شىء[1]

هذه هى كلمة التوحيد ، ولكن ليس معنى هذا أن يتكل الناس عليها ، وأن لا يؤدوا حقها من صلاة أو صيام أو زكاة أو حج .. بل عليهم أن يؤدوا حقوق هذه الكلمة التى توجبها على كل مسلم ، وإن من حقوق الكلمة أن تستجيب لما أمر الله وأن تنتهى عما نهى الله سبحانه وتعالى عنه . إن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بشر سيدنا معاذا رضى الله تعالى عنه بفضل هذه الكلمة وأثرها وأراد سيدنا معاذ أن يبشر المؤمنين نهاه النبى صلى الله عليه وسلم ، لماذا نهاه ؟ مخافة أن يتكل الناس عليها .. كما روى الإمام مسلم فى صحيحه عن معاذ رضى الله تعالى عنه أنه قال : كنت ردف النبى صلى الله عليه وسلم – أى راكبا خلفه – ليس بينى وبينه إلا مؤخرة الرحل ، فقال يامعاذ بن جبل قلت لبيك يارسول الله وسعديك ثم سار ساعة .. فقال يامعاذ بن جبل قلت لبيك يارسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال يامعاذ بن جبل قلت :لبيك يارسول الله وسعديك قال : هل تدرى ماحق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . ثم سار ساعة فقال : يامعاذ : قلت : لبيك يارسول الله وسعديك ... قال هل تدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت الله ورسوله أعلم .

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد مايرجى من رحمة الله يوم القيامة ، وأخرجه أحمد ٢١٣/٢ .

قال حق العباد على الله أن لا يعـذبهم . وفى رواية أن معاذ بن جبل قال : يارسول الله ، أفلا أبشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا [1] ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما .

إن كلمة التوحيد تدعـونا أن لا نعبد الطواغيت ولا الأصـنام البشـرية ولا غيرها، وأن لا يسجد أحد إلا للخالق الواحد سـبحانه وأن لا تعنو الوجوه إلا لبارئها الحى القـيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ...

إن كلمة التوحيد أيها الإخوة المؤمنون ، وإن الإيمان بها يستوجب علينا أن لا ندعو إلا الله ، وأن لا نسأل إلا الله ، أن تكون وجهتنا صادقة لله سبحانه وتعالى ، قال عليه الصلاة والسلام «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» ، أو كما قال : التائب من الذنب كم لاذنب له ...

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب من أقر بالشهادتين حرم الله عليه النار .

(٨)

الشهادة برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

الحمد لله رب العالمين ، له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شىء قدير ... سبحانه وتعالى هو وحده الخالق الرازق ، وهو وحده القادر المدبر ، وهو على كل شىء قدير .. ونشهد أن لا إله إلا الله شهادة نقر فيها بربوبيته وألوهيته ، وعظمته ووحدانيته. ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله .. أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ... اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذى ختم الله به الأنبياء والرسل ، وبعثه رحمة للعالمين ... صلوات ربى وسلامه عليه وعلى أصحابه وأتباعه ، ومن دعا بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد ...

فيا جماعة المؤمنين ، تحدثنا من قبل عن شـهادة التوحيد ،وهي شـهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة التوحيد يقر فيها العبد بوحدانية الله تعالى وربوبيته ، ويعلن إيمانه بالله قيوم السموات والأرض ، وهذه الشهادة تستوجب الشهادة الثانية وهى أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله ، وهذه هى موضوع حديثنا اليوم ، شهادة أن سيدنا محمداً رسول الله وهذه الشهادة الثانية بالرسالة ترتبط بالشهادة الأولى بوحدانية الله تعالى ، فمن آمن بالله لابد أن يؤمن بما أمر به الله ، ومن آمن بما أمربه الله آمن بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أمر الله تعالى بطاعته ، و اتباعه ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [1] .

---

(١) سورة النساء آية (٨٠) .

والشهادة برسالته صلى الله عليه وسلم تعنى ... الإيمان بأنه رسول الله ، ختم الله تعالى به النبيين والمرسلين ، ولا تكتمل الشهادة بوحدانية الله إلا بالشهادة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قرن الله الشهادة لرسوله بالشهادة به ، وقرن الله اسم حبيبه المصطفى باسمه ، فى كل أذان تصدح المآذن منادية : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وفى كل صلاة وفى كل تشهد نقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، وكما قال القائل :

أغــــر عليـــه للنبـــــوة خـــــاتم   مـــن الله ميمـون يلـــوح ويشـــــهد

وضــــم الإله اسـم النبى إلى اســـمه   إذا قـال فى الخمس المؤذن أشــــــهد

وشــــق لـــه من اســـــمه ليجلـــــه   فـــــذو العرش محمود وهـــذا محمد

صلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله ، يامن ختم الله تعالى بك النبيين والمرسلين ، وقرن اسمك باسمه والشهادة لك بالرسالة .. بالشهادة له بالتوحيد، سبحانه وتعالى .وأن رسالتك العامة الخالدة إلى أن يقوم الناس لرب العالمين ، قامت عليها الأدلة النقلية من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقامت عليها الأدلة العقـلية فـالله تعـالى يقـول﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ (1) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلام ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا» (2) وإلى جانب الأدلة النقلية الدالة على الشهادة له بالرسالة نجد الأدلة العقلية التى تثبت رسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأختار لحضراتكم دليلا عقليا ليس من عندى ولا من عند مفكر ولا باحث ولكنه دليل عقلى رواه الإمام البخارى فى صحيحه ضمن أحاديثه فى محاورة هرقل مع أبى سفيان فى شأن رسالة رسـول الله صلى الله عليه وسلم وتحدث بها أبو سفيان عندما كان فى ركب من التجار من الشام ، وطلب هرقل أن يأتوا وأن يسألهم عن أحوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وهرقل لم يلتق برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤمن به ، ولكنه أراد أن

(1) سورة الفتح آية (29) .

(2) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب دعاؤكم إيمانكم .

يستدل بعقله ، والعقل منحة ربانية وهبنا الله إياها ، وأمرنا أن نستخدمها فسأل هرقل أبا سفيان عن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق الترجمان ، قال له : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : أنا ، قال : إنى سائلك عن هذا الرجل وأمر بأصحابه أن يكونوا خلف ظهره وقال : إن كذبنى فكذبوه ، وحوله عظماء الروم قال له :كيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال :فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قال : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال : لا، قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم . قال : بل ضعفاؤهم قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قال : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قال : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، قال :فهل يغدر ؟ قال : لا، ونحن معه فى مدة ، لا ندرى ماهو فاعل فيها - وهى مدة صلح الحديبية - قال : هل قاتلتموه ؟ قال نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قال : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه . قال أبو سفيان : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ، قال : بماذا يأمركم ؟ قال : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا مايقول آباؤكم .ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة (١) » .

هذه هى المحاورة الموجزة التى أجراها رجل عاقل ، لم يلتق برسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد أن يعرف أحواله من خلال هؤلاء.انظر كيف استنتج عقله من هذه المحاورة ، قال له عن طريق الترجمان : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ... يعنى لم يقل أحد هذا القول قبله ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله . وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، أى ليس من آبائه ملوك ، فقلت لو كان من آبائه من ملك لقلت رجل قام يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن

---

(١) رواه البخارى .

ليـــذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وســـألتك أشـــراف الناس اتبـــعـــوه أم ضعفاؤهم؟فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أنه لايغدر ، وكذلك الرسل لا تغدر وسألتك بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ماتقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه [1] . انظروا بعد هذه الاستنتاجات ماذا قال هرقل ؟ يقول بعد ذلك: وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه صلوات الله وسلامه عليه .

هذا استنتاج رجل غير مسلم ، هذا استنتاج رجل عاقل لم يقابل سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه استطاع بالعقل المنصف المحايد أن يصل إلى الحقيقة ويتمنى فى تواضع جم أن يغسل عن قدميه ، وأن يكون أحد أتباعه وخدامه صلى الله عليه وسلم.

هذا دليل استنتجه رجـل له عقل ، ويستنتجه كل يوم كل ذى عقل، فلا يسعه إلا أن يؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد نبيا ورسولا صلى الله عليه وسلم ، ومن أجل ذلك روى الإمام مسلم فى صحيحه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه « والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولانصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» [2] .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه موضحا سبب كثرة أتباعه «مامن الأنبياء نبى إلاأعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة [1] . إلى جانب ذلك كان لغير المسلمين حتى من الأحبار ومن أحبار اليهود ، ومن أهل الكتاب من كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويقرءون نبأ هذا الرسول وهذه الرسالة المحمدية في كتبهم السالفة حتى إن أحدهم ذات مرة. راح يبحث أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم فعرفها وغابت عنه صفتان : أن يسبق حلمه جهله ، وأن لا يزيده جهل الجاهل عليه إلا حلما على حلم ،فأراد أن يبحث عن هاتين الصفتين وأن يتأكد منهما ، فعندما كان جالسا مع رسول صلى الله عليه وسلم وجاءه أحد المسلمين يرفع إليه شكاية بعض القبائل الذين دخلوا في الإسلام رغبة ويخشى أن يخرجوا منه رهبة ، فقد أصابتهم سنة من السنين وجدب وفقر ، فماذا فعل النبى صلى الله عليه وسلم ؟ التفت هل يجد شيئا يعطى هذه القبيلة ؟ فلم يجد فقال له هذا الحبر إن شئت أعطيتك المال على أن تبيعنى تمرا ، وحدد له موعد الوفاء به لكن هذا الحبر وهو زيد ابن سَعْنة جاء إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يحل موعد الوفاء وطالبه بشيء من الحِدّة والشدة والغلظة والجفوة وقال : إنكم يابنى عبد المطلب قوم مُطّل ، أى تسوفون فى الحقوق ، وبادر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يريد أن يؤاخذ الرجل فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : لا ياعمر ، أنا وهو أولى منك بغير ذلك ، تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن التقاضى ، انظروا إلى رحمته ورأفته وسماحته صلى الله عليه وسلم ، إنه قال لعمر إن موعد الرجل وموعد حقه لم يأت بعد، ولكن قم الآن وأعطه حقه فقام عمر ، وأعطى الرجل حقه . فقال له : سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم : قم ياعمر وأعط الرجل شيئا زيادة فوق حقه ، فقال له : لماذا يارسول الله ؟ قال : لأنك روعت الرجل وأفزعته . انظروا إلى سماحته ورحمته صلوات الله وسلامه عليه ، فراح عمر يعطى الرجل الزيادة فقال له : أو لست تعرفنى ياعمر ؟ قال : من ؟ قال: زيد بن سعنة قال: الحبر ، قال له عمر : مالذى دفعك على أن قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماقلت؟ وصنعت به ماصنعت أمام ملأ من أصحابه ؟ فقال الرجل : والله لأصدقنك الحديث ياعمر ، أنت تعلم أنى حبر من أحبار اليهود وقرأت الكتب السابقة

(١) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن باب كيف نزل الوحى وأول مانزل .

كلها، وكانت تبشر بنبيكم وتصفه لنا ، ومن ضمن أوصافه صفتان كنت أبحث عن هاتين الصفتين فيه فما وجدتهما ، فأردت بما افتعلته أمامكم من مظهر الشدة والحدة فى طلب الحق أن أختبره أهو حقا النبى الذى بشرت به الكتب السالفة أم لا ؟ وهاتان الصفتان : أن يسبق حلمه جهله ، وألا يزيده جهل الجاهل عليه إلا حلما على حلمه ، فأردت بما رأيت أن أختبره : أهو النبى الذى بشرت به الكتب أم لا ؟ فوجدته حقا نبى آخر الزمان ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . ودخل الحبر فى الإسلام وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بفضل سماحة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلاله الكريمة التى يجب علينا أن نتخلق بها وأن نترسم معالمها وأن نسير على هديها . وأن نتمسك بشهادة التوحيد وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، أو كما قال التائب من الذنب كمن لاذنب له . ادعو الله يستجب لكم .

(٩)

الإيمان بالملائكة

الحمد لله رب العالمين.. حمداً يليق بجلاله وكماله، سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شئ قدير.. الحمد لله فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء، سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شئ قدير.. نحمده ونشكره ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره ونشهد أن لاإله إلاّ الله وحده لاشريك له بيده مقاليد السماوات والأرض وهو على كل شئ قدير. ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه، بعثه الله سبحانه بالهدى ودين بالحق ليظهره على الدين كله، فبلغ رسالة ربه أعظم ما يكون التبليغ وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد فيا جماعة المسلمين.. الركن الثانى من أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بوجود ملائكة لله مقربين. وقد تحدثنا عن الركن الأول وهو الإيمان بالله وما يقتضى ذلك من إعلان شعاره بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن سيدنا محمدا رسول الله، والركن الثانى من أركان هذه العقيدة أن نؤمن بوجود ملائكة لله سبحانه وتعالى. وملائكة الله خلق من مخلوقات الله وما يعلم جنود ربك إلا هو وخلق الله كثيرون منهم ما هو مشاهد ومنهم ما هو غير مشاهد، وإيماننا بالملائكة معناه أن نصدق بوجودهم على نحو ماورد بشأنهم فى كتاب الله وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، دون زيادة ولا نقصان، والإيمان بالملائكة نوع من الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب هو أول سمات المؤمنين المتقين كما قال جل شأنه بسم الله الرحمن الرحيم: - ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [1] . فالإيمان بالغيب هو السمة الأولى من سمات المتقين، والإيمان بالغيب

(١) سورة البقرة آية (١-٣) .

أيها الإخوة المؤمنون يعطى الإنسان المؤمن قوة فى إيمانه، وتوثيقا فى صلته بالله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يتقيد بالعالم المحسوس، ولأنه لايتقيد بهذا الحيِّز الموجود الذى يدركه بحواسه المادية. بل ينطلق بتفكيره إلى ما وراء هذه المادة ليؤمن أن لله خلقاً آخر، وأن لله قدرة قادرة قوية، وأن لله إرادةً نافذة على جميع البرية، إنه يؤمن بعالم آخر غير العالم الدنيوى الذى يعيش فيه، وملكوت آخر سوى هـذا الحيز المادى المحسوس ، يؤمن الإنسان بعالم الغيب لا يعارض ولا يمارى ولا يتحدث بجدل عقيم حول أمور يقول عنها من الممكن أن تكون موجودة أو من الممكن أن لا تكون موجودة، أو يناقش فى أمور يقول عنها إنها حق ولماذا ؟ لأن العقل استساغها، أويقول عن بعضها ليست حقا... لماذا؟ لأن العقل لم يستسغها ولم يدرك كنهها وهنا يأتى الإيمان بالغيب، ليجعل من عقيدة الإنسان قوة روحية تؤمن بعالم الغيب وما فيه، وتؤمن بما غاب عنا وعن حواسنا، بأمور دلت عليها الأدلة العقلية والنقلية فى كتاب الله وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والإيمان بوجود الملائكة من أنواع الإيمان بالغيب ومنه الإيمان بالجنة، والنار، والإيمان بالحساب، والثواب، والعقاب، والصراط والميزان هذه أمور غيبية من عالم الغيب، ومن الغيب الذى أُمرنا أن نؤمن به.

وقد دل على الإيمان بالملائكة كعنصر من عناصر الإيمان بالغيب، وكركن من أركان العقيدة الإسلامية، دلّ على وجود الملائكة، الدليل العقلى لأن كل أثر يدُل على مؤثره، فإذا دخلت حجرتك مثلاً ووجدت كرسياً أو مكتباً أو أى شئ انتقل من المكان الذى عهدته فيه إلى مكان آخر قلت لا بد أن تكون هنا يد حركت هذا الشئ من المكان إلى المكان الآخر، كل شئ فى الوجود إذا تحرك فلا بد له من فاعل، وقد كان من آثار ملائكة الله تعالى ما تنزلت به من قرآن ومن كتب سابقة، ومن وحى إلى أنبياء الله ورسله وإلى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومالهم من آثار الحفظ لبنى آدم وما لهم من آثار قبض الأرواح بالنسبة لملك الموت وأعوانه، وما لهم من آثار فى كون الله تعالى، سخرهم الله لذلك، من أجل هذا كان الإيمان بالغيب، وكان الإيمان بالملائكة تعزيزا للعقيدة الإسلامية وترسيخا لها فى القلوب؛ لنقول لهؤلاء الذين يجادلون فى الحق ويقولون لانؤمن إلا بالمادة ولا نؤمن إلا بما تدركه الأعين والأبصار ، نقول لهم : إن هناك عالما أمرنا الله تعالى أن نؤمن به، وهو الإيمان بالغيب، وقد خلق الله تعالى ملائكته لا يعصون الله ماأمرهم

ويفعلون مايؤمرون، خلق الله تعالى ملائكته لايرتكبون إثما، ولا يوصفون بذكورة ولأنوثة ولاجوع ولاظمأ، إنها نماذج دالة على أن للكون إلها خالقاً قادراً بيده ملكوت السموات والأرض، إنهم سفراء الله إلى رسله، يحملون الوحى الإلهى، إن لهم وظائفهم التى خلقهم الله تعالى من أجلها، فكان منهم من يوكل بوحى السماء. جبريل عليه السلام، ويسمى الروح الأمين، وروح القدس، كما جاء فى الحديث الذى يقول فيه سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم: «إن روح القدس – «أى جبريل» – نفث فى روعى – أى ألقى فى قلبى – أنه لن تموت نفس حتى تستكمل أجلها وتستوعب ورزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته»[1]. فسماه روح القدس وهو الذى حمل إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم أولى قطرات الوحى الإلهى عندما كان معتكفا فى غار حراء فجاءه الملك وضمه وقال له اقرأ قال ما أنا بقارئ.. فأرسله ثم ضمه الثانية وقال له اقرأ قال ما أنا بقارئ.. فأرسله ثم ضمه الثانية وقال له اقرأ.. قال: ما أنا بقارئ.. قال ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[2].

هذا هو جبريل الملك الموكل بوحى السماء،كان أحيانا يأتى فى صورة رجل ويراه الصحابه، وأحياناً يأتى فى صورة دحية الكلبى وهو واحد من الصحابة كان له سمت جميل ومظهر عظيم تأنيسا لقلب النبى صلى الله عليه وسلم وجاءه ذات مرة على هيئة رجل كما فى الحديث الذى راوه مسلم وغيره .. وهو حديث سيدنا عمر الذى يقول فيه : بينما نحن جلوس عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لايرى عليه أثر السفر ولايعرفه منا أحد، فجلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخديه وقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام؟

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء عن أبى أمامة رضى الله عنه والحديث أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحى .

(٢) سورة العلق آية (١–٥) .

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال: صدقت.. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه.. ثم قال أخبرنى عن الإيمان.. قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره.. قال صدقت.. قال : فأخبرنى عن الإحسان؟ قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال : فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل.. قال : فأخبرنى عن أماراتها – أى علاماتها – قال: أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان. قال: ثم انطلق فلبثت مليا. ثم قال لى يا عمر: أتدرى من السائل قلت : الله ورسوله أعلم، قال : هذا جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم» [1] صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن بين الملائكة، عزرائيل الموكل بقبض الأرواح وله ملائكة يعاونونه فى ذلك. ومنهم إسرافيل الذى ينفخ فى الصور يوم القيامة وميكائيل الموكل بأمر الأمطار والنبات. ومالك خازن النار، ورضوان خازن الجنة، والحفظة الذين يحفظوننا ليل نهار «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» ومن الملائكة حملة العرش، ومن الملائكة – ملائكة خاصة بالجبال.

ودنيانا التي نعيشها فيها خلق من الملائكة وإن كنا لا نراهم فإن الله وكلهم بمهام ووظائف يقومون بها فى هذه الحياة.. كما جاء فى الحديث الصحيح عندما ناهض المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج من مكة إلى الطائف.. فنزل عليه ملك الجبال وقال : يا محمد.. السلام .. يقرئك السلام.. وأنا ملك الجبال أرسلنى الله إليك فأمرنى بما شئت.. إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبينَ – وهما جبلان بمكة – فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : لا .. بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا [2] .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب أول من قال فى القدر .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ماتقدم من ذنبه .

هذا ملك الجبال. وهناك ملائكة سياحون فى الأرض أخبر عنهم سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم حين قال: «إن لله فى الأرض ملائكة سياحين يبلغونى من أمتى السلام»[١] عليه الصلاة والسلام. فإذا صلينا وسلمنا علي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغوه ذلك.

وهناك ملائكة أيضا سياحون فى الأرض يلتمسون مجالس الذكر التى تضم الذين يذكرون الله ذكراً كثيراً ويسبحونه بكرة وأصيلا، يلتمسون مجالس الذكر ويهبطون فيها ليشهدوا لأصحابها عند رب العزة سبحانه وتعالى، وفيهم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق. يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم، قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم بهم: ما يقول عبادى ؟ قال: تقول : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال: فيقول : هل رأونى ؟ فيقولون : لاوالله ما رأوك.. قال : فيقول : كيف لو رأونى ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا. قال. يقول فما يسألوننى؟ قال فيقولون: يسألونك الجنة، قال يقول : وهل رأوها . قال يقولون : لا والله يا رب ما رأوها. قال فيقول: فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال يقولون : لو أنهم رأوها لكانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة. قال فمم يتعوذون ؟ قال يقولون:، من النار. قال فيقول: وهل رأوها ؟ قال فيقولون : لا والله يارب مارأوها. قال يقول: فكيف لورأوها. قال يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة. قال فيقول. فأشهدكم أنى قد غفرت لهم. قال يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم[٢].

إنهم الملائكة السياحون فى الأرض الذين يهبطون على مجالس ذكر الله سبحانه وتعالى، وإذا وجدوا قوما يتدراسون كتاب الله ويتعلمونه فيما بينهم هبطت الملائكة، وتنزلت عليهم الرحمة.

---

(١) أخرجه أحمد ٣٨٧/١ . ٤٤١/٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات باب فضل التسبيح .

ومن الملائكة ملائكة يشهدون صلاة الفجر وقرآن الفجر حتى تحرصوا على قرآن الفجر، ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [1] أى تشهده ملائكه الله سبحانه وتعالى. الذين يتلون كتاب الله ويحرصون على صلاة الفجر وهى نعمة كبرى وتوفيق عظيم، تشهدُ الملائكة هذا فى الصلاة، وتبارك أصحابها ويفتح الله تعالى لأهلها أبواب السماء والقبول.

وقد روى الإمام البخارى فى صحيحه من حديث أسيد بن حضير ما يشهد بوجود الملائكة عند تلاوة القرآن الكريم فقد روى البخارى فى صحيحه من حديث أسيد بن حضير أنه كان يتلو القرآن فجالت فرسه أى تحركت وتأثرت من نبراته الخاشعة وهو يتلو كتاب الله سبحانه وتعالى فسكت عن القراءة، فسكتت الفرس، فعاد إلى القراءة، فعادت الفرس تجول، فسكت عن القراءة، فسكتت الفرس ثانية، فعاد إلى القراءة فعادت تجول وتتحرك، يقول حتى خشيت على ولدى يحيى وكان نائماً ، فاجتر ولده ونظر إلى السماء فوجد أمثال الظلة أى وجد شيئا يشبه السحاب، فخرج يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله قرأت البارحة القرآن فجالت الفرس، فسكتُّ فسكتت ثم قرأت فجالت.. وهكذا .. فنظرت إلى السماء فوجدت أمثال الظلة فما هذا ؟

قال : تلك ملائكة الله دنت لصوتك ولوظللت تقرأ لظلت الملائكة حتى رآها الناس فى الصباح[2]. سبحانك يا ربنا يا خالق الخلق بقدرتك.. يا مدبر أمر السماء والأرض، يامن ترسل لنا ملائكة حفظة يحفظوننا من شر الشياطين. ويحفظوننا من شر الجن والإنس، والهوام أنت يا ربنا جدير وخليق بأن نعبدك ولا نكفرك، وأن نسجد لك حمداً وشكراً فى كل وقت وفى كل حين، سبحانك يا مالك الملك والملكوت.

---

(١) سورة الإسراء ٧٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن .

(١٠)

الإيمـان بالكتب

الحمد لله رب العالمين، حمدا يليقُ بجلاله وكماله سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شئ قدير، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ونتوبُ إليه من كل ذنب ونستغفره، ونشهدُ أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له، بيده مقاليد السموات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهل على كل شئ قدير. ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله بعثه الله سبحانه وتعالى فختم به الأنبياء والمرسلين، وبعثه رحمة للعالمين، وجعل رسالتهُ عامةً فى الزمان وفى المكان، وجعل دعوته خالدة إلى أن يقوم الناس لرب العالمين. إنها الدعوة العالمية التى نؤمن فيها بالله وملائكته وكتبه التى أنزلها على رسله السابقين. ونؤمن بالرسل وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين. الذين اتبعوا منهاج الحق، ودعوا إلى الله على بصيرة وهدى، فرضى الله تعالى عنهم أجمعين.

أما بعد فيما جماعة المؤمنين.. موعدنا اليوم مع الركن الثالث من أركان العقيدة الإسلامية.

فالركن الأول هو الإيمان بالله، والركن الثانى الإيمان بملائكة الله، أن نصدق بهم على نحو ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم والركن الثالث الإيمان بالكتب، والمراد بها الكتب السماوية التى أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسله ليبُشروا أقوامهم وينذروهم وليدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وهذه الكتب لا يوجد لها مرجع وثيق فى عصرنا الحاضر، أعظم ولا أقوى ولا أصدق من القرآن الكريم الذى أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ذكر القرآن الكريم بعض هذه الكتب على سبيل الإجمال، فلم يفصل أمرها ولم يذكُر أسماءَها ولا أسماء الرسُل الذين أنزلت عليهم، وهذا نوع من الكتب التى أنزلها الله وأشار إليها فى كتابه، والنوع الثانى وهو القسم

الذى ذكر الله تعالى فيه هذه الكتب على وجه التفصيل فوضح أسماء الكتب الإلهية السماوية التى أنزلها الله تعالى وذكر أسماء الرسل الذين أنزل عليهم هذه الكتب، أما النوع الأول أيها الإخوة المؤمنون فلستم مطالبين بالنسبة له إلا أن تؤمنوا بأن الله تعالى أنزل على الكثير من رسله كتبا إلهية يدعوهم فيها إلى توحيد الله جل شأنه وإلى عبادته، ولستم مطالبين بأكثر من ذلك ؟ أما النوع الثانى فهو الذى ذكره على سبيل التفصيل فوجب أن نؤمن به أيضاً على سبيل التفصيل حتى تكون عقيدتكم صحيحة وحتى يكون إيمانكم سليماً، هذه الكتب التى ذكرت على سبيل التفصيل منها ما أنزل على إبراهيم عليه السلام، ومنهاما أُنزل على عيسى عليه السلام وخاتمة الكتب ونهاية مطافها القرآن الكريم. كلمة الله الأخيرة التى أنزلت على سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، أنزلت صحف على سيدنا إبراهيم عليه السلام، وعلى سيدنا موسى عليه السلام ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (١) فيها هداية لأقوامهم وفيها دعوة لهم إلى توحيد الله وإلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأُنزلت على موسى التوراة، كتاب سماوى أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله سيدنا موسى عليه السلام، وقد اشتملت على الدعوة إلى توحيد الله وإلى عبادة الله وإلى الأحكام الكثيرة التى ذكرت فيها.

وأنزلت كُتُبٌ أخرى أيضا. من بين هذه الكتب: الزبور الذى أنزله الله تعالى على سيدنا داود عليه السلام وفيه من المواعظ والتوجيهات الإلهية والبيانات الربانية، وفيه من الأذكار التى أمروا أن يذكروا الله سبحانه وتعالى بها ذكرا كثيرا، ومن الكتب التى يجب أن نؤمن بها أيضا على سبيل التفصيل الإنجيل الذى أنزل على سيدنا عيسى عليه السلام واشتمل: على دعوة التوحيد، لتوحيد الله وعبادته وحده لاشريك له وعلى توجيهات إلهية وبيانات ربانية حتى يتبع الناس هذا النبى وحتى يؤمنوا بالله رباً وحتى يوحدوه ويعبدوه . لقد كان كل كتاب من الكتب السماوية يحمل دعوة وشريعة إلهية ويحملُ من الأحكام والآداب والمواعظ ما يتناسب مع من أنزل عليهم هذا الكتاب ويتناسب مع عصرهم، ومع فطرهم، وكانت كل شريعة إذا ما انتهى زمانها ومضى رسولُها، ولحق إلى ربه جاءت الشريعة

---

(١) سورة الأعلى آية ١٩ .

اللاحقة فنسخت السابقة، ولكنها جميعاً كانت محدودة لم يكن لها سمة العموم؛ لأن الدعوة لم تكتمل ولأن قافلة البشرية لم تنته رسالتها بعد، ولن ينتهي مطاف مسيرتها بعد، إلى أن جاء خاتم الأنبياء والمرسلين، فأكمل الله به النعمة وأتمها على يديه.. وأكمل دينه من جميع الوجوه ، وركز في دعوته وشريعته وكتابه جميع هدايات الأنبياء السابقين، وقال له : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ (1)

لقد ركز له كل دعوات الرسل السابقين وما أقره من الأحكام الشرعية، ولكن جميع الكتب السماوية التي أُنزلت قبل القرآن كانت متحدة في غاية واحدة : هي عبادة الله وحده لا شريك له، كلها تتفق على هذا الأصل ولا تختلف فيه، وربما تختلف في الفروع، وفي بعض الأحكام إلى أن بلغت البشرية نضجها، ووصلت الإنسانية إلى المرحلة الأخيرة فكانت الدعوة العامة الخاتمة والخالدة، والتي أُنزل لها هذا الكتاب الذي يحمل سمة العموم والخلود، وهو القرآن الكريم الذي ختم الله تعالى به الكتب السابقة كلها، وختم برسوله جميع الأنبياء والمرسلين، ومقصودُنا حين نقول: إن الإيمان بالكتب السابقة ركن من أركان العقيدة السماوية ، مقصودنا الكتب السماوية الأصلية التي لم يدخلها زيفٌ ولا تحريفٌ ولا تغيير، ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان أما المحرف والمتغير فلا، لقد ختم الله تعالى هذه الكتب بالدستور السماوي ، بالمعجزة الخالدة، والمفخرة التالدة ، إنها معجزة القرآن الكريم فجاء تبياناً لكل شئ، وجاء يهدي إلى أقوم السُبل ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (2) ومن أجله وبسبب هذا الدستور السماوي رَجَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يكون أكثر الأمم تابعاً يوم القيامة، قال صلى الله عليه وسلم: «ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاهُ الله إليّ.. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(3)..

---

(1) سورة الأنعام آية (90) .

(2) سورة الإسراء آية 9 .

(3) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي وأول مانزل .

هذا القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التى تحمل دلائل صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحملُ قوانين السعادة للبشر دنيا وأخرى، وهو الوثيقة السماوية الوحيدة التى لم تحرف ولم تزيف ولم يتغير فيها حرف واحد، لأن الذى تكفل بحفظها هو قيومُ السماوات والأرض﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١) هذا الكتاب العزيز تحدَّى الرسول صلى الله عليه وسلم به الفصحاء والشعراء والبلغاء والإنس والجن فعجزوا أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(٢)

هذا الكتاب الخالد الذى حمل كوثيقة سماوية وحيدة شهادة للكتب السماوية السابقة، وإنصافا لها وإنصافا للرسل السابقين ، فذكرهم وذكر أوصافهم وذكر كتبهم ودعواتهم، هذا الكتاب العزيز أعجز الإنس والجن، أنزل من قبل رب السماء والأرض على سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ووصل إلينا عن طريق التواتر بجميع سوره وآياته وبكل حروفه وقراءاته، هذا الكتاب العزيز حين ينصف العقل البشرى وحين يُمكّن لهذا الكتاب لابد أن يصل إلى كل القلوب، ولا يسع الذين ينصفون ويعقلون إلا أن يؤمنوا بالقرآن وبمن أنزل القرآن وبمن أُنزل عليه القرآن صلوات الله وسلامه عليه، لقد سمعه الجن فانطلق مردّداً. فى الآفاق ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (٣)سمعه أحد المستشرقين وهو غير مسلم، ولكنه حين استخدم المنحة الربانية وهى العقل، وحين أنصف فى تفكيره قال وشهد قائلا: «لو وجد القرآن فى فلاة – يعنى فى صحراء – ولم نعرف من جاء به لعلمنا أنه من عند الله . هذا الكتاب العزيز، الذى يجب على كل مسلم أن يصونه، وألا يحرم منه أهله ولا ولده. إن حق ولدك عليك أيها المسلم ألا تحرمه من كتاب الله حتى وإن لم يكن متخصصاً فى دراسة دينية، لا تحرمه من القرآن أن يحفظ منه ولو ما يتيسر من آياته ، فقد قال رسولكم صلى الله عليه وسلم «بلغوا عنى

---

(١) سورة الحجر آية ٩.

(٢) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٣) سورة الجن آية ٢،١ .

ولو آية» (١) وقال موضحاً مكانة أهل القرآن: «إن لله أهلين من الناس قالوا يا رسول الله من هم؟ قال : «هم أهل القرآن أهل الله وخاصته» (٢)، وشبه القلب الذى خلا من القرآن بالبيت الخرب إن حق ولدك عليك كما تحافظ على مأكله ومسكنه، وكما تدخر له من المال وتعدّ له من المتاع، مايصون حياته وعقيدته بأن تحفّظه ولو ما تيسر من كتاب الله، واعلم أنك حين تحفظ ابنك أو بنتك أو أخاك أورفيقك شيئا من كتاب الله إنما تسهمُ فى الدعوة الإسلامية، وتعمل على صيانة من تحفظه من دعاوى السوء وتيارات الفساد، وفى الوقت نفسه تعمل لنفسك أنت فى الآخرة عندما تحفظ ولدك أنت القرآن لأنك بعد ذلك سوف يلحقك أثر ذلك فى دنياك وثوابه بعد وفاتك فى أُخراك، إن تعليمك لابنك ولو آية من كتاب الله تصون بها حياته، وتصون بها عقيدته، وفى الوقت نفسه تدخر لك الجزاء الوافر عند الله رب العالمين، قال عليه الصلاة والسلام:- «القلب الذى ليس فيه شئ من القرآن كالبيت الخرب» (٣)

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء باب ماذكر عن بنى إسرائيل .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب فضل من تعلم القرآن وعلمه .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن باب ماجاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر .

(١١)

الإيمان بالرسل

الحمد لله رب العالمين، له الحمد فى الأولى وفى الآخرة ، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره، ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده مقاليد السموات والأرض وهو على كل شئ قدير، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله فختم به النبيين والمرسلين، وختم بالكتاب الذى أُنزل عليه وهو القرآن جميع الكتب السماوية، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد.. فيا جماعة المسلمين، من أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بالرسل عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه، وقد سبق الحديث عن الإيمان بالله ثم عن الإيمان بملائكته، ثم عن الإيمان بكتبه. والآن نتحدث عن الإيمان بالرسل عليهم صلوات الله وسلامه، وقد أعلن القرآن الكريم وجوب الإيمان بالرسل أجمعين، الذين قصّهم الله تعالى فى القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. والذين لم يقصصهم عليه﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾[1]

وخصوصية العقيدة الإسلامية، أنها لا تفرق بين أحد من رسله، وميزة هذه العقيدة الخاتمة، أننا نقر ونَعْترف ونؤمن بجميع أنبياء الله ورسله الذين أرسلهم الله للبشرية منذ أول نبى خلقه الله تعالى وهو آدم أبو البشر إلى أن بعث الله خاتم الأنبياء والمرسلين وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويعلنها القرآن الكريم صريحةً مدوّية، لا عصبية فيها ولا ركون

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

لقبلية فيها ولا تعصب لملة أو زمنٍ أو إنسان، لا نُفرق بين أحدٍ من رسله، فى أنهم أُرسلوا من قبل الله وأُمروا أن يبلغوا كلمة الله إلى البشرية جمعاء، وأنهم دَعَوا الناس إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحـــده لا شريك له، لكن أليس هناك أفضلية بينهم؟ نعم هناك أفضلية .. ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [1] والقرآن حين يذكر الأفضلية هنا يريد أن يوضح أن هناك خصوصيات لبعض الرسل فاختص الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام بأن كلّمهُ الله جهاراً ومشافهة ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [2] واختص الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام بأن كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله، واختص الله سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم بخصوصيات حيث بعثه للناس كافة وأعطاه جوامع الكلم وأحلّ له الغنائم ولم تحل لنبىّ من قبله. وأعطاه الله الشفاعة، وكما يقول «وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[3] لكن ما المطلوب منك أيها المؤمن فيما يتعلق بهؤلاء الرسل والإيمان بهم؟

هل أنت مطالب بالإيمان بمئات الرسل والنبيين الذين حملوا راية التوحيد إلى أهل الأرض منذ آدم عليه السلام إلى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأسمائهم؟ هل أنت مطالب بالإيمان بهم على وجه التفصيل؟ نقول إن الرسل نوعان: منهم نوع مطلوب منا أن نؤمن بهم على وجه التفصيل وهم الذين وَرَدَ ذكرهم فى القرآن الكريم، والنوع الثانى أن نؤمن بهم على وجه الإجمال وهم الذين لم يقصصهم الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم.

فجميع الرسل والنبيين الذين لم يقصصهم الله فى القرآن الكريم ولم يذكر أسماءهم ولا كتبهم ولا أممهم لسنا مطالبين إلا أن نؤمن بهم على وجه الإجمال لاعلى وجه التفصيل . ومعنى أن نؤمن بهم على وجه الإجمال أن نصدق بأن الله تعالى بعثهم لأممهم

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٣ .

(٢) سورة النساء آية ١٦٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا .

فدعوا إلى توحيد الله وإلى عبادته وحده لا شريك له، وأما النوع الثانى : فهم الذين يجب علينا أن نؤمن بهم على وجه التفصيل وهم خمسة وعشرون ورد ذكر ثمانية عشر منهم فى سورة الأنعام فى قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ (١) .

ويبقى سبعة وقد نظمهم بعض العلماء فى قوله

فى تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهموا

إدريس هو د شعيب صالح وكذا ... ذوا الكفل آدم بالمختار قد ختموا

صلى الله عليهم وسلم . هؤلاء خمسة وعشرون ذكر الله أسماءهم وأممهم وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم من نبأ أممهم ما قص وكان من بين هؤلاء : خمسة وصفوا بأنهم أولوا العزم من الرسل ، ومعنى أولى العزم من الرسل : أى الرسل ذووا الصبر والحزم مع أممهم نظمهم شيخنا العارف بالله فضيلة الشيخ محمود أبو هاشم رحمه الله فى قوله :

ولله رسل أكرموا بفضائل ... من الخير والإحسان والجد والعزم

همو خمسة موسى وعيسى محمد .. بنوح وإبراهيم تم أولو العزم

فسيدنا نوح، وسيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى وسيدنا عيسى ، وسيدنا محمد هم أولو العزم عليهم جميعا أفضل الصلاة وأتم السلام، وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم : أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل كما أمره أن يقتدى بهداهم، فقال تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (٢) . هؤلاء يجب أن نؤمن بهم ويجب أن نصدق بعثتهم إلى أممهم لأن الله تعالى أخذ عليهم العهد والميثاق ، أن يؤمن كل رسول وأن يصدق بمن يأتى بعده، وقد أخذ الله تعالى الميثاق عليهم أن يؤمنوا وأن يصدقوا ، ثم أخذه عليهم جميعا إذا ماجاءهم خاتمهم أن يؤمنوا به ، وأن يقروا برسالته وأن يصدقوه وأن ينصروه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٣ - ٨٦ .

(٢) سورة الأنعام آية ٩٠ .

(٣) سورة آل عمران آية ٨١ .

فأشهدهم رب العزة سبحانه أن يؤمنوا بسيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، وإذا شهدوا زمنه وعصره أن يصدقوا به وأن يتبعوه فأقروا وقالوا لربهم أقررنا فلم يأخذ بإقرارهم وحدهم ولا بشهادتهم فحسب .. بل إنه بجلاله وعظمته شهد مع النبيين والمرسلين وقال ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ وهنا يعطينا منزلة عظمى ويلزم كل البشرية فى مسيرتها إلى أن تقوم الساعة أنه يجب على كل من فى الأرض وكل أتباع الأديان الأخرى أن يؤمنوا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كفر أحد منهم بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه بهذا يكون قد كفر بالله وبرسوله لأنه خالف ماكان عليه الرسل جميعا من التصديق لخاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ومن أجل هذا يوضح لنا ديننا الحنيف مكانة هذا النبى ومنزلته وأنه إذا كان كل رسول فيما مضى يبعث إلى قومه خاصة فإن الله ختم به جميع النبيين والمرسلين ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[1].

وتحدث هو عن نفسه فقال «أنا العاقب فلا بنى بعدى» [2] . وبين مكانه من إخوته السابقين من جميع النبيين والمرسلين وأنه قد أكمل الله به النعمة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[3] وأنه بعثه ليتمم مكارم الأخلاق التى لم تكن تمت من قبل ، «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [4] ويبين مكانه من إخوانه السابقين من النبيين والمرسليين، وأنه نهاية المطاف وسيحمل كلمة السماء الأخيرة «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة .. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» [5] .

والله تعالى يعطى كل رسول خصوصية، ويعطى كل رسول معجزة، لقد كان كل

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب بالفضائل باب أسماؤه صلى الله عليه وسلم .

(٣) سورة المائدة آية ٣ .

(٤) أخرجه مالك فى كتاب حسن الخلق باب ماجاء فى حسن الخلق .

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب المناقب باب خاتم النبيين و أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل باب كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين .

رسول يبعث إلى قومه خاصة ، فماذا سيعطى الله من سيبعثه للناس عامة، ومن ستظل رسالته عامة خالدة فى الزمان وفى المكان إلى أن يقوم الناس لرب العالمين. لابد أن تكون معجزته عامة خالدة، فكانت معجزته القرآن الذى أعجز الفصحاء والبلغاء والشعراء وظل معجزة خالدة .... إلى أن تقوم الساعة، ولئن كان الله قد أعطى من النبيين والمرسلين من الخصوصيات ماشاء أن يعطيهم فقد أعطى الله النبى الخاتم الذى سيحمل الرسالة العالمية إلى كل من فى الأرض وكل من وجد على ظهر هذه البسيطة أعطاه خصوصيات كثيرة ومعجزات وافرة إلى جانب المعجزة الكبرى وهى القرآن الكريم ، وبهذا نادى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه غداة فراق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغداة أن لحق بالرفيق الأعلى راح سيدنا عمر رضى الله عنه ينادى فى الناس ليثبتوا على دينهم ، وليتمسكوا برسولهم ، ولأنهم كانوا فيما مضى إذا ماانتهى رسول انتهت رسالته ، وتستقبل البشرية رسولا جديدا برسالة جديدة وبشريعة جديدة ، وبكتاب جديد، فأراد سيدنا عمر بن الخطاب وهو الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل أن يوضح للناس غداة أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى ، أنه ليس كالرسل السابقين تنتهى شريعته بوفاته ، بل إن شريعته خالدة باقية دائمة مادامت السماوات والأرض : فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

«بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه، فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك كطاعته فقال عز وجل ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [1]، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب فقال تعالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [2] بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال عز وجل ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾[3] بأبى أنت وأمى يارسول

(١) سورة النساء آية ٨٠ .

(٢) سورة التوبة آية ٤٣ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٧ .

الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون ﴿ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [1] بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حيث سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان عيسى ابن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مشوية فقالت لك الذراع لا تأكلنى فإنى مسمومة ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [2]ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا فلقد وطىء ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا فقلت : اللهم أغفر لقومى فإنهم لايعلمون ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك مالم يتبع نوحا فى كثرة سنه وطول عمره. ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا قليل ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لو لم تجالس إلا كفؤا لك ماجالستنا ولو لم تنكح إلا كفؤا لك ما نكحت إلينا ولو لم تؤاكل إلا كفؤا لك ما واكلتنا، فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك [3] صلى الله عليك وسلم .

(١) سورة الأحزاب آية ٦٦ . (٢) سورة نوح آية ٢٦ .

(٣) حديث حنين الجذع وتبع الماء من بين أصابعه وحديث الإسراء جميعها رواه البخارى ومسلم .

وحديث كلام الشاة المسمومة رواه أبو داود من حديث جابر .

وحديث أنه أدمى وجهه وكسرت رباعيته متفق عليه

وحديث اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون رواه البيهقى فى دلائل النبوة .

وحديث لبس الصوف رواه الطيالسى من حديث سهل بن سعد .

وحديث ركوبه الحمار وإردافه خلفه متفق عليه من حديث أسامة بن زيد

وحديث وضع طعامه بالأرض . رواه أحمد فى الزهد من حديث الحسن مرسلا

وحديث لعقه أصابعه . رواه مسلم .

(١٢)

الإيمان باليوم الآخر

الحمد لله رب العالمين ، حمدا يليق بجلاله وكماله ، سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شيء قدير ، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ، ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده مقاليد السموات والأرض ، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله ، بعثه الله سبحانه وتعالى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح للأمة وهدى الناس إلى صراط ربهم المستقيم. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .... أما بعد

فيا جماعة المؤمنين، موعدنا اليوم مع الركن الخامس من أركان العقيدة الإسلامية ، وهو الإيمان باليوم الآخر ، وسمى باليوم الآخر لأنه آخر أيام الدنيا وآخر الأيام المحدودة ، وعن هذا اليوم حدثنا القرآن الكريم وعلمنا من أنبائه ، وقامت الأدلة عليه من كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم .

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾[١] فالإيمان باليوم الآخر ركن من أركان هذه العقيدة كما نص على ذلك القرآن الكريم ، وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة أيضا من قوله صلى الله عليه وسلم : «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» [٢] والعقل ينفى أن تكون بعثة الرسل عبثا، وأن يكون تكليف العباد دون أن يكون وراء هذا التكليف يوم

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب أول من قال فى القدر .

يثاب فيه الطائع ويعاقب فيه المخالف والعاصى ، ومن أجل ذلك كانت الدعوة الإسلامية وهى تنادى الناس إلى هذه العقيدة الصحيحة التى يؤمنون فيها بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا. وكانت فيما تكلف فيه العباد من عبادات ومعاملات وأخلاق، وفيما تدعوهم إليه من تشريعات وأحكام، كانت تبين لهم أن وراءهم يوما يقوم الناس فيه لرب العالمين ينفخ فيه فى الصور ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [1] .

فى النفخة الأولى يصعق كل من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله تعالى بقاءه، ثم بعد ذلك ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، يقومون من القبور ، ويقفون للبعث والنشور ، ويحصل مافى الصدور، فى هذا اليوم الذى يبين فيه ديننا الحنيف أن كل إنسان سيجد فى هذا اليوم ماقدم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر. وإذا علمنا أن وراءنا يوما كهذا عمل كل منا حسابه لهذا اليوم، وأعد كل منا عدته لهذا اليوم، ومن أجل ذلك يبين لنا القرآن الكريم أن لنا فى رسولنا أسوة حسنة وقدوة عظيمة فى طاعة الله ومراقبة الله فى السر والعلانية ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [2].

الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ، لمن كان يرجو طاعة الله ورحمة الله ونجاة الله ويرجو العفو فى هذا اليوم ومافيه من هول وفزع. ومافيه من رحمة تتجلى من الله على عباده ، ولكن الكفار والمعاندين وهم موجودون فى كل عصر ومصر، وفى كل زمان ومكان كانوا ينكرون البعث ومازال بعض من هؤلاء المنكرين يوجدون الآن ممن اتبع هواه وأضله الله ، وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلا لهؤلاء حين وقف واحد منهم وكبير من كبراء المعاندين حين سمع بالدعوة الإسلامية وبما ينادى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما يخبر الناس به ، من أن بعد حياتهم الدنيا حياة أخرى وأنهم

---

(١) سورة الزمر آية ٦٨ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٢١ .

سيحشرون ويبعثون، وأن اليوم الآخر آت لا محالة فيه ، ولا مرية فيه فراح أبى بن خلف يقول إنى لأخاصم محمدا وأقف لأناقشه ولألزمه الحجة﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[1] . يقول : سألزمه الحجة فاجتمع ملأ قريش ووقف هذا المعاند المكابر المخاصم وحمل حجته ودليله ، ماحجته ودليله ؟ عظام أخذها من بعض القبور ، بعض من العظام البالية التى مر عليها زمن طويل، أخذ هذه العظام وهى كلما ازدادت فى القدم ، كلما بليت أكثر وكانت لاتتحمل .. فإذا أمسكتها بين إصبعيك تفتت تلك العظام، فاجتمعوا له ووقف فى ملأ من قريش يناقش سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم فى قضية البعث والنشور، وأمسك ببعض هذه العظام البالية ، وأخذ يفتتها بيديه ... ويقول له: يامحمد، أترى أن الله يبعث هذه العظام لتكون إنسانا حيا بعد أن بليت وتفتت هكذا ...؟ فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله .. نعم إن الله سيبعثها ويبعثك وسيدخلك جهنم[2] ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[3] ، لقد تنزلت الإجابة وحيا من السماء إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجيب هذا المعاند الذى ضرب المثل بالعظام النخرة البالية وقال من يحيى العظام وهى رميم، نزل قول الله تعالى : قل أى قل له يامحمد ﴿ يحييها الذى أنشأها أول مرة﴾ .. فإن الإنشاء من العدم أعظم من إعادة بعد وجود .

فالذى أنشأها من عدم هو الذى سيحييها «وهو بكل خلق عليم » ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[4]. إنه القادر على كل شيء سبحانه وتعالى، يبعث الخلق ويحشرهم فى يوم يتمنى الناس فيه الانصراف ولو إلى النار فى هذا اليوم ... يوم الهول والفزع الأكبر. يتلقى الرسول صلى الله عليه وسلم أمة الإجابة الذين اتبعوه وآمنوا به يتلقاهم، فى أى مكان يتلقاهم؟ على حوضه المورود الذى من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا، يتلقى الرسول صلى الله عليه وسلم أمته فى هذا اليوم على الحوض المورود

---

(١) سورة الكهف آية ٥ .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٩٤/٧

(٣) سورة يس آية ٧٨، ٧٩ .

(٤) سورة يس آية ٨٠ .

يتلقــاهم فى اليوم الآخر، يتلقاهم فيميزهم عن غيرهم ، ويعرفهم تمام المعرفة، ولقد سأل بعض الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له : كيف تميزنا وتعرفنا من الأمم السالفة ؟ ومن لدن عهد آدم إلى أن تقوم الساعة ملايين الأمم يموج بعضها فى بعض فيبين النبى صلى الله عليه وسلم أن هناك ميزة لهذا الأمة ستتميز بها يوم القيامة من بين تلك الملايين التى يموج بعضها فى بعض ، ما هى هذه الميزة؟

عندما تتوضأون فتسبغون الوضوء فتغسلون وجوهكم من منابت شعر الرأس إلى أسفل اللحيين وما بين شحمتى الأذنين ، هذا المكان من أسبغ وضوءه فإنه لكى يؤدى الواجب لابد أن يغسل من أعلى والقاعدة الفقهية تقول : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فغسل هذا المكان من منبت الشعر واجب ، هذا المكان يشع منه بفضل إسباغ الوضوء نور يوم القيامة يعرف الرسول أمته به وهو المسـمّى بالغرة ثم إذا غسـلت الوجه واليدين ومسحت الرأس وغسلت الرجلين إلى الكعبين ، والمراد بالكعبين العظمان الناتئان فى أسفل الساق ، ليس العقب الذى تدوس عليه ، هذان العقبان لا يمكن أن تسبغهما إلا إذا غسلت فوقهما جزءا ، وهذا معنى إسباغ الوضوء. مالايتم الواجب إلا به فهو واجب ، فمن أسبغ الوضوء على هذا النحو فأتمه كاملا من منبت الشعر وكاملا عند الكعبين من أسفل الساق شع نور من أعلى ونور من أسفل الساق تتميز به الأمة المحمدية يوم القيامة ، ولذلك ففى الحديث الذى رواه الإمام البخارى ومسلم فى صحيحيهما يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم «ترد على أمتى الحـوض وأنا أذود الناس عنه كمـا يذود الرجـل إبل الرجـل عن إبله»[1] يشبهها لهم فى مثل واقع فى بيئتهم وهو صاحب الجمال يميز نوقه وجماله وإبله من إبل غيره ، رغم أنها جميعا تأخذ شـكلا واحدا وتأخذ لونا واحدا ، وتأخـذ حجما واحداً ، لكنه لرؤيته لها صباح مساء ولممارسته معها ، يعرفها ويميزها من بين الآلاف والملايين، كما يكون لواحد منكم مثلا طفل أو تلميذ فى مدرسة ويريد أن يأخذه أو أن يقابله فيجد آلاف التلاميذ والأطفال يشبهونه فى السن وفى الحجم وربما فى الطول وربما فى اللون وفى الملبس، ومع هذا : تعرف ابنك من بين الآلاف من الأبناء كذلك سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم يميز أمته يوم القيامة من بين ملايين الأمم عن غيرها فيقول : « ترد

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب الحوض وأخرجه مسلم فى كتاب الفضائل باب حوض النبى صلى الله عليه وسلم .

على أمتى الحوض يوم القيامة وأنا أذود الناس عنه» يعنى وأنا أدفع الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل. قالوا يانبى الله أتعرفنا ؟ كيف تعرفنا ونحن ملايين يموج بعضنا فى بعض ... قال .. يانبى الله أتعرفنا ؟ قال : نعم لكم سيما ... يعنى لكم علامة ليست لأحد غيركم » وماهى هذه العلامة ؟ قلنا إن إسباغ الوضوء من عند منابت الشعر يسميه العلماء : الغرة وأصحابه هم الغر، وهى فى الأصل بياض فى أعلى جبهة الفرس ... استعيرت للبياض والنور الذى يشع من جباههم يوم القيامة بفضل إسباغ الوضوء «والتحجيل» هو البياض فى أسفل ساق الفرس ، وهو أيضا يدل على النور والبياض الذى يشع من أمة محمد علامة تميزها عن غيرها من الأمم يوم القيامة فحين سألوه وقالوا يانبى الله : أتعرفنا ؟ قال نعم ... لكم سيما لكم علامة ليست لأحد غيركم تردون على غرا محجلين من آثار الوضوء» ثم يقول بعد ذلك «وليصدن عنى طائفة منكم فلا يصلون فأقول يارب هؤلاء من أصحابى فيجيبنى ملك فيقول: وهل تدرى ما أحدثوا بعدك [1] »

أى أن هؤلاء الذين غيروا وبدلوا ، وأنكروا الإيمان بالله وبرسوله ، وأنكروا الإيمان باليوم الآخر﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾[2]هؤلاء الطبيعيون والوجوديون والدهريون ، هؤلاء الذين أنكروا اليوم الآخر و مافيه من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب ، وجنة ونار .. يحال بينهم يوم القيامة وبين حوضه الشريف صلى الله عليه وسلم ، إنه اليوم الآخر إنه اليوم الذى فيه من أهوال الآخرة مافيه. ويجب على كل مؤمن أن يؤمن بهذا اليوم حتى تكون عقيدته صحيحة .. قال تعالى ... فى وصف حال الناس فى هذا اليوم﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [3] .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل فى الوضوء .

(٢) سورة الجاثية آية ٢٤ .

(٣) سورة الحج آية ٢ .

(١٣)

الإيمان بالقضاء والقدر

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، حمدا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى، له الحمد فى الأولى والآخرة ، وهو على كل شيء قدير، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له بيده مقاليد السموات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فبلغ رسالة ربه أعظم مايكون التبليغ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه. اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد

فيا جماعة المسلمين.. تناولنا من قبل الحديث عن أركان الإيمان كما بينها سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل حين سأله عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وموعدنا اليوم مع الركن السادس والأخير من أركان العقيدة الإسلامية، وهو الإيمان بالقدر ومعنـاه أن يؤمـن العبد بأن كل شيء قدره رب العزة سبحانه وتعالى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى. وأن كل مايحدث فى البرية من خير أو شر ، ومن حركة أو سكون، ومن حياة أو موت فإنما هو بتدبير الخالق المدبر سبحانه وتعالى لاينازعه فى ملكه أحد، ولايشاركه فى تدبيره مخلوق فهو وحده الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، والظاهر بلا استظهار والباطن بلا استتار قدرته قادرة قوية ، وإرادته نافذة على جميع البرية، إن أسعد أحدا فبفضله وإن أشقاه فبعدله، يحكم على الجميع العاصى منهم والمطيع ، ولا معقب لحكمه إذا حكم ، ولا محاسب له إذا أعطى أو حرم، فهو صاحب الخلق والجبروت والملك والملكوت جميع الكائنات طوع إرادته ، وكلهم

رهن إشارته، كما قال فى كتابه المكنون ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1].

إن قضاء الله وقدره يجب على كل منا أن يؤمن به لأنه ركن من أركان عقيدتنا الإسلامية التى جاء بها الكتاب العزيز وأخبر بها الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾ [2] . هذا البيـان الربانى يريح النفوس، ويطمئن القلوب، هذا الإيمان بقدر الله يجعل الناس يسلمون أمورهم لله ، لأنه وحده هو المدبر والمتصرف فى كونه متى شـاء ، ومن أجـل ذلك كان الإيمـان بالقدر دافعا للمؤمن ألا يخـاف على رزقه ، وألا يخاف على أجله، دافعا للجندى فى المعركة أن يجاهد وأن يعلم أن الأجل واحد وأن الشجاعة لا تنقص من العمر ، وأن الجبن أو الخوف لا يطيل فى الأجل، كما أن الإيمان أيضـا بالقدر يكون دافعـا للإنسـان أن يرضى بما قسـمه الله له فلا يلهث وراء أشـياء قد لا يصل إليها وقد يصيب من ورائها التعب والنصب لا أكثر، وكما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما وهو غلام وكان يركب خلفه ردفه ، قال «ياغلام إنى أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجـده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لن ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك [3]» وفى رواية : «تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة واعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك وأن ماأخطأك لم يكن ليصيبك وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا [4] » إن هذا البيان النبوى العظيم الذى يشرح لنا قضاء الله وقدره يجعل الإنسان المؤمن فى قوة إيمانه لا يخشى إلا الله، ويجعل الإنسان المؤمن فى قوة إيمانه يعيش

---

(١) سورة يس آية ٨٢ . .

(٢) سورة الحديد آية ٢٢, ٢٣ .

(٣) أخرجه أحمد ٣٠٧/١، ٣٠٨ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد ٣٠٧/١ ، ٣٠٨ .

فى أمن واستقرار، وهذا القضاء والقدر الذى قدره الله تعالى علينا لا ينبغى لأحد أن يتعلل به وأن يقول مادام الأمر كذلك فنحن مسيرون ولسنا مخيرين ... لا ... إن الله تعالى جعل لعباده من أعمالهم قسمين : قسما يكونون فيه مسيرين لامخيرين مثل أن يولد الإنسان على لون معين وعلى قامة معينة وأن يهبه الله رزقا معينا وذكاء بدرجة معينة ، وعمرا بقدر معين، وأن يصيبه فى حياته مايصيبه، كل هذه أمور هو مسير فيها ويوجدها خالقها المدبر سبحانه وتعالى ، ومن عدله أنه لن يحاسبك على هذه الأمور لأنها ليست من صنعك وليس فيها اختيار ، أما القسم الثانى فمنحك فيه الاختيار التام وأعطاك عقلا تميز به بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل الكتب لتهدى البشرية فى مسيرتها إلى أن تنتهى الحياة ؛ ومن هنا كان الحساب ، وكان الثواب والعقاب على تلك الأفعال التى منحنا الله تعالى فيها الاختيار التام. لكن هناك بعض النصوص التى قد يفهم منها أنه هو الذى يسوق الإنسان إلى الخير أو إلى الشر نقو ل : إن قدر الله وقضاءه فى ذلك هو العلم الانكشافى الذى ينكشف به لله تعالى ماسيكون من هذا العبد ولكنه ليس جبرا من الله للعبد أن يفعل المعصية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ (١) . وليس جبرا من الله تعالى للعبد أن يفعل المخالفة ، هو فقط مجرد انكشاف ينكشف للقدرة الإلهية بمحض مامنحته من اختيار لعباد الله ماذا سيكون منهم وماذا سيختارون ؟ فيعلم الله تعالى كل شيء فى الأزل لأنه مكتوب عنده فى اللوح المحفوظ ماستختاره أنت، وليس فى هذا جبر ولا قهر للإرادة البشرية ولا للاختيار الذى منحه الله لك فلا تتعلل بأنك مجبور ، لأنه أعطاك الاختيار الكامل ، والعقل وهو المنحة الربانية التى تميز به بين الخير والشر ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (٢) أى بين الله تعالى له طريق الحق والخير، ومن قديم جعل بعض المشركين من قضية الإيمان بالقضاء والقدر مشجبا يعلقون عليه أخطاءهم «شماعة» يعلقون عليها كفرهم وفسوقهم ،﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ (٣) يعلقون

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٨ .

(٢) سورة البلد آية ١٠ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٤٨ .

على الإيمان بالقضاء والقدر أخطاءهم وشركهم وعصيانهم لكن الإرادة الإلهية حين منحت الإنسان الاختيار لم تجبره ولم تقهره على فعل معين، إنما هو فى لوح محفوظ انكشف لله تعالى ماسيختاره عبده لأنه وحده علام الغيوب ، ومن هنا نرى أن فى الإيمان بالقضاء والقدر اطمئنانا لعقيدة الإنسان المؤمن ودعوة له أن يختار فى حياته ماينفعه فى أخراه لأنه سوف يتلقى كتابه ويقرؤه ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1] والله سبحانه وتعالى حين كتب علينا الأمور القهرية التى لا اختيار لنا فيها ولم يحاسبنا عليها من صحة أو مرض ، من حياة أو موت ، من فقر أو غنى ، ماكان ذلك منه إلا بعدل إلهى، وحكمة ربانية كبرى علم بها وهو العليم الخبير أن هذا هو الذى يصلح الإنسان ، وأن هذا هو الذى فيه سعادة هؤلاء الناس دنيا وأخرى ، لكننا لا نعلم خفايا الأمور ولا بواطنها فيظن أحدنا أن فى المال سعادة ويظن الآخر فى الصحة سعادة ويظن كل منافى كل أمر من الأمور ظاهره الخير أنه هو السعادة بعينها ، فإذا ماتخلفت غضب وتبرم ، ولو علم حقا ما فى علم الله وماأراده له من الخير والسعادة ، لعلم أن هذا الذى حسبه شرا هو الخير بعينه ، ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] .

نعم إنه سبحانه فى كل ماقضاه وقدره على عباده إنما يريد لهم الخير وما يكون به سعادتهم دنيا وأخرى، وهو سبحانه يختم لكل إنسان بما خطه بيمينه وبما اختاره فى حياته، أما نهاية المطاف ، وخاتمة الحياة، فلا علم لأحد بها حتى لمن يسير على الجادة وعلى المنهاج السليم ، لا علم له بنهايته وخاتمته ذلك فى قدر الله ، ومن هنا كان على كل منا أن يجتهد فى الطاعة بأقصى مايمكنه، وأن يبذل أقصى مافى وسعه ، وإن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ذلك فى حديثه الصحيح حين قال :

«إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا يؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله

(١) سورة الإسراء آية ١٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١٦ .

ورزقه وأجله ، وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعمل حتى مايكون بينه وبين الجنة إلا ذراع ، فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى مايكون بينه وبين أهل النار إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة» [١] .

هنا نقف على أمر هام أيضا .. قدره الله تعالى، لكنه حين قدره كان يعلمه بعلمه الذى ينكشف له نهاية كل إنسان، ولذلك ورد أن بعض المسلمين كان فى الحرب ولا يترك شاذة ولا فاذة أى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا اجتهد فيها ، ولما أخبر رسول صلى الله عليه وسلم بأمره .. قال لمن قال له ذلك: أما إنه من أهل النار ، فعجب الرجل وتتبع صاحبه فى جهاده الذى لا يترك فيه شاذة ولا فاذة إلى أن أصابه جرح فاستعجل الموت .. فانتحر وقضى على حياته حين وضع قاعدة سيفه فى الأرض وجعل حده على جسده وأنهى حياته.

ويوضح هذا المعنى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى عن سهل بن سعد قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى هو والمشركون فاقتتلوا فلما مال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم وفى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل لايدع لهم شاذة ولافاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه فقيل : مأأجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنه من أهل النار. فقال رجل من القوم : أنا صاحبه فقال : فخرج معه كلما وقف وقف معه وإذا أسرع أسرع معه . قال : فجرح الرجل جرحا شديدا فاستعجل الموت فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه. فخرج الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أشهد أنك رسول الله. قال : وما ذاك ؟ قال : الرجل الذى ذكرت آنفا أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك فقلت : أنا لكم به، فخرجت فى طلبه ثم جرح جرحا شديدا فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه فى الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول الله صلى الله عيه وسلم عند ذلك: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

للناس وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة [١]. وفي رواية أخرى قال بعد ذلك: إنما الأعمال بالخواتيم [٢].

أيها الإخوة المؤمنون، إن العقيدة الإسلامية بأركانها هذه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خير وشره ، هذا الإيمان له أكبر الأثر في حياة الفرد والمجتمع، حين تؤمن بالله واليوم الآخر لابد أن يكون لإيمانك صدى في حياتك وأثر وفاعلية فيما تأتي وفيما تذر. ومن هنا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن الله واليوم الآخر ، فليقل خيرا أو ليصمت [٣] . ويقسم على من يؤذى جيرانه ، فيقول : والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، والله لا يؤمن ، ثلاث مرات قيل : من يارسول الله؟ قال : «الذى لايأمن جاره بوائقه [٤]» أى شروره. ولو تتبعنا النصوص النبوية لوجدناها تبيّن أثر هذا الإيمان الذى تحدثنا عن أركانه فيتضح لنا أن للإيمان أكبر الأثر في دنيا الناس وآخرتهم وأكبر الأثر على الأفراد والجماعات .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى – غزوة خيبر .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب القدر باب العمل بالخواتيم .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب إثم من لايأمن جاره بوائقه .

(١٤)

من عناصر كمال الإيمان

الحمد الله رب العالمين ، حمدا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى، له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شيء قدير ، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب ونشهد أن لاإله إلاالله وحده لاشريك له بيده مقاليد السموات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شئ قدير. ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وهدى إلى صراط ربه المستقيم ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ..

أما بعد ..

فيا جماعة المسلمين، تناولنا فيما سبق ، الحديث عن أركان الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وهذا الإيمان يعنى التصديق الباطنى الذى يصدق القلب فيه بهذه الأمور، وهذا الجانب من التصديق القلبى وحده لايكفى بل لابد مع التصديق القلبى من عمل للجوارح وطاعة لما أمر الله سبحانه وتعالى به حتى يكون الإيمان كاملا ، ولذلك تتابعت آيات كثيرة فى كتاب الله تعالى وفى سنة رسولنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، مبينة كمال الإيمان ، وأن الجانب التصديقى وحده لايكون كافيا ولا كاملا إن لم يكن مع التصديق القلبى إقرار باللسان وعمل بالأركان ومن بين الآيات الكريمة التى توضح جوانب كمال الإيمان قول الحق سبحانه وتعالى

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١). إن كنتم مؤمنين فاستجيبوا لهـذه الأمـور ،التى بها يكمل إيمانكم، وإذا نظرنا إلى سبب نزول هذه الآية الكريمة وما بعدها لوجدنا أنها نزلت فى غزوة بدر الكبرى وفى قضية الغنائم ولمن تكون هذه الأنفال. فقد كان هناك شباب جاهدوا وقاتلوا عدو الله وكان هناك شيوخ يمثلون الردء والحصن للجيش الإسلامى، وحين اختلفوا فى شـأن هذه الغنائم كانت الإجابة من قبل الحق حين سألوا رسولهم صلى الله عليه وسلم وكل يريد أن يأخذ فمنهم من يقول نحن الذين قاتلنا ومنهم الذين يقولون كنا حصنا وردءا لكم ، واختلف المهاجرون والأنصار فنزلت الإجابة من قبل الحق سبحانه وتعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم موضحة أن أمر هذه الأنفال لله وللرسول، ونزلت الآيات الكريمة. ولابد أن نوضح فى هذا المقام أن هؤلاء الذين حرصوا على الأنفال فى هذا اليوم العظيم ، ما كانوا يحرصون عليهـا كعرض من أعراض الدنيا ، ولا كان حرصهم عليها حرصا علي المال والمادة، بل كان حرصهم عليها لأنها شهادة من الله ورسوله على من أبلى فى الميدان بلاء حسنا، فكانت شهادة يعتزون بها، شهادة من الله ورسوله على من أبلى البلاء الحسن أن يأخذ من هذه الأنفال فكان حرصهم على أخذها لهذه الشهادة، وليكونوا ضمن الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه، وماكان حرصهم عليها من أجل مال أو عرض زائل، إذ أن منهم المهاجرين والأنصار، ونحن نعلم أن المهاجرين قد تركوا أموالهم وديارهم وأهليهم وذويهم وهاجروا ابتغاء مرضاة الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو كانوا حريصين على المادة ماهاجروا، ولا تركوا الأموال، والعقار، والدار والأهل، والأبناء الذين خالفوهم فى دينهم وعقيدتهم، وكان من بين هؤلاء أيضاً: الأنصار الذين استقبلوا إخوانهم المهاجرين بصدر رحب وقاسموهم أموالهم وعقارهم، وقوتهم وأعز شئ عليهم، وأثنى عليهم القرآن الكريم وخلد ذكرهم﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ

---

(١) سورة الأنفال آية ١ .

مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] .

فهؤلاء وهؤلاء ضحوا بأموالهم وبذلوها من قبل عن طيب نفس فلم يكونوا ليختلفوا اليوم فى تلك الأنفال حرصاً على المادة التى تركوها وراء ظهورهم فى مكة، ولا حرصاً على المادة وهم الذين آثروا إخوانهم بها اليوم، وإنما لأنها كانت شهادة حق على الذين أبلوا البلاء الحسن فمن هنا كان حرصهم عليها وحرصهم على شهادة الحق ببلائهم البلاء الحسن، غطت على مشاعر لهم جميلة عُرفوابها هى : مشاعر السماحة والمحبة التى عُرفوا بها وترسّخت فى نفوسهم من قديم، ومن أجل ذلك كان التوجيه الربانى فى تلك الآيات، ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ وتأتى الأوامر الإلهية تلك الأوامر الثلاثة ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ ولئن كان سبب الآيات خاصا بهم فإن العبرة بعموم اللفظ، وإن القرآن الكريم نزل تبيانا لكل شئ، هدايته خالدة إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، لقد جاءت هذه الآيات الكريمة لترسى ثلاثة مبادئ بها تظهر علامات الإيمان الكامل لدى أصحابه، أما العلامة الأولى فهى التى جاء بها الأمر الربانى لهم بقوله «فاتقوا الله» ، أمر بتقوى الله ابتدأ به لتقود التقوى جماعة المسلمين حين يقومون بإصلاح ذات بينهم ولتقود التقوى المجتمع الإسلامى حين يوثق صلته بالله طاعة له وبرسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة له، «فاتقوا الله» اتقوا الله فيما بينكم، وفيما تقدمون عليه اجعلوا وقاية بينكم وبين غضب الله، وقاية بينكم وبين عذاب الله. وتقوى الله تعالى كما بينها الإمام على كرم الله وجهه: هى الخوف من الجليل، والرضا بالقليل، والعمل بما فى التنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل، «فاتقوا الله» أمر إلهى للمؤمنين على مَرّ أدوار الحياة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، استجابة له فيما أمر وفيما نهى، إنها وصية الله تعالى للأولين والآخرين أن يتقوا الله، ثم يأتى الأمر الثانى «وأصلحوا ذات بينكم» وهى الأمور التى

---

(١) سورة الحشر (٩) .

تجتمعون عليها وأسباب أُلْفَتِكُم وأسباب محبتكم واجتماعكم ، أصلحوا ذات بينكم ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا بإصلاح ذات البين على نحو عظيم يوضح لنا فيه أنها أفضل عبادة لمن شاء أن يتقرب إلى الله رب العالمين، فيقول عليه الصلاة والسلام : «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا .. بلى يارسول الله قال: إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هى الحالقة» [1].

انظروا إلى أى مدى حين نقوم بإصلاح ما بيننا وبين غيرنا أو يقومُ أحدُنا بإصلاح بين طرفين متخاصمين أو طائفتين متشاحنتين أو جماعتين مختلفتين، إن أصلحت مابينك وبين أخيك المسلم، إذا أصلحت بين طرفين آخرين لست طرفاً بينهما، تكون قد أدّيت عبادة أخبر عنها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم بأنها أفضل من الصيام وأفضل من الصلاة وأفضل من الصدقة هى إصلاح ذات البين، وماذلك إلا لأن فساد ذات البين أى أن إفساد ما بين القلوب وأن إشعال نار البغضاء بين نفوس المؤمنين تُورِدُهم – والعياذُ بالله – موارد الهلاك لأن الشيطان رضى بالتحريش بين العباد، وفى الحديث الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه يقول سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن فى التحريش بينهم» [2] رضى بالتحريش رضى بأن يشُعل الفتنة والكراهية والحروب والبغضاء بين قلوب المؤمنين، فتراهم والعياذ بالله يختلف بعضهم مع بعض ويتدابر بعضهم مع بعض ويحمل بعضهم الضغن والبغضاء والحسد والكراهية، منهم من ينّفس على أخيه ومنهم من يحقد على أخيه، ومنهم من يحمل البغضاء والكراهية على أخيه، والشيطان يئس أن يُعبد أو أن يسجد أحد لغير الله أوأن يعبد أحدٌ صنما من الأصنام ولكنه رضى بأن يحرش بين القلوب، وهذا ما يقع فيه المسلمون اليوم أفراداً وجماعاتٍ وأمماً وشعوباً وأُسَراً وهذا ما يحذرنا منه القرآن الكريم فى أولى مراحل الهدى الربانى فيقول «فاتقوا الله وأصلحو ذات بينكم» لمن هذه الكلمات ؟

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة ، وأخرجه مالك فى كتاب حسن الخلق .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب البر والصلة باب ماجاء فى التباغض .

إنه قالها لقوم كانوا خيرا منا ألف مرة «وأصلحوا ذات بينكم» قالها لمن ؟ للمهاجرين والأنصار الذين نزلت عدالتهم من فوق سبع سماوات ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾[1] هؤلاء الذين حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من أن ينال منهم أحد فقال :

«لاتسبوا أصحابى، لاتسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولانصيفه» (٢) .

يقول لهم «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم» وماكان ذاتُ بينهم فى ذلك الحين أمرا خطرا ولا كانوا يحملون حقداً على بعضهم ولا بغضاء ولا عداوة ولا حرباً ضروسا، كما نلاحظ اليوم بين المؤمنين وإنماكان سِبَاقاً على أمرٍ رأوا فيه أنه شهادةٌ من رب العزة لهم بأنهم أبلوا البلاء الحسن، «أصلحوا ذات بينكم» إنه أمر إلهى إذا عرفنا أنه لا يكمُل إيماننا إلا به، نفضنا من قلوبنا كل بغضاء وتدابر وتحاسد، وصفينا النفوس وطَهّرناها، ماذا على الناس لو عاشوا أحبةَ وُدَعاء ؟

ماذا على الناس لو أصلحوا ذات بنيهم؟

ماذا على الناس لو صفت قلوبهم لله ولرسوله وللمؤمنين؟

فأحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه، إن القرآن يقول «إن كنتم مؤمنين» ، أى أن إيمانكم لا يكمُل إلا بإصلاح ذات بينكم، رضيتم أم أبيتم، بَرِرلكم الشيطان ما تأتوته من أحقاد وأضغان وكراهية وبغضاء، أم لم يبررلكم ذلك ؟، إن الصفوة من أهل الإيمان هم الذين يقبلون أعذار إخوانهم، ويصفحون عنهم ويتسامحون معهم، أولئك هم الذين يصلحون ذات بينهم بتطبيق عملى ونفسى يصفحون ويتسامحون مع إخوانهم، إن مجالس البغضاء ومجالس إفساد ذات البين هى مراتع للشيطان أما مجالس الصفح والتسامح والعفو عن الناس

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٠ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة .

والإصلاح لذات البين فهى موطن ملائكة الله سبحانه وتعالى، والذين يصلحون ذات بينهم فى الأرض يقوم رب العزة سبحانه وتعالى عنهم بإصلاح ما لا يقدرون على إصلاحه يوم تزلُ الأقدام، فى يوم الهول والفزع الأكبر، يتولى الله عنهم إصلاح ذات البين التى لم يستطيعوا إصلاحها ويتولى عنهم التبعات التى لم يقدروا عليها، وفيما رواه أبو يعلى فى مسنده بسنده عن سيدنا أنس رض الله عنهم قال: بيّنَا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذا رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، وقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟

فقال : رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة تبارك وتعالى فقال أحدهما : يارب خذلى مظلمتى من أخى، قال الله تعالى أعط أخاك مظلمته ، قال: يارب لم يبق من حسناتى شئ قال: رب فليحمل عنى من أوزارى قال: ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال «إن ذلك اليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك وانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال : يا رب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلو لأى نبى هذا ؟ لأى صديق هذا ؟ لأى شهيد هذا ؟ قال: هذا لمن أعطى ثمنه. قال رب ومن يملك ثمنه قال أنت تملكه قال : ماذا يارب؟ قال تعفو عن أخيك قال : يارب فإنى قد عفوت عنه، قال الله تعالى «خذ بيد أخيك فادخلا الجنة» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة» (١)

أى أن مَنْ يقومون بإصلاح ذات البين فى الدنيا ويقومون بالتسامح فى الأرض ولايحملون إلا الحب لإخوانهم وإلاَّ العفو والتسامح والمودة يكسبون ذلك فى الآخرة فى يوم يحتاجُ العبدُ لأن يُحمل من أوزاره وأن يصلح ما بينه وبين غرمائه يوم القيامة ، فماذا علينا لوتسامحنا «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله» وطاعة الله ورسوله لا تكون إلا بهذا العمل الذى تؤدى فيه ما أمر الله وما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم... وأن

---

(١) رواه أبو يعلى .

تنتهى عما نهى عنه الله وعما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [1] ومعنى قوله تعالى : « ... إن كنتم مؤمنين » إن كنتم مؤمنين فلتظهر علامة الإيمان فيكم لأن الإيمان ليس قولاً فحسب ولأن الإيمان ليس تصديقاً فقط، إن كمال الإيمان لا يكون إلا بالعمل، وإن العمل لا يصح إلا بطاعة الله ورسوله.

إن كنتم صادقين فى إيمانكم، إن كنتم كاملين فى إيمانكم، فالذين لا يقومون بإصلاح ذات البين، والذين لا يؤدون تقوى الله على ما ينبغى والذين لا يحققون طاعة الله ورسوله ، لابد أن يوقنوا أن إيمانهم ناقص، لأن كمال الإيمان لا يتم إلاّ بهذه العناصر الثلاثة، فتقوى الله، توثق الصلة بينك وبين قيوم السموات والأرض، وإصلاح ذات البين توثق الصلة بينك وبين عباد الله، وطاعة الله ورسوله، فيهما استجابة للتكاليف السماوية التى كلف الله تعالى عباده بها.

---

(١) سورة النساء آية ٨٠ .

(١٥)

المؤمنون حقا

الحمد لله رب العالمين حمدَ الشاكرين الصابرين، نحمدهُ سبحانه وتعالى على ماأولانا من النعم ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده مقاليد السموات والأرض وهو على كل شئ قدير، ونشهد أن سيدنا محمداً عبدهُ ورسولهُ ، بلغ رسالة ربه ودَعَا الناس إلى الحــق والرُشد والســداد ، وعمّق فى قلـوبهم عقيـدة التوحيد التى آمنـوا فيهـا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا، وطبقوا هذه العقيدة عملاً وسلوكا وأخلاقاً في حياتهم فسعدوا فى الدنيا وفى الآخرة.. اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعل آله وأصـحابه الذين ساروا على منهاجه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله يا من بعثك الله رحمة للعالمين ، ورضى الله عن أصحابك المؤمنين حقاً ، الذين طبقوا الإيمان سلوكاً وعملاً وأخلاقاً، ففازوا بسعادة الدنيا وعز الآخرة، وذلك هو الفوز العظيم.

أيها الإخوة المؤمنون، لقد تناولنا فيما سبق الحديث عن أركان العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

ثم بينا بعد ذلك أن الكاملين في هذا الإيمان هم الذين يتقون الله وهم الذين يوثّقون علاقاتهم بالله متمثلةً في تقواه، ويوثقون علاقاتهم بعباد الله فيصلحون ذات بينهم ويطيعون الله ورسوله.

تناولنا الحديث عن معنى الإيمان الكامل الذى بدأت به سورة الأنفال : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن

﴿ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى إن كنتم كاملين فى إيمانكم فحققوا هذه العناصر الثلاثة : الوصية الأولى ﴿ فاتقوا الله ﴾ ، والثانية : ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ ، والثالثة: ﴿ وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ إن كنتم كاملين وصادقين فى إيمانكم ، واليوم نُريد أن نستكمل هذه السمات التى وصف الله سبحانه وتعالى بها عباده المؤمنين فلئن كانت السمات الأولى دلائل على كمال الإيمان فإن الأوصاف التالية حقائق جوهرية لا بد من تطبيقها حتى يكون إيمانك صحيحا، أى أنه بدون هذه الأمور التى ذكرتها الآيات بعد ذلك لا يكون الإيمان صحيحا فبعد أن قال : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ قال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ .

ويأتى الأسلوب القرآنى بهذا التعبير البلاغى الذى يقولُ عنه علماء البلاغة إنه يفيد الحَصْر ويفيد القصر، أى أن هؤلاء الذين يتسمون بهذه الأوصاف هُم المؤمنون حقاً كما ستذكر الآيات ، وأن غيرهم ممن لا يتصف بهذه الأوصاف لا يكون مؤمناً حقاً، لقد قصر وصف الإيمان على هؤلاء وهذا ما يفيد التعبير بقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ هذه الأوصاف أيها الإخوة المؤمنون تنقسم إلى قسمين، أما القسم الأول منها : فهو خاص بجانب الاعتقاد وأما القسم الثانى منها فهو خاص بجانب الأعمال. فأما القسم الأول وهو الخاص بجانب الاعتقاد فأول وصف للمؤمنين حقاً أنهم إذا ذُكر الله وجلت قلُوبهم، إذا ذُكِّروا بالله تعالى وعظمته وقدرته فاءوا إلى الحق، وثابوا إلى رُشدهم ووجلت قلُوبهم وارتعدت فرائصهم وخافت قلوبهم وفزعت من الجبار الأعظم سبحانه وتعالى، إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ارتعشت القلوب المؤمنة حين تذكر بالله وقدرته وبطشه وعظمته، إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، ومن هؤلاء من يكون مؤمناً صادق الإيمان، ولكن قَد تزل به القدم ، قد يمسُّه طائف من الشيطان﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [1] إذا مسهم طائفٌ من الشيطان تذكروا قدرة الله عليهم تذكروا بطش الله

---

(١) سورة الأعراف آية ١٠٢ .

وجبروته، تذكروا أن الله مطلع عليهم، فيخافون ربهم ويرجعون عما أقدموا عليه من ذنب وعما يحاولون أن يقترفوه من معصية «كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» (١) .

وكل إنسان عُرضة لأن تزل به القدم مهما كان صالحا ومهما كان صادقا لكن المهم أن الصادق فى إيمانه عندما تزل به القدم أو يوسوس له الشيطان أو يقترب من المعصية عليه أن يتذكر أن رب العالمين يراه ويطلع عليه، وأنه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، وأنه إن اختفى عن أعين الناس فلن يختفى عن رب الناس ملك الناس، الذى لايخفى عليه شئ في الأرض ولا فى السماء. إذا ذكر الله وجلت قلوبهم إنه يتذكر ربه سبحانه وتعالى فيثوب إلى رشده ، ويكفُ عن عصيانه ، ويعلم أنَّ أمامَهُ يوماً سيُواجَهُ فيه بما اقترف فيبتعد عما أقبل عليه من معصية. ولقد روى الإمام الترمذى فى جامعه والإمام أحمد فى مسنده حديثا أخبر به سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم عن نبأ واحد ممن كانوا قبلنا من بنى إسرائيل يسمى (الكفل) وهذا الرجل كان مُفرطاً على نفسه، يرتكب من الذنوب والمعاصى ما يرتكب إلى أن كانت واقعةٌ ألمّت بامرأة فقيرة محتاجة، عضها الجوع بنابه، وألجأتها الحاجة إلى أن تطرق بابه، وطلبت منه المساعدة والعون ليُعينها على لقمة العيش وليسد حاجة أبنائها الأطفال فراودها عن نفسها. وكانت عفيفة شريفة، فأبت ذلك ولكنها ما إن عادت إلي أولادها ونظرت إليهم وهم يتضورون جوعاً إلا وذهبت ثانية حيث لن تجد سواه لعلّ قلبه يلين هذه المرة ولعله يستجيب إلى حاجتها دون هذا الطلب الذى فيه عصيان ربها سبحانه وتعالى ولكنه أصرَّ على أن يراودها هذه المرة والثالثة إلى أن رأت أبناءها يكادون يموتون حاولت أو كادت أن تستجيب فإذا به عندما جلس منها مجلس الرجل من زوجته يجد كل عضو فيها يتحرك وكل شعرة فى جسدها ترتعش وكل نفس فى جسمها يتحشرج فيقول لها: ماذا دهاك ؟ قالت : إنى أخافُ الله رب العالمين. فكانت هذه الكلمة القوية المنبعثة من نفسٍ شريفة عفيفة يأبى عليها إيمانها أن ترضخ حتى ولو تحت ضغط الحاجة والفقر فقال لها الرجل بعد أن ثاب إلى رشده ورجع إليه صوابه : أنتِ

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب ذكر التوبة .

تخافين من الله وأنت امرأة، وأنا بعد أن بلغت هذا العمر لا أخاف من ربى!! خذى المال الذى تشائين وإنى تركتك أيضاً خوفاً من رب العالمين. وما أن مرَ الزمن، ومات الكفل واجتمع الناس فما وُجَد أحدٌ منهم يُقدم على بابه ولا يحمل جنازته وكلهم يعزف عنه، لأنهم عرفوا عنه أنه رجل عاص، وأنه أفرط على نفسه، بيْدَ أنهمَ ما إن وصلوا إلى باب بيته، إلا ووجدوا مكتوبا على باب بيته بقلم القدرة الإلهية: إن الله قد غفر للكفل وأدخلهُ الجنة.

وإليك نص الحديث كما أخرجه الإمام الترمذى رحمه الله تعالى:

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات، ولكنى سمعته أكثر من ذلك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كان الكفل من بنى إسرائيل لايتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة، فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال : ما يبكيك ؟ أكرهتك ؟ قالت : لا، ولكنهُ عملٌ ما عملتهُ قط ، وما حملنى عليه إلا الحاجة ، فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته ؟ اذهبى فهى لك ، وقال : لا والله لا أعصى الله بعدها أبدا ، فمات من ليلته ، فأصبح مكتوبا على بابه : «إن الله قد غفر للكفل» [1] .

وهذا الحديث الذى رواه الإمام الترمذى والإمام أحمد وحسنهُ الإمام الترمذى حين يحمل لنا نبأ من قبلنا من بعض الأمم ليكون موعظة للأمة الخاتمة بأن الواحد منا حين يتذكر بطش ربه وجبروته وقدرته وقهره، وأنه مطلع عليه فى كل وقت وفى كل حين، وحين يتمكن من المعصية فيتركها خوفا من الله، فإن الله تعالى يتوب عليه ويرضى عنه، وليس معنى الحديث أن يُفرط المفرطون ويقولوا نأتى إلى لحظة فى أُخريات حياتنا فنفعل كما فعل هذا الرجل، ونتوب وتنتهى حياتنا بتوبة صادقة... لا ... فمن أدراك أنَّ العمر يمتد بك حتى تكون التوبة، عليك أن تبادر بها اليوم قبل الغد. ويقول شُراح هذا الحديث :

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب صفة القيامة وحسنه ، ورواه أحمد ٢٣/٢ ، والحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

إن هذا الرجل شاء الله تعالى له أن يختم له بخاتمة الحسنى لأنه بعد هذ المرة الأخيرة تاب إلى ربه توبة نصوحاً وتذكر قدرة الله عليه فخاف جبروت الله وقهره فختم الله له بخاتمة الحسنى فاللـهم أحسن خاتمتنا جميعاً يارب العالمين.

وفى حديث الإمام البخارى فى صحيحه يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه:

« إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعلم أهل الجنة فيدخلها [١].

هكذا يبين لنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن حُسن الخاتمة لا يعلمها إلا علامُ الغيوب سبحانه وتعالى حتى لايغتر مغترٌ بعبادته وحتى لا يقنط مُفرط من تفريطه، بل إن واجب المفرطين أن ينيبوا إلى ربهم، وأن يتوبوا وأن يبادروا بالتوبة إلى خالقهم، وأن واجب المحسنين أن لا يأخذهم الغرور والاختيال والزهو بكثرة عبادتهم، فإن حسن الظن بالله قديرفع العبد درجات وإن سوء الظـن بالله قد يحبط ثواب عمـلك مهمـا كان عملك عظيما ، فلا يزعمن أحدٌ أنه فوق الناس، أو أنه خير خلق الله مهما أتى من عبادة، ولا يظن أحدٌ فى غيره مهما رآه على تقصير أنه أسوأ خلق الله روى أن رجلا فى بنى إسرائيل أتى عابدا من بنى إسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد، فقال : ارفع، فوالله لايغفر الله لك. [٢]

فأوحى الله إليه : «أيها المتألى، بل أنت لايغفر الله لك»

وعن جندب أن رسول الله صل الله عليه وسلم حدث أن رجلا قال:

والله لايغفر الله لفلان، وأن الله تعالى قال: «من ذا الذى يتألى علىّ ألا أغفر لفلان، فإنى غفرت لفلان وأحبطت عملك»[٣] أو كما قال:

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى باب غزوة خيبر وأخرجه أيضا فى كتاب القدر باب العمل بالخواتيم .

(٢) أخرجه أبو داود والحاكم وإسناده حسن .

(٣) رواه مسلم فى البر .

في هذا الحديث دليل لأهل السنة على جواز غفران الذنوب بلاتوبة، إذا شاء الله غفرانها، وإنما أخبر الله بإحباط عمل القائل مع أن مذهب أهل السنة أنه لاإحباط للعمل إلا بالكفر، فيتأول على أنه أسقطت حسناته فى مقابل سيئاته، فهو إحباط مجازا، ويحتمل أن يكون جرى منه أمر آخر أوجب الكفر، ويحتمل أن هذا كان فى شرع من قبلنا. [١]
وفى رواية أخرى قال الله للمذنب :اذهب فادخل الجنة برحمتى وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار [٢].

ولا شك أن رحمة الله قريب من المحسنين، الذين يخلصون لله تعالى، وهى لأولئك الذين يحسنون الظن ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٣] .

الذين يحسنون العمل والذين يحسنون الظن والذين يبادرون بالمتاب والذين يتذكرون ربهم إذا زلَّتْ بهم القدم أو ادْ لَهَمَّتْ بهم الحياة ﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ فخافوا الله تعالى الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ..﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ فإن آيات القرآن الكريم تتوالى على قلب الإنسان المؤمن إذا قرأها، أو استمع إليها أو اعتبر بها فكلما تتلى تزيده إيماناً على إيمانه ويقيناً على يقينه ولذلك استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الإيمان يزيد وينقص فيزيد بزيادة الأعمال الصالحة وينقص بنقصها، إذن فكأن كل واحد منا مهما وصل فى عبادته أو مهما كان بسيطاً فى عبادته فمن الممكن أن يزداد البسيط إيماناً على إيمانه ومن الممكن أن ينقص الكثير من إيمانه، وما زادت إلا بالأعمال الصالحة التى تقربه لربه سبحانه وتعالى، وما زادت إلا بالاستجابة لآيات الله ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ومعنى هذه الآية أنهم لا يتوكلون إلا على الله ولا يسألون إلا الله، ولا يستعينون إلا بالله ويرددون فى كل صلاة «إياك نعبدُ، وإياك نستعين» ويستجيبون لأمر رسولهم صلى الله عليه وسلم ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» .

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم .

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب النهى عن البغى وأخرجه مسلم فى باب النهى عن تقنيط الإنسان من رحمة الله .

(٣) سورة الأعراف آية ٥٦ .

والتوكل على الله ليس أن تلُقى الأسباب جانباً بل أن تأخذ فى الأسباب وأن تتوكل على رب العالمين سبحانه وتعالى، وكما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» [١] ﴿وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناكم ينفقون﴾ إن الأوصاف الثلاثة الأولى وهى التى تمثل القسم الأول تعنى بجانب الاعتقاد وهى ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ والقسم الثانى: ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ يوثق صلة الإنسان بربه لأن الصلاة صلة بين العبد وربه ويوثق صلته بعباد الله لأن الإنفاق جانب عظيم من جوانب التكافل الاجتماعى، فيه دلالة على صدق إيمان صاحبه ، كما جاء فى الحديث «والصدقة برهان»[٢] «الذين يقيمون الصلاة» إشارة إلى العبادات البدنية والصلاة على رأسها لأنها صلة بين العبد وربه ولأن الصلاة تطهرنا تطهيرا إذا ماألم بإنسان ذنب كما جاء فى الحديث : تحترقون تحترقون (أى بالمعاص والذنوب) فإذا صليتم الفجر غسلتها ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون فلا يكتب عليكم شيء حتى تستيقظوا) [٣] الذين يقيمون الصلاة يجعلونها مستقيمة ويؤدونها كاملة بإسباغ الوضوء لها ، وبأداء أركانها وسننها وهيئاتها والمحافظة عليها وعلى الجماعة فيها لأن للجماعة فضلا على صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة وفى رواية أخرى بسبع وعشرين درجة، ولأن الله تعالى قد يقبل بعض المصلين بسبب بعض المصلين، بمعنى أن ينظر إلى الإمام فإن وجده صالحا قبله وقبل المأمومين معه ، وإلا نظر فى المأمومين فإن وجدهم صالحين قبلهم وقبل الإمام معهم ، وإلا فإن وجد فيهم ولو واحدا صالحا قبله وقبل الإمام وقبل المأمومين ، وإلا فإن لم يجد فيهم أحدا نظر إلى وقوفهم والتفافهم واتجاههم إليه وحده

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب التوكل واليقين .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة باب فضل الوضوء «مطولا» .

(٣) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط .

فغفر لهم جميعا ، «الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناكهم ينفقون» إنهم يبرهنون على صدق إيمانهم بالصدقة، والصدقة برهان .. إنهم ينفقون زكاة أموالهم التى أوجبها الله تعالى عليهم وينفقون تطوعا على المحتاجين وعلى كل من يحتاج إلى إنفاقهم هؤلاء يقول عنهم القرآن الكريم : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ أولئك هم المؤمنون حقا أى أن غير هؤلاء ليسوا مؤمنين حقا ، لأن التعبير القرآنى كما قلت لكم فى أول حديثى جاء بهذا اللفظ الذى قال عنه العلماء يفيد القصر ﴿ إنما المؤمنون ﴾ فكأن غيرهم ليس من المؤمنين الكاملين فى إيمانهم، ثم يختم هذه الأوصاف بقوله : (أولئك) بهذه التأكيدات : «أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» فاللـهم اجعلنا منهم يارب العالمين .

(١٦)

الإيمان والعمل

الحمد لله رب العالمين ... حمدا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة .. وهو على كل شيء قدير . نحمده سبحانه وتعالى ونشكره، ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره ، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب ، ونشهد أن لا إله إلا الله .. وحده لاشريك له بيده مقاليد السموات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ رسالة ربه أعظم مايكون التبليغ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه .. اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعـد ...

فياجماعة المؤمنين.. إن ارتباط الإيمان بالعمل ارتباط وثيق ، وإن القرآن الكريم فى أغلب آياته التى وصف فيها المؤمنين وصفهم بالعمل ، والتى أمرهم فيها بالإيمان ، أمرهم فيها بالعمل حتى يتضح لكل إنسان أن الإيمان بدون عمل لا أثر له وأن عملا بدون إيمان لا وزن له ولا قيمة ... ليس الإيمان بالتمنى ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل .... وإن قوما غرتهم أمانى المغفرة خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وهم يقولون نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل [١]. وفى سبيل إقرار هذه العقيدة وتطبيق أصول الإيمان ووحدانية رب العزة سبحانه وتعالى .. تستدل آيات الكتاب العزيز بما مهده الله تعالى للإنسان فى الكون من ظاهرتين كونيتين يسرهما الله تعالى ليستطيع الإنسان أن يؤدى

(١) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

عمله فى الحياة، واستدل على هاتين الظاهرتين وهما : الليل والنهار ، يسيرهما رب العزة بحكمـة وتقدير . ودقـة وتدبير ، ونظام محكم لا يتخلف. ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١) ولو أن الله تعالى حجب ظاهرة من هاتين الظـاهرتين الكونيتين ، لو أنه حجبهما عن عباده مااستطاعوا أن يضربوا فى الأرض ولا أن يبتغوا من فضل الله، ولا أن يستريحوا على ظهر هذا الكوكب الأرضى، فلو أنه حجب عنهم الليل وجعـل الحياة نهارا دائما ، ما استطاعوا الاستقرار ولاالسكون ولا النوم ولا الراحة، وبالتالى لا يستطيعون أداء أعمالهم ، لأنهم لم يستريحوا ... و لو جعل الكون ليلا دائما لما استطاع الإنسان أن يؤدى رسالته فى الوجود ولا عمله فى الحياة، وما استطاع الإنسان أن يمشى فى مناكبها ، ولا أن يبتغى من رزق ربه، ومن أجل هذا ناقش القرآن الكريم أولئك الماديين الملحـدين والمكابرين وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينبئهم وأن يطلب منهم أن يخبروه ما موقفهم لو حجب الله عنهم ظـاهرة من هـاتين الظـاهرتين ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢)

هكذا يوضح القرآن الكريم ويستدل بهاتين الظاهرتين ، مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء؟ مَنْ إله غير الله يأتيكم بليل ؟ يامن وصلتم فى تقدمكم العلمى ، وفى سـبقكم الحضارى وفى تفننكم الصناعى ، هل تستطيعون أن تحجبوا الليل أو النهار ؟ إنه وحده الواحد القهار ، بيده مقاليد السموات والأرض ، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، لا يستطيع كائن أيا كان وضعه وثقافته وتقدمه ، أن يحدث خللا فى هذا الكون البديع ... مَنْ إله غير الله ؟ إنها دلائل قوية تثبت أن مسير هذا الكون وخالق البرية ، هو إله واحد لاشريك له .. آمنتم به أم كذبتم، رضيتم أم أبيتم ، وهو الذى خلق الليل والنهار

(١) سورة يس آية ٤٠ .

(٢) سورة القصص آية ٧١ - ٧٣ .

وجعل هاتين الظاهرتين من أجل هذا الإنسان الذى تنكر لنعمة ربه وكان واجبا عليه أن يدرك هذه الحقيقة التى يطالعها صباح مساء وفي الليل والنهار . هذه النعمة الكونية من أجلك أنت أيها الإنسان فإنه لولا الليل وما تستمتع فيه من راحة وسكون واستقرار وهدوء ماأستطعت أن تمشى فى مناكبها، ولا أن تؤدى أعمالك فى النهار ، إذن وجب علينا أن نشكره على هذه النعم الجليلة ، ووجب علينا بالتالى أن نجيبه وأن نطيعه للرسالة التى استخلفنا فيها على الأرض، وللوظائف التى خلقنا من أجلها لنعمل ولنكدح ، وإذا كان النهار من أجل أن يعمل الإنسان فإن الذين يتكاسلون ويتعطلون ولا يعملون ، مخالفون لأمر الله، وإذا كان الليل من أجل السكون والراحة لتستطيع أن تواجه النهار عاملا كادحا فإن الذى يقطع ليله كله يقظا مجهدا صحته بحيث لا يستطيع أن يؤدى عمله فى النهار ... عصى الله تعالى ولم يستجب لما خلق الله تعالى له الليل والنهار، لقد خلق الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتبتغوا فيه من فضله، فالذى لا يسكن فى الليل ولا يعمل بالنهار قد عصى الواحد القهار... لأن العمل فريضة فى الإسلام ، وهكذا خلق الله تعالى هاتين الظاهرتين الكونيتين ، ليستطيع الإنسان أن يؤدى فيهما وبهما عمله فى نهاره وفى يومه فكان الليل للراحة والسكون ليستطيع أن يعمل بالنهار ، وكان النهار ضياء ليستطيع أن يؤدى عمله فى الحياة ، ومن هنا ندرك فريضة العمل فى الإسلام ..وإذا كان العمل فى النظريات الدنيوية والتربوية والفلسفية ، من أجل أن يحصل الإنسان على قوته ، ومن أجل أن يحسن الإنسان دخله أو من أجل أن يعيش الإنسان حياة كريمة ، وهى أمور لا يرفضها الإسلام ، بل يدعو إليها، لكن العمل فى الإسلام يختلف عن هذه النظرة القاصرة .. فإن الله تعالى يوجب على الناس أن يعملوا حتى ولو كانوا أغنياء ، ويوجب على الناس أن يعملوا حتى ولو لم يكن أحدهم محتاجا إلى العمل ، لماذا ؟ لأن العمل فيه عمارة للحياة ونفع لبنى الإنسان وأداء لوظائف الأعضاء التى خلقها الله تعالى للإنسان ؟ وإظهار لنعم الله ، ونشر للخير فى البرية ، من أجل ذلك كان العمل فريضة حتى ولو لم تكن محتاجا إليه ، حتى ولو كنت أغنى الناس، لقد ضرب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل فى العمل بواحد من الأنبياء كان غنيا وماكان محتاجا للعمل من أجل أن يأكل أو يشرب فكان لديه المال الوافر ولكنه يعمل لأن العمل عبادة يقول صلى الله عليه وسلم : «ماأكل أحد طعاما

قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [1]، مع أنه كان لديه المال ولكنه كان يعمل الدروع التى تستخدم فى الحروب ويبيعها ويأكل منها، وينظر الإسلام إلى العمل على أنه واجب حتى وإن لم يأخذ الإنسان منه شيئا، حتى وإن لم يحتج الإنسان إليه أو ينتفع به. حتى وإن فرض أن الحياة ستنتهى وينفض سامرها وموكبها وفى يد إنسان فسيلة أى شتلة زرع صغيرة فلا يلقى هذه الشتلة أو الفسيلة ويقول : إن الإنسان والناس لن ينتفعوا منها، فيقول صلى الله عليه وسلم «إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل» [2] .... وهذا معناه أن العمل له قيمته فى ذاته وهو عبادة لذاته ، انتفعت منه أنت أم لم تنتفع ، وقد مر رجل على سيدنا أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه وهو يزرع نوعا لا يثمر إلا بعد سنين طويلة ، فعجب الرجل وقال : هذا رجل عجوز طاعن فى السن ، حياته على وشك الغروب ، مابالة يعنى كل العناية بزراعة نوع لايثمر إلا بعد أن يكون قد انتهى من الحياة، ومات فقال له الرجل : أتزرع هذه وأنت شيخ كبير طاعن فى السن؟ فقال له : وماذا على أن يكون لى أجرها ، وأن يأكل منها غيرى !!! زرع من قبلنا وأكلنا ونحن نغرس ليأكل من بعدنا . وفى هذا يقول سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم «مامن مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرسا فيأكل منه طائر أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» [3] . نعم إنها الصدقة الجارية التى يتنافس كبار الأغنياء من الصالحين وأصحاب الأموال الكثيرة من المؤمنين الصالحين يتنافسون على الصدقة الجارية والمراد الصدقة الجارية : هى التى يستمر ثوابها بعد أن يموت الإنسان كأن يبنى مسجدا أو داراً للفقراء ، أو مستشفى وقد لا يستطيع الإنسان الفقير أن يؤدى مثل مايؤدى الأغنياء، فلايمكنه أن يبنى دارا للفقراء أو أن يقوم بعمل تستمر حسناته له بعد أن يذهب إلى قبره ويلقى ربه ، ولكنه يستطيع إذا غرس غرسا أو زرع زرعا أن يحصل

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده .

(٢) أخرجه أحمد ١٩١/٣ .

(٣) أخرجه أحمد ٤٢٠/٦ و أخرجه البخارى فى كتاب المزارعة باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ، وأخرجه مسلم فى كتاب المساقاة باب فضل الغرس والزرع .

على هذه الصدقة الجارية المثمرة التى زرعها أو غرسها باقية تؤتى ثمارها بعد أن يموت الإنسان، إنه قد انقطع عمله فى الدنيا لكن ثوابه مستمر» إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلامن ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له[1].

فمن الصدقة الجارية أن تغرس غرسا أو تزرع زرعا ، ومن العجيب أننا مع كثافة سكاننا ، فإن مساحة أرض مصر من الصحراء ومن الأرض البور ، ومن الصحراء القاحلة التى لا نبات فيها ولا خضرة ، أضعاف مضاعفة وهى أكبر مساحة من الصحراء لا تنبت شيئا، مع أننا لو زرعنا فيها كما يقول أحد العلماء : (لو زرعناها بزرع لا يحتاج إلى الكثير من المعالجة ولا كثير من الماء .. كشجر الزيتون مثلا ، وغيره من أنواع الشجر التى لا تحتاج إلى ماء أو إلى معالجة إلا مرة واحدة فى السنة أمكن أن تعيش على ماء المطر إذا نزل عليها مرة أو مرتين فى السنة ، فلماذا نغفل عن هذه الحقيقة العظيمة ، التى تدر على أمتنا خيرا .. وتدر علينا ثوابا بعد أن ينتقل الواحد إلى ربه فيصبح هذا الزرع أو هذا الشجر ... صدقة جارية لصاحبها يستمر ثوابها بعد موته إلى يوم القيامة .. كما يبين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إنه حين يبين فريضة العمل أيها الإخوة المؤمنون إنما يرفع الإسلام من قيمة الإنسان العامل الكادح ، ويجعل سعيه فى الحياة ، وعمله فيها وتعبه ونصبه .. لا يقل ثوابا ولا أجرا عن الذى يجاهد فى سبيل الله ولايقل ثوابا ولا أجرا عن الذى يحمل سلاحه يدافع عن الوطن ويضرب فى سبيل الله مجاهدا فى سبيله، وقد مر واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى على الأرض بقوة وفتوة ، ونشاط وحيوية فقال أصحابه : لو كان هذا فى سبيل الله؟ أى لو كانت هذه القوة التى تتدفق من هذا الرجل الشاب جهادا فى سبيل الله؟ فالتفت إليهم النبى صلى الله عليه وسلم وقال لهم «لو كان خرج يسعى على أبوين كبيرين فهو فى سبيل الله ، ولو كان يخرج يسعى على أبنائه الصغار فهو فى سبيل الله ، ولو كان يخرج يسعى على نفسه ليعفها فهو فى سبيل الله، ولو كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان » فيجعل الرسول صلى الله

---

(1) أخرجه مسلم فى كتاب الوصية باب مايلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، وأخرجه النسائى فى كتاب الوصايا باب فضل الصدقة عن الميت وأخرجه أبو داود فى كتبا الوصايا بباب ماجاء فى الصدقة عن الميت.

عليه وسلم من السعى على العمل درجة ، توازى وتقترب من درجة الذى يسعى فى سبيل الله مجاهدا مضحيا بنفسه فى سبيل الله ، ولا يقول أحد وأنى لى العمل ، والمتعطلون كثيرون ، والأعمال قليلة ، وكثير من شبابنا فى بطالة ، وقليل منهم فى بطالة مقنعة بين دواوين العمل، وهذه حقيقة ، ولكن ليس لنا أن نركن عندها وأن نسكت وأن ننتظر أن توفر لنا دولتنا العمل فقط، فهى وإن كانت مطالبة ، ونطالبها بذلك / ونناذى كل مسئول فى الوطن أن يمد يده إلى المتعطلين وإلى علاج مشكلة البطالة التى أفرزت كثيرا من الرذائل ، إذا كان الأمر كذلك ، فإننا لا نعفى أنفسنا، وأى واحد منا أيضا من المسئولية فالمسئولية مشتركة بين أولى الأمر وعليهم الواجب الأول وبيننا نحن فكل صاحب مال لا يقتصر على ادخاره فى البنك ويقول : إنه يدر لى عائدا ويكتفى بهذا ، فإنه لو استثمره فى مشروع من المشروعات سيدر عليه مالا أكثر من البنك وسيحصل على ثواب من ربه كبير ، لأنه سيفتح به بيوتا ويعمل فى المشروع الذى تفتحه بعض العاملين ، ويصل لقمة العيش إلى بطون جائعة ، هذا واجب الأثرياء وأصحاب الأموال ، عليهم أن يسهموا فى حل مشكلة البطالة ، وإذا كان هذا هو الواجب الأول على أولى الأمر ، وذلك هو الواجب الثانى على أصحاب الأموال ، فإن هناك واجبا على كل إنسان لا يجد عملا بأن يبحث عن أى عمل ويمارس ماهو متاح وإن كان يسيرا فى نظره . فيا أخى لا تتحرج من أى عمل تؤديه ، هل أنت أعظم من خير البرية وأشرف من مشى على الأرض ، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رعى الغنم ، وعمل بالتجارة ؟ وضرب لنا أمثلة فيما صح من أحاديث ووضح أن الإنسان لا يصح له أن يعيش عاطلا بل عليه أن يعمل حتى ولو كان العمل بسيطا ... أوكان فى نظره وفى زعمه أنه عمل لا قيمة له ، فإنه عند الله له قيمة وثواب .. وحتى لو كنت تجمع الحطب ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «والذى بنفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه » [1] . وقال صلى الله عليه وسلم «اليد العليا خير من اليد السفلى» فاليد العليا هى المنفقة والسفلى

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة .

هى السائلة» [1]. أى أن العمل مهما كان هينا أو يسيرا أو بسيطا ، أو لا قيمة له فى نظرك أو فى زعمك فإن له عند الله قيمة كبرى ، فلو أن كل إنسان قال : أنا لا أعمل هذا العمل البسيط الخسيس فمن ذا الذى يقوم به ، لو أن كل إنسان أراد عملا عظيما فإننا سنرى البطالة التى لا حدود لها ، وهذا يستوجب علينا أن نحترم كل العاملين ، على كل مسلم أن يحترم كل عامل ، إن هؤلاء المعروقين المكدوحين الذين يتعبون ويعرقون فى الحياة لهم عند الله درجة عظيمة ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : «اليد العليا خير من اليد السفلى » .

أيها الإخوة المؤمنون :

إن أمتنا بحاجة إلى أن تجتمع سواعد أبنائها وأن ننطلق جميعا متعاونين على البر والتقوى كما أمرنا ربنا سبحانة وتعالى ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[2] .

وأن يعمل كل واحد منا ، فمن تيسر له الطريق إلى العمل فليعمل ، ومن لم يتيسر له العمل فعلينا بقدر طاقتنا أن نبذل له ، وأن نيسر له الطريق إلى العمل .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين سُئل من أبى ذر رضى الله عنه عن أفضل الأعمال قال :

إيمان بالله تعالى وجهاد فى سبيله ، قال أبو ذر : قلت يا رسول الله : فأى الرقاب أفضل ؟

قال : أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمنا ، قال : فإن لم أفعل ؟ قال : تعين صانعاً أو تصنع لأخرق – ومعنى تعين صانعا أى تعين صاحب الصنعة على صنعته حتى يقوم بعمله

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة باب لاصدقة إلا ظهر غنى وفى كتاب النفقات باب وجوب النفقة على الأهل والعيال ، وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب اليد العليا خير من اليد السفلى .

(٢) سورة المائدة آية ٢ .

- قال أبو ذر : فإن لم أفعل ؟ قال : تدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك » [1] .

أو كما قال : التائب من الذنب كمن لاذنب له، ادعو الله يستجب لكم .

---

[1] أخرجه البخارى فى كتاب العتق باب أى الرقاب أفضل ، وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب أفضل الأعمال .

(١٧)

لا إيمان لمن لا أمانة له

الحمد لله رب العالمين ، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره حمدا يليق بجلاله وكماله، سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شىء قدير. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له بيده مقاليد السموات والأرض ... يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وهدى إلى صراط ربه المستقيم . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .. وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد ...

فياجماعة المسلمين . يروى لنا سيدنا أنس رضى الله تعالى عنه فيقول : ماخطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال : «لا إيمان لمن لاأمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له» (١) . من شعب الإيمان – وهى كثيرة– شعبة الأمانة التى يوجهنا إليها سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكان فى توجيهه إلى هذه الشعبة بالذات يكرر النصح والتوجيه فى كل خطبة يخطب فيها كما يقول أنس ما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال : لا إيمان لمن لا أمانة له : إنه يريد أن يقول إن الإيمان لا يكون ولا يكتمل إلا بالأمانة، فالأمانة مشتقة ومأخوذة من مادة الإيمان لفظا ومعنى ، فإذا نظرنا إلى كل شعب الإيمان وإلى كل التكليفات والتشريعات والعبادات والمعاملات إن لم يكن الإنسان فيها أمينا فإنه

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل ١٥٤/٣ .

بلاشك لايؤديها على وجهها الكامل ، ولا يؤديها كما أمر الله ، ولا على النحو المطلوب منه أن يؤديها عليه، فالرجل الأمين ... تراه أمينا فى كل شىء ، تراه أمينا فى صلاته ، فلا يسرق فى صلاته ، وهل فى الصلاة سرقة ؟ نعم ، إنه يخطفها خطفا ويجرى بها جريا ويثب بها وثبا فلا يكتمل فيها خشوع ولا خضوع ولا إقبال على الله علام الغيوب ، ويكون أمينا فى زكاته لأنه يعلم أن فى ماله حقا معلوما للسائل والمحروم ، فلو أخذ هذا الحق ولم يخرجه كان خائنا وكان غير أمين على ما ائتمنه الله تعالى عليه من مال . والصيام أمانة فمن الممكن أن يتظاهر أمام الناس به وفي الخفاء يخون الأمانة ، والحج أمانة فهو عبادة جمعت بين العبادة القولية والمالية، والمعاملات بين الناس أمانة ، وسلوك الإنسان فى حياته أمانة والمجالس بالأمانة ، والبيوت ومايجرى فيها أمانة والودائع وهى أكبر وأظهر صور الأمانات ... أمانة ، ومن أجل هذا نرى ربنا سبحانه وتعالى يأمرنا بأداء الأمانة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[1] ونراه سبحانه وتعالى يوضح لنا عظمها وجلالها وخطورتها﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [2] ويتبادر إلى أذهاننا حين نسمع كلمة الأمانة أنها المال أو الوديعة وهذا نوع من أنواعها وليس جميع أنواع الأمانة، وهذه الوديعة التى يودعها أخوك المسلم عندك يجب عليك أن تردها إليه حين يطلبها لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» [3]. «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانة إلى أهلها »، فإذا نظرنا إلى التكاليف الشرعية من صلاة وزكاة وصيام وحج وغير ذلك من العبادات نرى أنها أمانات يجب أن نؤديها طاعة لم ائتمننا عليها وهو الله علام الغيوب الذى يعلم السر وأخفى ، وإذا نظرنا إلى جوارحنا التى وهبنا الله تعالى إياها من لسان نتحدث به وعين نرى بها وأذن نسمع بها ويد نعمل بها ورجل نمشى بها ، نرى أن هذه

---

(١) سورة النساء آية ٥٨ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٧١ .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب البيوع باب ماجاء فى النهى للمسلم أن يدفع إلى الذمى الخمر يبيعها له .

الجوارح وغيرها من سائر جوراح البدن هى أمانات ائتمننا الله تعالى عليها فإن نحن استخدمناها فى الطاعة كنا قد أدينا أمانة الله عندنا وإن استخدمناها فى المعصية كنا قد خنا الأمانة ، وكانت هذه الجوارح اليد والرجل واللسان ...... شهود عيان علينا يوم نلقى الله سبحانه وتعالى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [1] .

إن هذه الأمانات التى منحنا الله تعالى إياها وإن هذه الجوارح التى ستكون شهود عيان علينا يوم نلقى الله يجب أن تؤدى أمانة الله فيها، أما المعاملات فما أكثر الأمانة فيها من بيع وشراء ووكالة ومشاركة أو مضاربة إلى غير ذلك من وجوه المعاملات، فإذا كنت بائعا ، فلا تكن من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون فإن الله تعالى جعل للمطففين الويل حيث قال ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾[2] . لأنهم يخونون الأمانة فى بيعهم أو يخونون البائع فى شرائهم منه فلابد أن تكون أمينا فى بيعك وأمينا فى شرائك، ولطالما ناهض رسول الله صلى الله عليه وسلم صور الغش والخيانة فى أول لحظة تظهر فى المجتمع ، فكان البائع كما نرى من البعض يظهر الجيد فى الأنواع التى يبيعها فى أعلى والردىء يخفيه فى الأسفل حتى يغرى المشترى فإذا مااشترى دس له الردىء مع الجيد دون أن يعلم المشترى ، فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل يبيع كومة طعام فألهمه الله أن يدخل يده فى هذه الكومة ، فأخرج منها أنواعا فيها بلل فأمسكها صلى الله عليه وسلم بيده وقال : ماهذا ياصاحب الطعام ؟ فقال : أصابته السماء يارسول الله ... أى أن السماء أمطرت فنزل الماء عليه فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس « من غشنا فليس منا »[3] أنظروا فى أى شىء قال عليه الصلاة والسلام من غشنا فليس منا ... فى شىء يسير ، فى كومة طعام أمرها هين ويسير ، فما بالك فيمن يغش فيما هو أفدح وأخطر ، مابالك فيمن يغش فى البناء ومواد البناء ؟ ويشيد بيتا أو عمارة أو جسرا يستخدم

---

(١) سورة النور آية ٢٤ .

(٢) سورة المطففين آية ١ .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب قول النبى صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا .

الذين يعيشون فيه ،كيف تكون فداحة هذا الغش وتلك الجريمة بمن يخون الأمانة فمن يشيد بيتا أو جسورا كيف تتصور خيانة الأمانة ممن يعد دواء فبدل أن يكون فيه الشفاء يكون فيه الهلاك للملايين ، من أجل ذلك يقول سيدنا أنس : ماخطبنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال : «لا إيمان لمن لا أمانة له » هنا ندرك عظمة هذا التوجيه النبوى، لأن الذى يخون يترتب على خيانته هلاك الناس وضياع الحقوق وضياع الأنفس والأرواح ، وكما تكون الأمانة فى البيع وفى الشراء وفى الدواء وفى البناء ، فإن الأمانة أيضا فى الوديعة ، وتكون فى سائر أعمالنا .. وكل واحد منا أمين ... وكل واحد منا مؤتمن على ماهو قائم به من عمل ، فالمدرس مؤتمن على الأبناء الذين يدرس لهم هل يؤدى الأمانة فيهم أم لا ؟ والعامل مؤتمن فى العمل الذى يوكل إليه .. هل يؤدى الأمانة فى هذا العمل أم لا ..؟ ورئيس العمل . والمدير .. والوزير ... والحاكم .. كل مسئول علا أو نزل به منصبه أو هبطت به مسئوليته فهو مسئول على حسب هذه المسئولية حتى وإن قل عمله ... حتى وإن كان فى نظرك يسيرا فإنه مسئول وسيحاسب على هذا العمل اليسير ... وكلما اتسعت دائرة العمل وارتفع المنصب زادت المسئولية أمام الله سبحانه وتعالى ، ومن أجل ذلك كان الفقهاء وأئمة الإسلام يهربون من مناصب القضاء والإفتاء والوظائف الكبرى ، لأنهم يعلمون أن فداحة المسئولية خطيرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رفيقا بأصحابه الذين يحبونه فإذا تطلع أحدهم إلى منصب بين له مسئولية المناصب فجاءه ذات مرة أبو ذر رضى الله عنه يقول: يارسول الله ألا تستعملنى ؟ قال أبو ذر فضرب النبى صلى الله عليه وسلم على منكبى وقال : «إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها» [(١)] . ومن أجل ذلك نرى الكثيرين من ذوى المناصب العليا والوظائف العامة من تعصف الأهواء بقراراتهم فيطيحون بأصحاب الكفاءة والجدارة ويؤخرونهم ويقدمون الغير لهوى أو لعصبية أو لغرض دنيوى، فيناهض النبى صلى الله عليه وسلم تلك الظاهرة التى تدعو البعض أن يلغوا أهل الكفاءة فيقول صلى الله

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة باب كراهة الإمارة بغير ضرورة ، وأخرجه أحمد ١٥٠/٥ ، ١٦٣ ، ١٧١ .

عليه وسلم فى هذا المعنى: «من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» [1] . وقال صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخل جهنم»[2] انظروا إلى مدى الخيانة هنا ... ليس فى كومة طعام وليس فى وديعة وإنما يقول صلى الله عليه وسلم : «فقد خان الله ورسوله المؤمنين» لأنه خان الله فلم يأتمر بأمره وخان رسوله فلم يتبع توجيهه وخان المؤمنين لأنه ولى عليهم إنسانا وفيهم من هو أرضى لله سبحانه وتعالى منه. هنا تأتى الخطورة وكما تكون الأمانة فى ذلك ، فإنها تكون أيضا فى المال العام ، الذى تتعامل به كإنسان عادى بسيط أو موظف كبير صاحب وظيفة عامة ... فإن استخدامك لهذا المال هو بقدر ماقد حدد لك ، وماتأخذه فوق ذلك بحيلة أو بأخرى إنما هو أكل لمال الناس بالباطل . لقد ناهض سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ظاهرة الهدايا المقنعة والرشوة المقنعة وظاهرة أكل أموال الناس بالباطل وظاهرة أكل المال العام حين استعمل رجلا من الأزد يسمى ابن اللتبية على جمع مال الصدقة ولموقفه من القوم كانت تهدى له الهدايا فلما جاء قال (وقد قسم المال قسمين) هذا لكم ماجمعته من الصدقة وهذا هدية أهديت لى ... انظروا ماذا فعل النبى صلى الله عليه وسلم وقف وخطب الناس .. وكان عليه الصلاة والسلام إذا همه أمر يعلنه على الملأ لينصح الآخرين وليوجه من عساه أن يقع فى مثل هذا الخطأ بعد ذلك، وحين يوجه الناس ماكان يصرح باسم أحد، فلا يصرح بأسماء الناس وكان هذا من أدبه العالى لا يحرج حتى الظالم ، وحتى المذنب لا يذكر اسمه حتى لا يحرجه ، وحتى لا يوقع الناس فى حرج وكان يقول: «مابال أقوام يقولون كذا وكذا» « مابال الرجل أستعمله على العمل مما ولانى الله» ، ما بال فلان فلا يذكر الأسماء لأن فى ذكر الأسماء افتضاحا وإظهارا وهو ذو أدب عال وذوق رفيع ، فوقف صلى الله عليه وسلم وعلم أن هذا الرجل أهديت له بعض الهدايا وقال «هذا لكم وهذا هدية أهديت لى » وقف فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه .. ثم قال فإنى

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى فى السنن الكبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) رواه الحاكم .

أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتى فيقول : هذا لكم وهذا هدية أهديت لى ، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا ، يعنى لو كان فى بيته ولو لم يكن فى هذا المكان أو فى هذه الوظيفة ... هل كان الناس سيهدون إليه .. إذن ماأهدوا إليه إلا من أجل مكانته ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يأخذ أحد منكم هذا المال بغير حقه إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة» يعنى يفتضح بسبب الشىء الذى أخذه فى الدنيا سرا ولم يره أحد، يفتضح به يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، يحمله على رقبته ، والأخطر من ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول «فلأعرفن أحدا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رغاء – وهو صوت البعير – أو بقرة لها خوار – صوت البقرة – أو شاة تيعر – وهو صوت الغنم – ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه ثم قال : اللـهم هل بلغت ، اللـهم هل بلغت بصر عيني وسمع أذنى» (١) .

وكان هذا البيان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مناهضة للذين يجترئون على المال العام ، فوعى أصحابه رضوان الله تعالى عليهم قضية الحفاظ على المال العام الذى يعبث به الكثير اليوم ، ويقول إنه ليس ملكا لأحد . هذا مال الدولة ، هذا يستحقه الإنسان ويحاول البعض أن يحلل لنفسه المال العام ... سواء كان إضاءة يعبث فى عداد الإنارة أو عداد المياة ، أو أى ظاهرة من ظواهر المال العام ، إن المال العام ليس ملكا لحاكم وليس ملكا لرئيس العمل وليس ملكا لك ولا لى .. بل إنه ملك لكل واحد من أفراد المجتمع فحين تخون فإنك خنت كل واحد منهم ، ولذلك وعى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده خطورة العدوان على المال العام ، فرأينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذات مرة وقد جاءته زوجته تطلب منه أن يشترى لها حلوى فقال لها لن أشترى الحلوى ولن أدخلها بيتى مادام المسلمون فقراء يحتاجون إلى القوت الضرورى فجمعت له زوجته – وهو خليفة المسلمين من قوت بيتها الخاص بعض الدراهم البسيطة وجاءته بعد خمسة أيام

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأحكام باب محاسبة الإمام عماله ، وأخرجه مسلم فى كتاب الإمارة باب تحريم هدايا العمال .

تقول له : خذ هذه الدراهم واشتر بها الحلوى فقال لها : ومن أين جئت بهذه الدراهم ؟ وكان بهذا أول من سن قانون من أين لك هذا .. قال لزوجته من أين جئت بهذا ؟ قالت إنه ليس من بيت مال المسلمين ، وإنما قد ادخرته ودبرته من قوت بيتنا الخاص . ومن مصروف البيت، فقال عمر : ولو كان من قوتنا الخاص ومن مصروف البيت فما دمت قد اكتفيت بالضروريات فلا يصح أن تستفيدى بالكماليات، وفى المسلمين بطون جائعة لا تجد القوت الضروى ... قومى وردى هذه الدراهم إلى بيت مال المسلمين ، مادامت قد زادت عن حاجتنا ، فهناك بطون جائعة لا تجد القوت الضرورى، ويصور شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله هذا المعنى حين يقول :

يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها	من أين لى ثمن الحلوى فأشتريها
فأقبلت بعد خمس وهى حاملة	دريهمات لتقضى من تشتهيها
فقال نبهت منى غافلا فدعى	تلك الدراهم إذ لاحق لى فيها
مازاد عن قوتنا فالمسلمون به أولى	فقومى لبيت المال رديها

فرضى الله تعالى عن عمر وصلى الله وسلم على صاحب الرسالة سيد الخلق الذى أرسى قواعد الأمانة كشعبة من شعب الإيمان ، فما خطب المسلمين إلا قال لهم : «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لاعهد له » أو كما قال : التائب من الذنب كم لاذنب له . ادعوا الله يستجب لكم .

(١٨)

حلاوة الإيمان

الحمد لله رب العالمين .. حمد المحبين له والشاكرين ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة نقر فيها بربوبيته ووحدانيته ، ونشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ... اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، الذين تحابوا بروح الله ، وكانوا إخوة صادقين فى إيمانهم وفى محبتهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

أما بعـد ..

فيا معشر المسلمين .. ونحن نتابع قضية الإيمان فى دلائله وعلاماته التى إذا ظهرت فى الإنســان عرف أنه وصل إلى حقيقة الإيمان و إلى كمــاله ، تحدثنا عن طرف منها فيما سبق فى بعض الآيات الكريمة التى تناولت سمات المؤمنين الصادقين الكاملين وهناك فى حديث سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم دلائل توضح كمال هذا الإيمان وحقيقته والتى إذا استشعرها الإنسان المؤمن أيقن أنه على إيمان كامل ، وأنه على حقيقة الإيمان، وأنه بعيد عن الرياء بعيد عن التظاهر قريب من الله ، قريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من هذه العلامات التى بينها الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار» (١) إن للإيمان حلاوة ليست كالتى نتذوقها بفمنا إنما هى سعادة تغمر القلوب وشعور وجدانى يستشعره المؤمن الصادق فى إيمانه ، يستشعر انشراحا فى صدره

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان ، وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ، واللفظ لمسلم .

وفرحا فى قلبه وهو مقبل على الوضوء يتوضأ ويخرج من وضوئه وقد أحس بسعادة فى داخله وأحس بانشراح فى صدره فيقف بين يدى ربه فى الصلاة فيستشعر متعة وسعادة وحلاوة تفوق كل سعادة وحلاوة وكل لذة فى الدنيا ، يستشعرها فى كل عبادة يؤديها إلى ربه ويستشعر حلاوة الإيمان حين يقوم فى الليل يصلى بعض الركعات ، ويستشعرها وهو يمد يده إلى الفقير ، ويستشعرها وهو يحنو على الضعيف ، ويستشعرها وهو يمسح دموع اليتامى والفقراء والمساكين ، ويستشعرها وهو يمد يده بالمساعدة لعباد الله ، ويستشعرها شعورا وجدانيا داخليا لا يعرف به أحد ، ولا يشعر به من يجاوره ، ولا من يساكنه ، ولا أعز الناس عليه ، إنه شعور فاق كل شعور وسعادة فاقت كل سعادة ، ومتعة تفوق كل المتع التى فى الدنيا إذا تصورت متعة فى أكل أو فى شراب ، أو فى شهوة من الشهوات أو فى منصب أو فى جاه ، أو فى مال ... أو فى أى شىء عجيب فى الوجود ، إذا تصورت قمة السعادة يتربع عليها ملوك الأرض فاعلم أنك حين تحوز هذه الدلائل تفوق هذه السعادة كلها التى عبر عنها أولياء الله الصالحون حين قال بعضهم : نحن فى لذة ومتعة لو عرفها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف . هذه الحلاوة والمتعة الروحية هذه السعادة الإيمانية يقول عنها المصطفى صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » أولى هذه الدلائل أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .. انظر إلى كل ماسوى الله .. وأنظر إلى كل ماسوى الله ورسوله حتى ولو كان أباك أو ابنك أو مالك أو زوجتك أو عشيرتك لابد أن يكون حب الله وحب رسوله فوق هذا كله ، لأن القرآن الكريم وضح هذه الحقيقة حين قال رب العزة سبحانه﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (١). فالآية تقول إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ... كل هؤلاء إن كانو أحب إليكم من الله ورسوله إن كنتم تقدمون محبة الأب أو الابن أو الزوجة أو العشيرة أو المال أو التجارة أو المساكن، على محبة الله وعلى محبة رسوله فالوعيد لكم «فتربصوا حتى

(١) سورة التوبة آية ٢٤ .

يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين» إذاً لابد أن نقدم محبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم على كل ماسواهما، ونلاحظ هنا أن الحديث جمع فى الضمير بين الله ورسوله أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، مع أنه صلى الله عليه وسلم حين استمع لخطيب يقول من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى - فجمع فى الضمير بين الله ورسوله فقال الرسول صلى الله عليه وسلم «بئس الخطيب أنت» [1] فلم يوافق على أن يجمع فى الضمير بينه وبين الله سبحانه وتعالى وللعلماء فى هذا أقوال كثيرة يقولون: الخطب شأنها الإطناب والحديث شأنه الإيجاز ليحفظ عنه ، لكن إذا نظرنا إلى الجمع فى المحبة فى ضمير واحد وإلى التفرقة فى العصيان وعدم إقرار عصيانهما فى ضمير واحد لعرفنا أن محبة الله وحدها لا تكفى دون محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم وحدها لاتكفى دون محبة رب العزة سبحانه وتعالى ، فمن أجل ذلك جمعهما فى ضمير واحد ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فالمراد أن تجمع حب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا يفرق بينهما أبدا، فقد جمع رب العزة بينهما فى كلمة التوحيد ، التى يرفعها المؤذن فى كل صلاة حين يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

أغــــر عليه للنبــوة خــــاتم	مــن الله ميمون يلــوح ويُشهـد
وضم الإله اسم النبى إلى لـسمـه	إذ قال فى الخمس المؤذن أشهـد
وشق لـه من اسمـــه ليجلـــه	فذو العرش محمود وهـذا محمـد

فالمراد محبته ومحبة رسوله معا، أما فى العصيان ، ومن يعصهما فقد غوى ، لا .. من يعصهما فقد غوى، ومن يعص أحدهما فقد غوى ، فكل عصيان على حدة ، يكون عصيانا لله سبحانه وتعالى ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومحبة رب العزة سبحانه تتضح باتباع الإنسان لأوامر ربه ، فلا يدعى الإنسان أنه يحب ربه وهو يخالفه:

---

(١) أخرجه النسائى فى كتاب النكاح باب مايكره من الخطبة .

تعصى الإلـه وأنت تظهر حبـه هـذا لعمـرى فى القياس شنيع

لو كان حـبك صادقا لأطعتـه إن المحـب لمـن يحب مطيـع

ومن علامة محبتك لله ، أن تتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن رب العزة سبحانه وتعالى بقول : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) ولقد ضرب سلفنا الصالح أسهما وافرة فى محبة الله سبحانه وتعالى وفى محبة الذات الإلهية ونظر أحد العارفين على أن الذى ضاعت حياته دون أن يكون له سهم فى هذه المحبة فقد خسرالدنيا والآخرة ، إنه الصفاء بلا ماء واللطف بلا هواء، والـروح بلا جسـم ، والنور بلا نار، إنها الذات العالية التى يقول عنها ابن الفارض سلطان العاشقين رحمه الله :

يقولون لى صفها فأنت بوصفهـا خبير أجـل عندى بأوصـافها علـم

صفاء ولا مـاء ولطف ولا هـوى ونـور ولا نـار وروح ولا جسـم

تقدم كـلَّ الكائنـات حديثُهـا قديما ولا شكـل هنـاك ولا رسـم

وقـامت بها الأشيـاء ثم لحكمـة بها احتجبت عن كل مَنْ لاله فهـم

على نفسه فلْيَبْكِ من ضاع عمـره وليس لـه منهـا نصيب ولا سهـم

ونرى رابعة العدوية التى وعى تاريخ سلفنا صفحات من حياتها المشرقة التى أخذت فيها منهجا خاصا فى محبة رب العزة سبحانه وتعالى فلم يكن حبها كالأجير الذى يعمل من أجل أجرة ، وإنما كان خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى فتقول :

« إلهى إن كنت أعبدك خوفا من نارك فأحرقنى فيها ، وإن كنت أحبك طمعا فى جنتك فاحرمنيها، وإن كنت أحبك شوقا إلى ذاتك ووجهك الكريم فلا تحرمنى منه يارب

(١) سورة آل عمران آية ٣١ .

العاليمن» وتدير ظهرها للدنيا برمتها وتقبل على خالقها وربها سبحانه وتعالى وتتمثل بهذه الأبيات :

فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبنك عامر	وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين	وكل الذى فوق التراب تراب

لقد كان لهؤلاء الرواد فى المحراب الصوفى خطى من نور ، رأى الناس فى أفريقيا وفى مجاهل الأرض سلوكهم المستقيم ، وحياتهم المضيئة بالإيمان فاعتنقوا الإسلام ، وآمنوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد نبيا ورسولا ، حين رأوا الإسلام فيهم حقيقة واضحة، وحين رأوا حبهم لله ، صادقا لا مرية فيه ، حتى كان يأتيهم العاصى فبمجرد أن يجالسهم يخرج تائبا إلى ربه منيبا لخالقه ، لقد كان لهم قدم صدق عند ربهم ، أحبوا الله وأحبوا كتاب الله فأفضى إليهم بأسراره وأحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فساروا على منهاجه، وعاشوا إخوة متحابين بروح الله، وكانت محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم تدفع بعضهم أن يضحى بنفسه فى سبيل هذه المحبة لأنه يعلم أنها عنصر من عقيدته وعنصر من عناصر إيمانه ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » [1] إن المحبة إما أن تكون محبة عطف وحنان ، كمحبة الأب لأبنائه ، وأما أن تكون محبة تعظيم وتوقير كمحبة الابن لأبيه ، أو الصغير للكبير، وإما أن تكون محبة مشاكلة واستحسان كمحبة الأقران والزملاء بعضهم لبعض ، فجمع الله لنبيه كل أنواع المحبة جميعا ، ولذا لما قال له عمر : إنك لأحب إلى يارسول الله إلا من نفسى قال : لا .. ياعمر .. حتى أكون أحب إليك من نفسك ، قال : والله إنك لأحب إلى من كل شيء حتى من نفسى التى بين جنبيّ ، فقال له : «الآن ياعمر» أى الآن صح إيمانك ، وكمل يقينك. فمحبته صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عنصر أساسى من عناصر الإيمان والعقيدة الصحيحة حتى إن سلفنا الصالح وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يساق أحدهم فى الغزوات ويصلب ويقال له : ستظل فى الأسْر والصلب والعذاب أو أن نطلق سراحك وتسلم لنا محمدا مكانك، فما كان جوابه لهم إلا أن قال : والله الذى لا إله إلا هو لأن أقتل فى هذا المكان أحب إلى من أن يصاب محمد بشوكة تؤذيه . أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ما أكثر المتحابين وماأقل المخلصين ، وما أكثر المدعين ، وماأقل الصادقين، إن الذى يحب أخاه لغرض مادى أو لهدف هابط ، أو لسبب يريد أن يصل إليه لا يفتأ أن تذهب المحبة سريعا ، أما الذى يحب أخاه حبا خالصا لوجه الله وعلى صعيد الحب الخالص فى الله وفى رسوله، فأولئك الذين يحشرون يوم القيامة على منابر من نور كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «إن من عباد الله أناسا ماهم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء لمكانهم من الله عز وجل» ، قيل يارسول الله من هم ؟ وماعلامتهم ؟ لعلنا نحبهم! ونقتدى بهم ، قال : قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها والله إن وجوههم لنور ، وإنهم على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم تلا قوله تعالى : «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» الذين آمنوا وكانوا يتقون» [(١)] إن حبك لأخيك المسلم حبا صادقا فى الله تخف لنجدته ، تواسيه فى أزمته ، تفرح لفرحه ، هذا الحب يرفعك يوم القيامة ليجعلك من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله ، يوم لا ظل إلا ظله، من هؤلاء السبعة «ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه » [(٢)] وإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من قبل الله : «المتحابون بجلالى فى ظل عرشى يوم لا ظل إلى ظلى» [(٣)] .

أرأيتم دينا وتشريعا ونظرية فى عالم الدنيا وتاريخ البشر منذ أن كان للبشر تاريخ ترفع من قيمة الإنسان وتعلى من قدره فى محبته لأخيه كهذا الدين ؟ أرأيتم نظرية فى الوجود ،

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب ماجاء فى الحب فى الله .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأذان باب من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ، وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة .

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل ١٢٨/٤ .

باستقراء النظريات أصلحت المجتمع كما صنع محمد بن عبد الله مع هذا المجتمع البدوى الذى جعل منه إخوة متحابين لهم منهاج يسيرون عليه ، فكانوا إخوة متحابين ، ولكن ممايؤسف أن تتغير حياة الناس اليوم وبدل أن يكون المؤمنون متحابين ومتوادين إذا ببعضهم يعادى بعضا ، وإذا بالفرقة تدب فى الصفوف ، وإذا بالشروخ تأخذ طريقها فى جسد أمتنا الإسلامية ، وعدوها اللدود يحصدها ويُبيد أقلياتها ولا مجيب ، وكأن الأمر لا يعنينا وكأن كل همنا أن يضرب بعضنا بعضا ، وأن يفرق بعضنا بعضا ، وأن يخاصم بعضنا بعضا ، وأن يتفوق بعضنا على بعض، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، إن دينا يرفع من قدر محبة الإنسان لأخيه ويجعل منه إنسانا يحشر يوم القيامة على منابر من نور لجدير أن يتبع، وجدير بمنهاجه أن يأخذ طريقه فى دنيا الناس، فما أحوجنا إلى هذا المنهاج الذى يعيد المؤمنين صفا واحدا ، وأحبة يلتقون على صعيد الحب الخالص فى الله وفى رسوله صلى الله عليه وسلم، «وأن يكره أن يعود فى الكفر ، كما يكره أن يقذف فى النار» فلا أحد يرضى أن يعود إلى الكفر، وهل من الممكن أن يحدث ذلك ؟ يظن البعض أن هذا مستحيل ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبين أنك قد تعود إلى الكفر من حيث لا تشعر ، وأنت تخاصم أخاك تعود إلى الكفر، وأنت تناصب المسلمين العداء ، تعود إلى الكفر ، وأنت تحمل السلاح على المسلمين ، تعود إلى الكفر ويبرأ الرسول منك لأنه يقول «من حمل علينا السلاح فليس منا» (١) ويقول : «لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» (٢) لاترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، أى أن المسلمين حيث يضرب بعضهم رقاب بعض يرجعون القهقرى إلى الكفر وهو يقول : «و أن تكره أن تعود إلى الكفر كما تكره أن تقذف فى النار» ما أشد حاجتنا إلى التمسك بديننا وبإيماننا وبدلائل كمال الإيمان وحقيقته ، حتى يفتح الله علينا بركات من السماء والأرض ، أو كما قال .. التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الفتن باب قول صلى الله عليه وسلم : من حمل علينا السلاح فليس منا وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب قول النبى صلى الله عليه وسلم من حمل علينا السلاح فليس منا.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الديات باب قول الله تعالى : ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب قول النبى صلى الله عليه وسلم لاترجعوا بعدى كفارا .

(١٩)

الإعتدال بين الحياة المادية والروحية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد فإن الإسلام هو دين اليسر والسماحة ، تضمنت تعاليمه القويمة ومبادئه السمحة مافيه سعادة الناس دنيا وأخرى . وهو دين ينظم العلاقات القائمة بين البدن والنفس، أو بين متطلبات الجسد وبين الجانب الروحى فى الإنسان .

ففى كل إنسان جانبان أحدهما مادى يتطلب الطعام والشراب والملبس والمسكن والزواج وما إلى ذلك مما جرت عليه سنة الحياة .

والجانب الآخر روحى يتطلب صقل النفس وتهذيب الروح، والإتجاه إلى الله، يهذب النفس وينقيها ويصل بها إلى مرتبة التقوى كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[١] وإلى غير ذلك من العبادات التى شرعها الإسلام ، وغير ذلك من الطيبات التى أباحها الإسلام للإنسان حتى يتواءم نظام البدن والروح ولا يحدث هناك تفرقة أو انفصال بينهما .

والغلو فى أحد الجانبين خروج عن سواء السبيل ، والتقصير فى أحد الجانبين تضييع لحقوق يجب أن تراعى ، وإهمال لأوامر لها أهميتها ومنزلتها .. ومن هنا كان نداء الإسلام للمواءمة بين المادة والروح معتدلا وقائما على أساس تنظيم العلاقة بين البدن والروح ، وإذا استقام الأمر وانتظمت الحال انتظمت العلاقات الأخرى، وأخذ الإنسان طريقه إلى ربه سبحانه وتعالى فى اعتدال لا عوج فيه . وفى انتظام لا غلو فيه ولا تقصير، فلا رهبانية فى الإسلام ولا مشقة أوتعب يصيب البدن ، ولكنها التشريعات الصحيحة التى أبطلت ماكان

---

(١) سورة البقرة (١٨٣) .

عليه البعض من رهبانية وماحاوله البعض من عزل الدين عن الحياة ، وعندئذ تضل الحياة. فإذا عزل الدين عن الحياة ضلت طريقها وتخبطت فى شكوك وأوهام ، فالدين بمبادئه ونظمه بتعاليمه وقيمه يضىء للحياة طريقها، ويبعث فى جوانبها الحياة والأمل ويجعلها دائمة موصولة بالخير الدائم الذى لا ينقطع وبالفضل المستمر الذى لا يتوقف ، وعن تلك الرهبانية التى لم يرعها أهلها تحدث القرآن الكريم ، فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [1] .

وفى السنة الشريفة تحذير من تلك الرهبانية وترغيب فى إعطاء الجسم حقه من الراحة ومن طيبات الحياة، عن أنس بن مالك رضى الله أن نفرا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم سألوا عن عمله فى السر فقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا آكل الطعام وقال بعضهم : لا أنام على فراش، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فحمد الله وأثنى عليه وقال : مابال أقوام قالوا : كذا وكذا ؟ ولكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى [2] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [3] .

وقد وجه القرآن الكريم أنظار المسلمين وقلوبهم إلى حقيقة هذه الحياة الدنيا وأنها لعب ولهو وزينة ، والناس فيها، متفاخرون ومتكاثرون ، ولكن نهايتها إلى زوال وآخرتها إلى فناء فلا بقاء لها ولا خلود فيها وكل ماعليها عرض زائل فليس لإنسان أن يتكالب عليها أو أن يتزاحم على حطامها ويتقاتل على بريقها، وإنما الواجب على الإنسان أن يكبح جماح نفسه فيعمل لآخرته، وليس معنى هذا أن يهجر دنياه أو أن يتركها ويهملها ؟ لا ... وإنما

---

(١) سورة الحديد (٢٧) . (٢) رواه مسلم .

(٣) سورة القصص (٧٧) .

يوفق بين دار العمل والتكليف ، وبين ماتطلبه دار الجزاء ، الدار الأخرى التى هى خير وأبقى ، يقول الله سبحانه ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١)

وحين يقصر الناس اتجاههم فى الحياة على طلب المال والولد والمنصب فإنهم حيئذ يتجهون اتجاها ماديا بحتا ... والإسلام لا يحرم التمتع بالطيبات، وينادى بعمارة الحياة بالمال والولد، ولكن على شرط أن تكون قائمة على أسس من الفضائل والمثل التى نادى بها الإسلام والإسلام لايحرم طيبات الحياة ولكن ينادى بأن تشرق بالإيثار والبذل ، وبالتضحية والإخلاص، وبالتعاون والتساند على البر والتقوى، فإن الله تعالى يقول﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (٢) وبين الله سبحانه أنه لم يحرم زينته التى أخرجها لعباده ولا الطيبات من الرزق فقال جل شأنه ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٣) .

وأما محاربة الاسلام للمادية الطاغية البحتة فذلك لأنها نأت عن القيم الرفيعة والآداب العالية والمثل الحية وأصبح هؤلاء الماديون المغالون يمثلون نشاطا جامدا خاليا من الروح والمعنى بعيدا عن المبادىء السامية ، وأصبح هؤلاء الماديون يمثلون حربا على المعانى الإنسانية وعلى الفضائل الكريمة .

إن هؤلاء الماديين قد ضل سعيهم فى الحياة ويزعمون أنهم يفعلون فعلا حسنا ويقومون بإصلاح فى الحياة ، لقد انطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الحديد (٢٠) .
(٢) سورة الكهف (٤٦) .
(٣) سورة الأعراف (٣٢) .
(٤) سورة الكهف (١٠٤) .

وأما السائرون على نهج الإسلام فى اعتداله بين الطرفين بدون إفراط أو تفريط ومن غير غلو ولا تقصير .. فإن الله سبحانه وتعالى يزيدهم هدى على هداهم ، قال سبحانه ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾[1] تلك حقيقة قرآنية لا يرتاب فيها امرؤ ومعه عقله فالمهتدون السائرون على الحق هم الذين يزيدهم الله هدى وبهم يشرق المجتمع الإسلامى بالمعانى النبيلة الفاضلة ، والذين لا تشدهم الحياة الدنيا ولا تجذبهم بزخارفها هم الذين فطنوا لدورهم فى الحياة ومهمتهم السامية فى المجتمع الإنسانى . ومن أجل ذلك فهم حريصون على أن يتمثلوا مبادىء الحق . وأن يرتادوا سبل الخير والإصلاح وهم بهذا كله جديرون بأن يمكن الله تعالى لهم فى الأرض ، وقد رسم القرآن الكريم صورة مشرقة، ووضح ركائز التمكين فى الأرض وهى تتركز فى المبادىء الآتية : —

أولا : توثيق الصلة بالله سبحانه وتعالى ، بالقيام بأداء أوامره واجتناب نواهيه ، وتطبيق ذلك إنما يتمثل فى القيام بالصلاة التى هى عنوان الطاعة لله سبحانه وتعالى، فالصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهى تكف صاحبها عن الفحشاء والمنكر كما قال الله تعالى﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[2] وهى الصلة الوثيقة بين العبد وخالقه الكبير المتعال .

ثانيا : ربط الصلة بالمجتمع ونشر وسائل التكافل الاجتماعى تأكيدا وتنمية للعلاقات الإنسانية الفاضلة بين الناس، وعلى قمة هذه العلاقات أداء الزكاة ..

ثالثا : المهمة الكبرى التى تتطلب الغيرة من كل مسلم على دينه ودعوة الغير إلى الرشد والخير بالحكمة والموعظة الحسنة، والعمل على نشر فضائل الإسلام ومبادئه عن طريق الدعوة إلى الله ومحاربة المنكر ومقاومة الشر والفساد أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر . قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[3]

---

(١) سورة مريم آية ٧٦ .
(٢) سورة العنكبوت آية ٤٥ .
(٣) سورة الحج آية ٤١ .

إن ركائز التمكين فى الأرض تعنى القيام بواجب الإنسان المسلم تجاه خالقه سبحانه وتعالى وتجاه نفسه ، وتجاه المجتمع الذى يعيش فيه ، فينبغى عليه أن يكون حريصا على نشر الفضائل ومقاومة المنكر .

كما يجب على كل مسلم أن يدرك أهمية الوقوف عند معالم الحق والخير بحيث لا يميل ولا يحيد ولا ينحرف يمنة أو يسرة .

كما يجب عليه الوقوف فى مواجهة التيارات المادية الجارفة التى تشكلت بأشكال مختلفة وتسمّتْ بأسماء متباينة، متخذة بعض المذاهب الفاسدة وبعض النظريات الوافدة مذهبا وطريقا ، وفى هذا تضييع للقيم وحرب للإسلام يجب الوقوف فى وجهها، وتلك التيارات من شيوعية وقاديانية وبهائية وغير ذلك من المذاهب الهدامة .

ومقاومة هذه التيارات الوافدة من أهم ركائز التمكين فى الأرض؛ لأنه باب واسع من أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى جعله الله سبحانه وتعالى من أهم دعائم خيرية هذه الأمة فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [١] .. ويقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» [٢] .

رد بعض الشبهات

وقد أثار أعداء الإسلام وخصومه بعض الشبهات يحاولون أن يتهموا الإسلام بأنه مادى وينقص الناحية الروحية فيه ، وهى بدون شك شبهة واهية لا أساس لها من الصحة، فإن التشريع الإسلامى جاء وافيا بحاجات البدن والروح، وبتنظيم الجانبين والاعتدال بينهما بلا إفراط أو تفريط ، ومن المعلوم أن الإنسان يتكون من عنصرين أحدهما مادى والآخر

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم .

روحى، وقد توسط الإسلام بين الطرفين ، والتوسط هو الفضيلة المثلى وقد وجه القرآن الكريم جميع المسلمين إلى مراعاة مطالب الدنيا والآخرة فقال سبحانه وتعالى : -

﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (١)

ونهى القرآن الكريم عن تحريم الطيبات حفاظا على جانب الاعتدال بين المادة والروح كما حرم الاعتداء ومجاوزة الحد فى ذلك ، بل على الإنسان أن يأكل ممارزقه الله من الحلال الطيب على أساس من التقوى والإيمان .

قال سبحانه وتعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾(٢) ويركز الإسلام بتوجيهه للمسلمين محذرا لهم أن تفرقهم الحياة الدنيا بماديتها ومباهجها وأن الأموال والأولاد فتنة، وعند الله عظيم الأجر للمخلصين فقال سبحانه﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (٤)

وقد وضح الإسلام أهمية طلب الآخرة وضرورة العمل لها ، فمن كانت الآخرة همه وعمل لها جمع الله له مايريد وجعله غنىّ النفس غنيًا بالإيمان وتأتيه الدنيا منقادة راغمة ، وأما الذى ينكبّ على المادة يجمعها ويجعل الدنيا همه فإن الله يجعل الفقر بين عينيه ، ومهما واصل التعب والكد فى سبيلها فإنه لا ينال منها إلا ماقدره الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة البقرة (٢٠٠ - ٢٠٢) .
(٢) سورة المائدة آية ٨٧ .
(٣) سورة الأنفال آية ٢٨ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٤ ، ١٥ .

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كانت نيّته الآخرة جمع الله له شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا راغمة ، ومن كانت نيته الدنيا فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ماكتب له» [1] . وحياة السلف حافلة بالإيثار والبذل والتضحية والمعروف حتى وإن ترتب على ذلك بذل كل مايمتلكون ، نعم، الإسلام دعا بالتوسط كما سبق .. قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [2] ولكن سلفنا الصالح فى نظرتهم الفاحصة يدركون قيمة ميراث الأبناء من بعد ... وخطورة المادة حين يقوى جانبها ويشتد، وحين يمسك الأبناء بها وينحرفون بسببها .

فمن الناس من يورث أبناءه أموالا طائلة وعقارات لا حصر لها ظنا منه أنه حين يفارق الحياة يفارقها وهو مطمئن عليهم من الفقر ، ولو أنه ورث أبناءه ثروة الإيمان والعمل الصالح والقيم الروحية والتهذيب الخلقى لكانوا أغنى بكثير وأعظم وأسعد من ميراث المال الذى ربما أفسدهم ومزقهم . ومن الناس من يورث أبناءه إيمانا صادقا وعملا صالحا وسلوكا قويما ، ولم يترك لهم من المال شيئا فإذا بثروة الإيمان والعمل الصالح تجعلهم أغنياء فى الدنيا وفى الآخرة .

وها هو ذا نموذج من السلف الصالح ، إنه الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، لقد قال له مسلمة بن عبد الله – رضى الله عنه عند مرض موته –: ياعمر لقد تركت أولادك لا شىء عندهم فيصبحون فقراء، وماكان هذا يقع منك ياعمر . فرد عليه قائلا: والله مامنعتهم حقا لهم ، فَبَنِيّ أحدُ رجُلَيْن ... إما رجل يتقى الله فسيجعل الله له، من كل ضيق مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . وإما رجل مُكِبٌّ على المعاصى فإنى لم أكن أقويه على معصية الله . إن الإسلام دعوة إلهية لسعادة البشر دنيا وآخرة، وفى قوانينه الرشيدة أمان للنفس والمال والعرض ، وفى ظل تعاليمه السمحة المضيئة تشرق حياة الناس بالخير والرشد والحق والسعادة. والله هو الهادى إلى سواء السبيل .

---

(١) رواه الطبرانى والبيهقى .

(٢) سورة الإسراء آية ٢٩ .

(٢٠)

ولاية المؤمنين بعضهم لبعض

الحمد لله رب العالمين ... حمدا يليق بجلاله وكماله، سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شىء قدير. نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره ، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، بيده مقاليد السموات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير. ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ رسالة ربه أعظم مايكون التبليغ ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه ، اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

ونحن نتابع أيها الإخوة المؤمنون قضية الإيمان ونتابع دلائل الإيمان فى المؤمنين استنتاجا واستخلاصا من آيات الذكر الحكيم وأحاديث النبى العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم نرى من سمات المؤمنين أن بعضهم أولياء بعض قال الله تعالى ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١) . ذلك هو الفوز العظيم الذى لا فوز بعده.

يشير رب العزة سبحانه وتعالى بعد أن ذكر سمات المؤمنين والمؤمنات وما أعد لهم فى الدنيا من رحمة وفى الآخرة من جنات يبين للمؤمنين أن ذلك هو الفوز العظيم ، الفوز

(١) سورة التوبة آية ٧١ ، ٧٢ .

الحقيقى الذى يفوز به الإنسان فى دنياه وأخراه ذلك هو الفوز العظيم لهؤلاء المؤمنين والمؤمنات إن هذه الآيات الكريمة وهى تطلعنا على سمات المؤمنين والمؤمنات وبعض دلائلهم، يأتى فى مقدمة هذه السمات وتلك الدلائل «والمؤمنون والمؤمنات. بعضهم أولياء بعض» إن هذه الولاية بين المؤمنين والمؤمنات ولاية حب ومودة بين كل واحد منهم والآخر، وبين بعضهم والبعض الآخر أفرادا وجماعات ، أمما وشعوبا ، بعضهم أولياء بعض بالتأييد وبعضهم أولياء بعض بالنصرة والدفاع ، وبعضهم أولياء بعض بالمحبة والتعاون على البر والتقوى، ففى الحديث يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [١] وفى حديث آخر يقول : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» [٢] إن الآية الكريمة وهى تبين أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، وإن الأحاديث الشريفة إذ تبين أنهم كالجسد الواحد يتضح لنا بذلك أهمية مابين المؤمنين من ولاية ، هذه الولاية التى بين المؤمنين بعضهم مع بعض تجعلهم أخوة فى الله وفى رسول الله صلى الله عيه وسلم، ولذلك تقول الآية القرآنية الأخرى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [٣]ودلالة الإيمان فى هذه الأخوة ، ولا تكون هذه الأخوة إلا بالإيمان فحيث وجدت فى نفسك أخوة تناديك من أجل أن تدفع عن أخيك المكروه ، وتناديك بالتيسير على معسر ، وتناديك لمحبة أخيك المسلم ، فاعلم أنك صادق الإيمان ، إنما المؤمنون إخوة. أما الذى لايشعر بهذه الأخوة فهوناقص الإيمان، فمن أولى سمات المؤمنين والمؤمنات أن بعضهم أولياء بعض يخف بعضهم لنجدة أخيه ، ويشعر أحدهم بشعور أخيه، ولا يتربص أحدهم بالآخر ولا يسىء أحدهم الظن فى أخيه، ولايحسده على خير آتاه الله إياه ولا يحمل فى قلبه بغضا ولاحقدا ولا كراهية لأخيه، هذا هو معنى بعضهم أولياء

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم ، وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم «اللفظ لمسلم» .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب المظالم باب نصر المظلوم وأخرجه مسلم فى كتاب البر باب تراحم المؤمنين .

(٣) سورة الحجرات آية ١٠ .

بعض ، تربطهم محبة خالصة لله تنتفى معها الشحناء والبغضاء والكراهية، تربط هذه الولاية قلوبهم برباط المحبة ، فيصبح كل منهم وليا حميما ، وصديقا مخلصا لأخيه المسلم ، مهما بعدت الديار ، ومهما اختلفت الأشكال والأجناس ، فإن أخوةالدم واللحم فانية ، وإن أخوة الروح والإيمان خالدة إلى يوم القيامة ، ولا يمكن أن تتأتى هذه المعانى إلا إذا نبعت من قلوب صافية ، لم يكدرها الحقد، من قلوب نقية ، لم يعكرها الغل ولا الحسد ، فإذا طهرت قلبك من الغل والحسد ومن الحقد والبغضاء والكراهية ، استشعرت أخوتك الإيمانية الصادقة التى تبيت معها حين تبيت وليس فى قلبك حقد ولا غل لإنسان ، آلم يكن الصحابى الجليل الذى بشره النبى صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة ثلاث مرات لا يفعل أكثر مما يفعله الناس ، لكنه حمل قلبا صافيا، فحين بشره النبى صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه يدخل عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة فيدخل هذا الرجل ويقولها ثانية فيدخل هو نفسه ، ويقولها ثالثة فيدخل هو نفسه فيذهب أحد أصحابه ليستطلع السر الذى من أجله بشره الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة ، وهو على ظهر الأرض بعد وليستطلع العمل الخفى الذى تقرب به إلى ربه ، وينزل عليه ضيفا ثلاث ليال ليرقب عمله، وليرصد تهجده، ونجواه فى السر بخالقه ، فما وجد الرجل يفعل أكثر ممايفعل سائر الناس حتى كاد يحتقر عمله ، ثم قال له وفاتحه قائلا له: ماكان لى حاجة فى أن أنزل ضيفا عليك غير أن نبى الله صلى الله عليه وسلم بشر بأنك من أهل الجنة ثلاث مرات فأردت أن أستطلع السر الذى تقربت به إلى ربك، وأن أقف على عملك بالليل ، فما وجدتك تفعل أكثر مما تفعل. فما السر فى كونه بشر بأنك من أهل الجنة ؟ قال : والله لا أفعل أكثر مما تفعلون ولا أصلى أكثر مما تصلون غير أنى أبيت حين أبيت وليس فى قلبى حقد على إنسان مسلم. صفاء القلوب أيها الإخوة المؤمنون به يكون المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. تتأتى هذه الأخوة بكل معانيها و بإيثارها وبمثالياتها التى نحتاج إليها اليوم فى عالم تشبث بالمادة ، وفى مجتمعات طحنتها المادية ،وفرقت جموعها وشتتت فصائلها، وحارب المسلم أخاه المسلم ووقف المسلم مكتوف الأيدى حين يرى أخاه يهان ، وماكان هذا يليق بإنسان مسلم ولا بجماعة مسلمة ولا بأمة مسلمة ، إن الإيمان الحقيقى يدفع أهله أن يكون بعضهم أولياء بعض. هذا هو الإيمان الحقيقى. والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء

بعض ، لم تقيد الآية ذلك بأمة معينة ، ولا بقرابة قريبة ، ولا بأرحام ، ولكنها جاءت مطلقة وعامة ، والمؤمنون و المؤمنات أياً كانوا وفى أى زمان وفى أى مكان، فإذا سمعت أمة مسلمة ببلد من المسلمين يقع تحت نير الاستعمار ويتعرض لإبادة من جحافل الشرك والطغيان ماكان لها أن تقف مكتوفة الأيدى، بل كان على المؤمنين أن يقدموا النجدة لإخوانهم ، بكل ما وسعهم، وأن يبذلوا كل مايستطيعون؛ لأن هذا واجب من واجبات هذه الأخوة الإيمانية ، «أولياء بعض» ثم يبين أن من سماتهم أيضا أنهم يقيمون الصلاة، وأنهم يؤتون الزكاة وأنهم يطيعون الله ورسوله ، وقد خص هذين الركنين دون غيرهما من الأركان وهاتين العبادتين دون غيرهما من العبادات لأنه أراد أن يشير بالعبادة الأولى وهى الصلاة إلى توثيق الصلة بينك وبين خالقك، والصلاة تطهير لما اعتراك من الذنوب وتنظيف لما دنسك من الأدران «إنكم تحترقون تحترقون» كما جاء فى الحديث أى بالذنوب والمعاصى ، «فإذا صليتم الفجر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها ... ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العصر غسلتها ثم تحترقون تحترقون ... فإذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ... فإذا صليتم العشاء غسلتها ،ثم تنامون فلا يكتب عليكم شيء حتى تستيقظوا»[1] فالصلاة علامة بارزة وسمة مهمة من سمات المجتمع الإيمانى ومن دلائل المؤمنين والمؤمنات ، لأنها تطهر الإنسان من أدرانه وتقربه من الله، وحيث توثقت صلتك بالله سبحانه لابد أن تكون صادق الإيمان، وكما توثق الصلة بالمجتمع الذى يعيش فيه الإنسان بالتكافل الاجتماعى بالكسب ، وبالإنفاق، بالسخاء ، والكرم ، وبإطعام الطعام والتعاون الدائم ، ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [2] ما أيسر أن تأتي إلى المسجد، وهذا عظيم ، وماأيسر أن تمسك السبحة وأن تسبح أو تكبر ، وأن تهلل ، آلاف المرات وهذا عظيم، وما أيسر أن تصلى، ولكن الدليل الصادق والبرهان الساطع على صدق إيمانك هو موقفك من المال إن كنت منفقا سخيا ، أو كنت شحيحا بخيلا ، ولذلك يقول سيدنا المصطفى

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن ابن مسعود رضى الله عنه .

(٢) سورة المائدة آية ٢ .

صلى الله عليه وسلم : «والصدقة برهان» لم يقل الصلاة برهان ولم يقل الصيام برهان ولم يقل الحج برهان ، وإنما قال «والصدقة برهان» برهان على صدق إيمانك ... ولذلك يقال إنها سميت صدقة من الصدق لأنها تصدق صاحبها فى إيمانه ... والطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ مابين السماوات والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[1] ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، فإنهم أسرع فى طاعة الله بما أمر وفى طاعة رسوله بما أمر وأسرع فى الانتهاء عما نهى عنه الله ، وعما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2]. وهذه الرحمة ليست فى الآخرة فحسب بل إن بعض المفسرين يقول : إنها الرحمة فى الدنيا قبل الآخرة، حيث يؤيد الله الفئة التى تقوم بهذا المنهاج القرآنى الذى رسمه للمؤمنين ، ويرحمهم الله فى الدنيا بتأييدهم ويرحمهم فى الدنيا بنصرهم على عدوهم ويرحمهم فى الدنيا بتذليل الصعاب لهم ويرحمهم فى الدنيا على هذا النحو، ويرحمهم فى الآخرة أضعافا مضاعفة فقد قال صلوات الله وسلامه عليه : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» [3] هذه الرحمة وعد من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء المؤمنين والمؤمنات حين يكون بعضهم أولياء بعض ، «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم » «وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة باب فضل الوضوء

(٢) سورة التوبة آية ٧١ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب جعل الله الرحمة فى مائة جزء ، وأخرجه مسلم فى كتاب التوبة باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه .

فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن، ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم» وهذا الرضوان العظيم الذى يمنحه الله تعالى، يقول بعض المفسرين إنه المراد فى قوله تعالى : فى سورة يونس : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [1] فالحسنى هى الجنة والزيادة هى الرضوان بالنظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة، ولذلك ورد فى الحديث الصحيح أن الله سبحانه وتعالى يقول لأهل الجنة بعد أن يدخلوا الجنة. ياأهل الجنة، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك ، فيقول رب العزة لهم : هل رضيتم؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول لهم رب العزة سبحانه وتعالى ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون: يارب وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيجيب رب العزة سبحانه قائلا : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا [2]. أو كما قال التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

---

(١) سورة يونس آية ٢٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

(٢١)

من علامات الإيمان
وسمات المتقين
﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾

الحمد لله رب العالمين ، حمد المؤمنين الشاكرين .. الصادقين المتقين ، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره، ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده مقاليد السموات والأرض وهو على كل شيء قدير. ونشهد أن سيدنا محمدا عبده وسوله وصفيه وخليله، بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وكشف الغمة ، وهدى إلى صراط ربه المستقيم، اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ...

أمـا بعـد...

فيا جماعة المسلمين، ونحن نتابع قضية الإيمان .. قضية العقيدة الإسلامية فى أركانها ومقوماتها فى عناصرها ومكملاتها ، نرى القرآن الكريم يوجهنا إلى الإيمان ليس نطقا باللسان فحسب، وليس تصديقا بالقلب فقط، ولكن الإيمان هو تصديق بالجنان ، ونطق باللسان ، وعمل بالأركان. ولابد أن يكون الإنسان فى حياته سواءً لا يختلف فى زمـان عنه فى زمـان آخر ، ولا يختلف فى حـال عنه فى حـال آخر ، بل لابد أن يكون فى كل الأحوال سواء ، لأن الإنسان المؤمن يظل على إيمانه لا تزعزعه رياح الفتن ولا تغيره أعاصير الحياة، فيبقى ثابتا على إيمانه لا يتزعزع ، ولا تغيره الحياة إن جاءت بالسراء ولا تغيره إن جاءت بالضراء، لا السرور يجعله فى بطر ، ولا الحزن يجعله فى يأس أو قنوط ، ومن أجل

ذلك فحين أمر الله تعالى عباده بالإيمان وتقوى الله وجههم أن يسارعوا وأن يبادروا وأن لا يسوفوا فى أداء العمل الصالح فأمرهم قائلا : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ (١) إنه يأمرهم أن يسارعوا وهم فى الدنيا إلى مغفرة وإلى جنة ويصفها لهم ويبشرهم بها قبل أن يبين لهم ما يجب عليهم أن يؤدوه وما ينبغى عليهم أن يتسموا به. يأمرهم أن يسارعوا ، بماذا المسارعة ، ربما تكون السرعة فى أمور أخرى غير مطلوبة ، وربما يكون فى العجلة الندامة فى أمور الدنيا، أما فى أمور الخير والطاعة فيجب علينا أن نسرع بها وأن نبادر وألا نسوف لأنه لا يعلم الأجل إلاّ علام الغيوب سبحانه وتعالى ، ومن أجل هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ويل للعرب من شر قد اقترب فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا يبيع قوم دينهم بعرض من الدنيا قليل المستمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر» (٢) فيأمر صلى الله عليه وسلم أمته أن تبادر بالطاعة ... لابد من المبادرة بادروا بالأعمال ، والقرآن يقول «وسارعوا» والمسارعة هنا إلى الجنة التى أمر الله بها ، وإلى المغفرة. والجنة ليست فى الدنيا – وإنما فى الآخرة، وبعد أن يقوم الناس لرب العالمين ، فالمطلوب المسارعة إلى الأعمال التى تؤدى إلى الجنة وتؤدى إلى مغفرة الله ورضوان الله سبحانه وتعالى ، ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ ثم يأخذ فى وصف هؤلاء المؤمنين المتقين الذين يتشكل منهم المجتمع الإسلامى، والذين تصاغ بهم الحياة الإسلامية المثالية النقية ، ويأتى فى أول سمات هذا المجتمع المثالى المؤمن التقى «الذين ينفقون فى السراء والضراء» ، فى حال السرور وفى حال الضر لا السرور يجعلهم فى بطر ، ولا الضر أو الشدّة تجعلهم فى يأس أو قنوط. هم فى الحالين سواء. ويبرهن الإنسان على صدق إيمانه بالإنفاق لأن الإنفاق من المال دليل على صدق الإيمان ، الذين ينفقون فى السراء والضراء ، وربما يكون إنفاقك فى وقت الفرح والسرور شيئاً ميسوراً ، حين تنفق على الناس وتعلن عن فرحك ، وتدعو الناس إلى طعام أو

(١) سورة آل عمران آية ١٣٣ .

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل ٢/٣٩٠ .

ما إلى ذلك لأنك مسرور ونزلت بك نعمة، أما حين يكون العكس ، حين تكون محزوناً ونزل بك ضر فقد لا تفكر في الإنفاق ، لكن المؤمن الصادق لا يختلف فى حال الضر والحزن عنه في حال السرور والنعمة ، ويبرهن على صدق إيمانه بالإنفاق فى السراء والضراء ولذا يقول الرسول صلى الله على وسلم : «والصدقة برهان»[1] أى دليل دال على صدق إيمان صاحبها – وإذا كانت السمة الأولى لمجتمع الإيمان والتقوى أنهم فى كل أحوالهم سواء. وأن علاقتهم بمجتمعهم الذى يعيشون فيه علاقة تكافل اجتماعى ، ونبل وإنفاق ، فإن السمة الثانية تأتى بالجانب النفسى لتعالج ما يعتور النفس الإنسانية من قصور حين تستفزها بعض المواقف، وحين يستثير النفس الإنسانية سبب ما .. من الأسباب .. فمن الناس من يقابل السيئة بمثلها، ومن الناس من يكظم الغيظ فى صدره فلا يقابل السيئة بمثلها، وهنا تتجلى السمة الثانية، فبعد أن كانت السمة الأولى تعنى التكافل الاجتماعى بين أفراد المجتمع المؤمن التقى «الذين ينفقون فى السراء والضراء» تأتى السمة الثانية بقوله تعالى: «والكاظمين الغيظ» أى الذين يكظمون غيظ صدورهم فلا يتنفسون به، ولا يقابلون السيئة بمثلها، ولطالما علم الرسول صلى الله عليه وسلم الرعيل الأول هذا الخلق النبيل، ألا يقابل أحدهم السيئة بمثلها، ولطالما تنزلت آيات الذكر الحكيم تحض المؤمنين على ذلك ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[2] إنك تغيره من عدو لدود إلى صديق حميم – بماذا ؟ بأن تكظم الغيظ وتقابل السيئة بالحسنة لقد قيل لأحد الحكماء وقد تصرف فى عفو وصفح وتسامح مع خصوم له كانوا ذوى كيد مزعج، وكانوا ذوى عدوان صارخ ، وقيل له : كيف تسامحت مع هؤلاء الأعداء ؟ وكانوا يتربصون بك الدوائر ؟

كيف إذا تمكنت منهم أن تصفح عنهم ؟ أجاب الحكيم قائلا: – « وهل فعلت غير هذا .. لقد أجهزت عليهم كأعداء حين حولتهم إلى أصدقاء» بفضل العفو والتسامح.

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة باب فضل الوضوء .

(٢) سورة فصلت آية ٣٤ .

والقرآن يعالج هذه القضية ﴿ ولا تستوى الحسنة و لاالسيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ جرب ذلك وقابل السيئة بالحسنة ولا تقابل السيئة بمثلها وانظر ماذا تكون العاقبة ؟ سيتغير الذى يبغضك ويكرهك إلى صديق حميم. وقد كان صلى الله عليه وسلم يطبق ذلك عمليا مع أصحابه ويرونه وهو يعامل أعداءه الذين يناصبونه العداء ، بالصفح والتسامح، ووعوا ذلك وهو يطبقه فيهم أعظم تطبيق حتى إن أبا بكر لما اعتدى عليه رجل ثلاث مرات فى مجلس المصطفى صلى الله عليه وسلم وأراد أبو بكر فى المرة الثالثة أن يرد على الرجل ليسكت شره انتفض الرسول صلى الله عليه وسلم خارجا من المجلس ولحق به أبو بكر وقال له : يارسول الله كان يشتمنى وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر معلما وموجها : ياأبا بكر إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان [1] »

﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ وقد يكظم الإنسان غيظه ولا يقابل السيئة بمثلها ولكن يظل فى نفسه شيء من هذا الإنسان الذى نال منه ، أو الذى فعل مايغضبه ، أو الذى جرح شعوره . هو لم يفعل شيئا سوى كظم الغيظ ، ولكنه يظل فى قلبه شيء فلا يصفح عنه ، فتأتى السمة الثانية .. تقول ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ والعفو هنا سمة عليا ودرجة أرقى ولذلك كان أئمتنا الأجلاء وأحد سلفنا الصالح الإمام المجدد الولى الإمام الفضيل بن عياض رضى الله عنه واحد من أئمة الحديث النبوى، كان إذا اعتدى عليه أحد ونال منه وجرح شعوره ، رفع كفيه إلى السماء وقال : اللـهم إن كان صادقا فيما رمانى به فاغفر لى، وإن كان كاذبا فيما رمانى به فاغفر له . انظروا يدعو لمن نال منه أن يغفر الله له حتى ولو كان قد جرحه كذبا وبهتانا، إنه الصفح الذى بلغ الذروة والذى لم يقف عند حد أن يتسامح مع من نال منه فقط ، بل أن يدعو الله أن يغفر له هذا الذنب لأن قلبه الذى تدفق إيمانا ومحبة لعباد الله يأبى عليه أن يقع أخوه فى كرب حتى وإن كان مخطئا، عسى الله أن يتوب عليه، أليس فى ذلك اقتداء بسيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم عندما جاءه

(١) أخرجه أحمد بن حنبل ٤٣٦/٢ .

الملك وقال : إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، قال «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» [1] فيقول الملك : صدق من سماك الرؤوف الرحيم ، نعم إن هذا العفو عمن ظلمك سمة أعلى من كظم الغيظ، وقد تكظم الغيظ وهذا حسن ، وأحسن منه أن تعفو عمن أساء إليك، وقد تعفو عمن أساء إليك وهذا حسن، وأحسن منه وأفضل أن تحسن إلى من أساء إليك، ولذلك روى أن بعض السلف لما نال منه غلامه ورأى العقوبة فى عينيه قال : أذكرك ياسيدى بقول الله تعالى «الكاظمين الغيظ» فقال الرجل : كظمت غيظى ، فقال الغلام إن الله قال بعدها «والعافين عن الناس» قال سيده : عفوت عنك ، فقال الغلام إن الله قال بعدها ، «والله يحب المحسنين» قال السيد: أحسنت إليك .. اذهب فأنت حر لوجه الله ، والله يحب المحسنين، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، إن سمات المجتمع المؤمن كما تناولت جانب التكافل الاجتماعى فى علاقات الناس الإنسانية فيما بينهم إنفاقا فى السراء والضراء ، وكما تناولت الجانب النفسى فى العلاقات الاجتماعية بين الناس كظما للغيظ ، وعفوا عمن أساء وإحسانا إلى من ظلم ... تتناول وتوثق علاقة الخلق بخالقهم سبحانه وتعالى حين تزل الأقدام ، وحين تتوحل القدم فى المعصية وحين يعلم الإنسان أن لا غافر للذنب إلا الغفار القهار الذى سمى نفسه الرحمن الرحيم ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [2]

وكأنى بهذه الآية الكريمة وهى تذكر شروط التوبة من الندم على مافات ، والعزم على عدم العود، وألا يصر على الذنب ، وأن يقلع عن المعصية ثم بعد ذلك أن يرد المظالم كما ورد فى بعض المواطن الأخرى ، وحين تستكمل هذه الشروط للتوبة فإن الله تعالى

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الحلق باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ماتقدم من ذنبه .

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٥ ، ١٣٦ .

يقبل توبة عباده ويحب عبادة التوابين ، ويحب عباده المتطهرين، ويحب من عبده المؤمن ، أن يقبل عليه وأن يتوب من ذنبه ، إذا استغفرت الله وتبت إليه ودعوته وأنت موقن بالإجابة ، فاعلم أن ربك غفار للذنوب وستار للعيوب، غافر الذنب وقابل التوب، إنه الرحمن الرحيم ، إنه الذى يمد يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويمد يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها .

إن الإنسان المؤمن التقى يجدد عهده مع ربه كل يوم فيتوب إلى الله، وكان قدوتنا فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال : «يأيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة» [1] وفى رواية أخرى قال : «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوب أكثر من سبعين مرة » [2].

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات استغفار النبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم والليلة .

(٢٢)

من أهم سمات المؤمنين
« الصدق »

الحمد لله رب العالمين ، حمد المؤمنين الصادقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة نقر فيها بربوبيته، ونوقن معها بعظمته ووحدانيته ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله إمام المرسلين ، وقدوة المتقين الصادقين ، اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، الذين صدقو ما عاهدوا الله عليه ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

أيها الإخوة المؤمنون، ونحن نتابع معا سلسلة أحاديثنا عن قضية الإيمان بعد أن تناولنا أركان الإيمان ومقوماته ندلف إلى شعب الإيمان التى لا يكتمل بدونها ، فلا يتم يقينك وإيمانك بالله وبالرسول إلا بها ... وهذه الشعب كثيرة لابد من الوقوف عليها ومن الاقتراب منها ، حتى نُكَوِّن شخصيتنا على أساس من شعب الإيمان فبالإيمان تقوى الأمة وينهض المجتمع، ولكن الإيمان ليس أن تنطق بالشهادتين فحسب ولكن الإيمان، إلى جانب الإقرار باللسان فهو تصديق بالقلب وعمل بالأركان وهناك شعب للإيمان كثيرة ، والمؤمنون الصادقون المتقون هم الذين يجمعون هذه الشعب ، حتى يكونوا صادقين متقين ، ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ

ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (١) والصادقون حقا هم المؤمنون حقا ، ولذلك ينادى رب العزة سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز عباده المؤمنين، ويأمرهم بتقوى الله ويحذرهم أن يسيروا فى ركاب الكاذبين، ويأمرهم أن يكونوا مع الصادقين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (٢) فيأمرنا سبحانه وتعالى أن نكون مع الصادقين لا أن نحقق الصدق فى أنفسنا فحسب، فتحقيق الصدق فى أنفسنا قضية مفروغ منها، ولابد للمؤمن أن يكون صادقا وإنما يأمرك إلى جانب ذلك أن يكون تعاملك وأن تكون معيتك مع الصادقين، لا مع الكاذبين ، أما كونك صادقا، فهذا أمر لابد منه، فإن لم تكن صادقا فابحث عن حقيقة إيمانك لأن إيمانك لم يتم بعد ، لماذا لم يتم إيمان غير الصادقين ؟

لأن سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول «يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب (٣) » أى أنه من الممكن أن يطبع إنسان على بعض الخلال ، أو أن يقع فى ذنب من الذنوب لكن المؤمن لا يمكن أن يكون خائنا «لاإيمان لمن لاأمانة له ولادين لمن لاعهد له (٤) » لايمكن أن يكون المؤمن خائنا، ولا يمكن أن يكون المؤمن كاذبا ، يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب ، ولما سئل سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم وقيل : يارسول الله أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم، قيل له ، أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال: نعم ، ثم قيل: أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا » (٥) . ومعنى هذا ، أن الإنسان قد يكون فيه جبن وقد يكون فيه بخل أو شح، وهاتان رذيلتان يمكن أن يتغلب عليهما ، وأن ينيب إلى ربه وأن يتوب، لكن لما سئل أيكون كذابا ؟ نفى وقال : لا يمكن أن يكون المؤمن كذابا .. لماذا ؟ لأن الكذب يتنافى مع الصدق، والإيمان تصديق فكيف

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٢) سورة التوبة آية ١١٩ .

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل ٢٥٢/٥ عن أبى امامة رضى الله عنه .

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل ١٥٤/٣ .

(٥) أخرجه مالك فى كتاب الكلام باب ماجاء فى الصدق والكذب .

يجتمع التصديق والكذب ؟ ومن هنا كانت فضيلة الصدق ... الفضيلة الأم والشعبة المهمة من شعب الإيمان التى دعانا إليها ديننا الحنيف، ووضح أن إيماننا لايكتمل إلا بها ، وأن الصدق إذا كان علامة من علامات المؤمنين فإن ضده الكذب وهو علامة من علامات المنافقين . قال صلى الله عليه وسلم : «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان [1]» ولذلك لايكون المؤمن كذلك ، والصدق ليس فى الأقوال فحسب ، ولكنه كما يكون فى القول يكون فى الفعل ، فالإنسان الذى يصدق فى قوله وحديثه لابد أن يصدق فى فعله ، فالصادق فى قوله مع الناس ومع رب الناس ومع نفسه لابد أن يكون صادقا فى عمله ،فإذا أدى عملا أتقنه، وإذا قام بعمل راقب الله فيه، وإذا راقب الله فى عمله كان صادقا فى هذا العمل مع نفسه ومع ربه ومع المجتمع الذى يعيش فيه، فالصدق كما هو فى الأقوال، يكون أيضا فى الأعمال وفى الأفعال ، وكما يكون الصدق فى الأقوال والأعمال يكون أيضا فى النية ، فلابد أن تكون نيتنا صادقة فلو حدثتنى بحديث هو صدق ، لكن نيتك تخالف ماحدثتنى به ، فلا تعتبر صادقا فى قولك ، بل لابد أن تطابق نيتك قولك وماانعقد عليه قلبك، ومن أجل ذلك ، لما قال المنافقون لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك لرسول الله ، اعتبر الله تعالى قولهم هذا كذبا وليس صدقا ، مع أنه حقا رسول الله ، ولكن هذا القول كان بمجرد ألسنتهم فقط، ولم تصدق قلوبهم به ولم تنعقد نيتهم على شهادة أنه رسول الله فاعتبروا غير صادقين فلما قالوا ذلك ، قال الله تعالى ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ [2] انظروا إنهم يقولون كلمة فى ظاهرها صدق ويقولون إنه رسول الله وهو حقا رسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله، ولكن حكم القرآن عليهم وقال ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ، إذ لو كانوا صادقين لآمنوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا رسولا ، ومن أجل ذلك حكم عليهم بأنهم كاذبون ، فلابد أن نكون صادقين فى أقوالنا التى نحدث بها الناس، ولابد أن نكون صادقين فيما نمارسه من أعمال وسلوك فى

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب علامة المنافق .

(٢) سورة المنافقون آية ١ .

المجتمع ومعاملات مع الناس ، فمن كان زارعا أو تاجراً أو صانعاً لابد أن يكون صادقا فى هذا العمل ، تصوروا الطامة الكبرى عندما يكذب أحد القائمين بعمل من أعمال الحياة الهامة، كمن يبنى منزلا ، أو يصنع دواء فيبنى عمارة وفيها غش وتزوير فى مواد البناء فتنهار ، بعد قليل أو كثير، ويكون ضحاياها بلا حساب ، تصوروا لو كان الكذب فى صناعة الدواء أو أى عمل من الأعمال أو أية ظاهرة من ظواهر الحضارة الحديثة ، كيف تكون العاقبة فيما لوكذب فى عمله ، إذن : الصدق كما هو مطلوب فى القول مطلوب فى العمل ، وكما هو مطلوب فى العمل مطلوب فى النية ، لأن النية تدفع صاحبها إلى إخلاصه فى العمل وإجادته وإحسانه وإتقانه ، وكما يكون فى القول والفعل والنية يكون أيضا فى الوعد الذى تعد به صاحبك قال تعالى موضحا مكانة سيدنا إسماعيل عليه السلام ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ (١)

وقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من مواقف الصدق فى الوعد وكيف صدق الله وعده لأنبيائه ورسله ، وكيف تحلى رسله وهم النماذج الأولى فى البشرية بشعبة الصدق التى هى من أسس الإيمان ومن شعبه الأصيلة ، إن واجبنا أن نشيع الصدق فى حياتنا كلها ، فى أقوالنا وأفعالنا ونيتنا ، ومانعاهد به الآخرين، فإذا تم هذا المنهاج على هذا النحو كنا صادقين فى إيماننا ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (٢) ومن أجل هذا نرى أن الإسلام عنى بهذه الفضيلة منذ اللحظات الأولى لحياة الإنسان ، علينا أن نطبق هذه الفضيلة فى أنفسنا، وفى بيوتنا وفى أسرنا وفى أبنائنا وأطفالنا وأحفادنا .. كيف ؟ أنقول للطفل الصغير تعلم هذه الفضيلة ؟ قد لا يفهم الكلام ، قد لا يدرك خطورة المنهاج الذى ترسمه له بحديثك ، لكنك يمكنك أن تعلم طفلك أو حفيدك أو أبناءك هذه الشعبة ، وهى الصدق ، ويمكنك أن تنشئهم عليها بسلوكك ، وبقدوتك، فالرجل والمرأة فى البيت مسئولان عن إشاعة هذه الفضيلة ، وللأم أكبر الأثر فى ذلك لأنها تقضى مع الأبناء ومع الأطفال بالذات

---

(١) سورة مريم آية ٥٤ .

(٢) سورة البقرة آية ١٧٧ .

أكبر الوقت، فتكون أقدر على غرس الصدق فيهم منذ نعومة أظفارهم فيشبون ويكبرون عليها ويتحلون بها، أما إذا رأى الابن أمه مثلا تكذب عليه ورأى أباه يكذب عليه أو مع الناس فحين يسأل أحد الناس عنه يقول لابنه : قل لهم إنى غير موجود أو أننى نائم ، وهو غير نائم وهكذا ، فيكون قد كذب على الرجل وعود ابنه وأسرته وأطفاله وأهل بيته على الكذب فيتعودون على الكذب ، فلابد أن نتحرى الصدق فى أقوالنا ، وأفعالنا ، ونتجنب الكذب فى كل حياتنا ومع أطفالنا بالذات، فلو قلت لابنك أو وعدته مثلا بشىء ولم تف له بماوعدته كنت كاذبا والله يحاسبك على هذا بأنك كاذب، ويكتبها كذبة وسيئة عليك، وقد روى الإمام أبو داود فى سننه من حديث عبد الله بن عامر رضى الله تعالى عنه يرويه وهو صغير السن يقول «دعتنى أمى يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد فى بيتنا ، فقالت : تعال أعطك، فالأم كثيرا ماتأمر ابنها الطفل وتوجهه فلا يستجيب، والأبناء أحيانا بدافع التدليل أو بدافع حنان الأمهات قد لا يستجيبون ولا يطيعون الأم ، فتحاول الأم أن تجذب ابنها فتعده بهدية أو بشىء حلو مثلا ،وقد يأتى بالفعل إذا كلفته به ، ولا تكون وفية فى إعطائه ماوعدته به ، حتى فى هذه تعتبر سيئة، وكذبة ويحاسب الله هذه الأم على ما وعدت به طفلها ولم تف به فإنها تعوده الكذب منذ نعومة أظفاره ولذا يقول عبد الله بن عامر :

دعتنى أمى يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد فى بيتنا فقالت : تعال أعطك، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم وقال : وماأردت أن تعطيه ؟ قالت: أعطيه تمرا ، فقال : أما إنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة» (١) ، يكتبها الله على الأم كذبة على طفلها الصغير ؟ لماذا ؟ لأنها بهذا تغرس فى طفلها منذ اللحظة الأولى رذيلة الكذب فيتعوّد عليها ويستهين بفضيلة الصدق ، فلا يتعود الصدق بعد ذلك ، من أجل ذلك كان لهذه الشعبة أثرها العظيم فى حياتنا، ومن أجل ذلك كان للصدق درجته العليا فى الكمال المطلق لله تعالى وحده، حيث يبين لنا أن الصدق فى جانبه هو فى الكمال المطلق الأعلى فإذا وعد فإنه يقول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ (٢) وإذا عاهد رسله ، فإنه يقول

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب التشديد فى الكذب ، وأخرجه أحمد بن حنبل ٤٤٧/٣ .

(٢) سورة آل عمران آية ٩ .

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾[1] كما وصف الرسل صلى الله عليهم جميعا بالصدق، وكان خاتمهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق الصادقين حتى عرف منذ صغره بالصادق الأمين. مما جعل أعداءه ومن لايؤمنون به يشهدون له بالصدق، فحين قال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ماجربنا عليك كذبا قط ، لأنه الصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهو لقدوته بأمته الأسوة العليا فى الصدق مما جعلهم يصدقونه فى كل شىء حتى وإن لم يروه بأعينهم، وحمل إليهم نبأ عنه صدقوه وإن لم يروه بأعينهم فالصديق أبو بكر رضى الله عنه عندما سأله المشركون ليلة الإسراء : انظر ماذا يقول صاحبك ، قال: ومايقول ؟ يقولون إنه ادعى أنه أسرى وعرج به فى ليلة واحدة وعاد من عند ربه إلينا. فماذا قال أبو بكر؟ هل قال لا أصدقه حتى أسمع بأذنى منه. لا، هل قال: أنظرونى حتى أراه ؟ لا وإنما قال : إن كان قال فقد صدق ، إنى أصدقه فى أبعد من ذلك، فى خبر السماء يأتيه فى لحظة. ومن يومها لقب أبو بكر رضى الله عنه بالصديق ، ولقد وعى صحابته رضوان الله تعالى عليهم هذه الدرجة العليا فى صدقه صلى الله عليه وسلم فحيث صدقه الله ، وحيث صدقوه فإن كل ما يعبر به ويحدث به يصدقونه ولا يكذبونه: فشر الكذب أيضا ماكان تكذيبا لما قال حيث جاء فى الحديث الصحيح «من كذب على متعمدا فليتبوا مقعده من النار »[2] ولأن الله صدقه فلا يصح أن نكذبه ولا يصح أيضا أن نكذب عليه ولا أن يدخل أحد أحاديث ليست من أحاديثه فى أحاديثه فقد صان سنته عن هذا الدخيل حين قال: من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» وقال : من يقل على مالم أقل فليتبوأ مقعده من النار[3] . ولذلك لما اختلف صلى الله عليه وسلم مع أحد الأعراب فى شراء فرس وكان قد اتفق على شرائه من الرجل وذهب

---

(١) سورة الأنبياء آية ٩ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب العلم باب إثم من كذب على النبى صلى الله عليه وسلم وأخرجه مسلم فى المقدمة باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب العلم باب إثم من كذب على النبى صلى الله عليه وسلم .

يسرع فى خطاه صلى الله عليه وسلم ، ليأتى الرجل بثمن بعيره ، والأعرابى كان متباطئا يكلم هذا وذاك بعد أن باع ، والبيع على بيع إنسان حرام كما جاء فى الحديث : «ولا يبيع بعضكم على بيع أخيه» (١) حتى إذا ماوقف الرجل فى مساومة تزيده بمال أكثر وطفق الرجال يتعرضون للأعرابى فيسومونه بالفرس، وهم لا يشعرون أن النبى صلى الله عليه وسلم ابتاعه حتى زاد بعضهم فى السوم على ما ابتاعه به منه فنادى الأعرابى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن كنت مبتاعا هذا الفرس وإلا بعته، فقام النبى صلى الله عليه وسلم حين سمع نداءه فقال : أليس قد ابتعته منك قال : والله ما بعتكه فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد ابتعته منك. فطفق الناس يلوذون بالنبى صلى الله عليه وسلم وبالأعرابى وهما يتراجعان وطفق الأعرابى يقول. هلم شاهدا يشهد أنى قد بعتكه. قال خزيمة بن ثابت «أنا أشهد أنك قد بعته» فأقبل النبى صلى الله عليه وسلم على خزيمة وقال بم تشهد ؟ قال : بتصديقك يارسول الله، قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمة شهادة رجلين (٢) .

فالصدق في كماله المطلق مع رب العزة سبحانه وتعالى، والصدق فى جانب القدوة والأسوة فى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصدق فى جانب المتقين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾(٣) والصدق استجابة لأمر الله أن نكون مع الصادقين؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (٤) على هذا النحو ندرك أهمية هذه الشعبة الكبرى من شُعب الإيمان التى تقوم عليها أسس حياتنا ومعاملاتنا وبيعنا وشرائنا، وكل

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع باب لايبيع على بيع أخيه ولايسوم على سوم أخيه حتى يأذن له أو يترك .

(٢) أخرجه النسائى فى كتاب البيوع باب التسهيل فى ترك الإشهاد على البيع .

(٣) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٤) سورة التوبة آية ١١٩ .

الحقوق التي تجري بين المسلمين فى مجتمعاتهم، من أجل ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (البيعان بالخيار مالم يتفرقا فإن صدقا وبيّنا بُورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما) [1].

هذه ثمرة من ثمرات الصدق، حين تكون بائعا أو مشتريا وتصدق يبارك الله لك فى بيعك وإن كان الرزق قليلا يبارك الله فيه، فإن صدقا وبينا بُورك لهما فى بيعهما، هذه ثمرة من ثمرات الصدق، ومن ثمرات الصدق أيضاً: طمأنينة الناس للإنسان الصادق إذا كان بائعاً أو مشترياً فقد قال صلى الله عليه وسلم «دع ما يريبك إلي مالا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة» [2] أو كما قال التائب من الذنب كمن لا ذنب له، ادعوا الله يستجب لكم ...

(١) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع باب إذا كان البائع بالخيار هل يجوز البيع ؟ وأخرجه مسلم فى كتاب البيوع باب ثبوت خيار المجلس للمتابعين «اللفظ المسلم» .

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن حبان .

(٢٣)

طلائع الهجرة

الحمد لله رب العالمين. نحمده سبحانه وتعالى ونشكره. له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شئ قدير.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، بيده مقاليد السماوات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شئ قدير.

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله، بعثه الله سبحانه وتعالى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وهدى إلى صراط ربه المستقيم.

اللــهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين ساروا على منهاجه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد.. فياجماعة المسلمين.

من أهم الأحداث العظيمة فى تاريخ الإسلام والمسلمين حادث الهجرة النبوية الذى يبدأ الحديث عنه كلما ابتدأ شهر الله المحرم.

وإنما كان الابتداء بشهر الله المحرم لأن أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه عندما بعث إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قائلا له: تأتينا كتب من عندك غير مؤرخة فأرخ لنا الكتب فأراد أن يتخذ مبدءا للتاريخ ، وماكان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ليقترح أو ليلزم الأمة بأمر يراه هو وحده أو ينفرد هو وحده به ، وإنما يطبق مبدأ الشورى الذى علمه وطبقه وأخذهم به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجمع سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الصحابة ليستشيرهم فى بداية التاريخ وبأى حدث من

أحداث الإسلام يؤرخ، واستمع إلى آرائهم، فكان من الآراء من يرى أن يؤرخوا بتاريخ الروم، ومنهم من رأى أن يؤرخوا بتاريخ فارس ، ومنهم من رأى أن يؤرخوا بحادث المبعث النبوى ، ومنهم من رأى أن يؤرخوا بحادث الهجرة ، فاستقر الوضع على الهجرة وقال : فلنؤرخ بالهجرة النبوية لأنها فرقت بين الحق والباطل .

وكان بداية التاريخ بها من شهر الله المحرم حيث بدأ العزم والتصميم على الهجرة منذ هذا الشهر، وبعد بيعتى العقبة ، كان العزم والتصميم فى شهر الله المحرم، ولذا كانت بداية التاريخ الهجرى بشهر الله المحرم .

وشهر الله المحرم أيها الإخوة المؤمنون هو من الأشهر الحرم ، والأشهر الحرم هى : ذوالقعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . والأشهر الحرم يستحب الصوم فيها ، فقد ندب إلى الصوم فى بعض أيامها سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، فعندما جاءه الرجل الباهلى وذكره نفسه وقال له: ألست تعرفنى أنا الباهلى الذى جئتك عام الأول . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم وقد رآه نحيلا نحيفا ضعيفا ، فما غيرك وقد كنت حسن الهيئة ؟ فقال له: منذ فارقتك لم أطعم طعاما ولم أشرب شرابا إلا بليل -- أى أنه يظل صائما - فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لم عذبت نفسك؟ ثم قال : صم شهر الصبر ويوما من كل شهر . فقال يارسول الله زدنى فإن بى قوة قال : صم يومين . قال الرجل: يارسول الله فإن بى قوة ، قال صم ثلاثة أيام - ومعلوم أن هناك الأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر عربى وتسمى الأيام البيض وصيامها سنة ومستحب - فقال الرجل: يارسول الله ، زدنى فإن بى قوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : صم من الحرم واترك صم من الحرم واترك صم من الحرم واترك [1] .

والمقصود بقوله صلى الله عليه وسلم : صم من الحرم واترك، أى صم من الأشهر الحرم ماتستطيع وأفطر منها أيضا فلا تصمها كلها ، صم بعضها ماتستطيع ، وأفطر حتى لاتكون صائما الأشهر الحرم كلها. فقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم كما جاء فى

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الصوم باب فى صوم أشهر الحرم .

الحديث عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم [١] .أى أن الإنسان يصوم تقربا إلى الله ويفطر تقوية لبدنه واستجماما لعافيته ليستطيع مواصلة العبادة .

والشاهد أن للأشهر الحرم فضيلة، وأن شهر الله المحرم هو واحد من هذه الأشهر المباركة التى حرم الله تعالى فيها القتال. وابتدأ التاريخ الهجرى منه حيث بدأ العزم والتصميم على الهجرة، وكان قد سبق الهجرة النبوية بيعتان هما بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، إذ أن النبى صلى الله عليه وسلم منذ جاءه الأمر الإلهى أن يصدع بأمر الله وأن يجهر بالدعوة أخذ يلتقى بالوفود فى مواسم الحج، وكان هذا اللقاء مع ستة نفر التقى بهم من الأوس والخزرج فرحوا بلقائه واستقبلوا دعوته استقبال الظمآن للماء البارد، وقالوا : إن بين قومنا وبين إخوانهم من العداوة مابينهم فلعل الله تعالى يطفئ نار الحروب التى اشتعلت بينهم ، وكانت بين الأوس والخزرج حروب وخصومات وآمنوا وأسلموا واتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ورجعوا إلى المدينة – التى كانت تسمى آنئذ يثرب – فنشروا دين الله فى أرجائها وجاءوه فى العام الآخر وأصبح العدد اثنى عشر رجلا وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يعبدوا الله وحده وأن لا يشركوا به شيئا وأن لا يعصوا فى معروف وأن لا يسرقوا وأن لا يزنوا وأن لا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم . فعلى هذا بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم كما جاء فى الحديث : بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولاتقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه [٢] .

---

(١) رواه البخارى فى الصيام ومسلم فى الصوم .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب علامة الإيمان حب الأنصار ، وأخرجه مسلم فى كتاب الحدود باب الحدود وكفارات لأهلها .

ولما بايعهم صلى الله عليه وسلم على ذلك أرسل معهم مصعب بن عمير رضى الله عنه فنشر دين الله فى أرجاء المدينة ، وجاءوا فى العام الذى بعده أكثر من سبعين رجلا، فبايعوه صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة وعلى أن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم فكان هؤلاء جميعا طلائع الهجرة ومقدماتها إلى أن شاء الله تعالى أن يأذن لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين بالهجرة، بيد أن الحديث عنها لم يكن بادئا منذ ذلك الحين وإنما كان الحديث عن الهجرة منذ أول لحظة نزلت فيها أول آية بالوحى الإلهى على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ كان معتكفا فى غار حراء ، ونزل عليه الوحى « اقرأ » وهو يقول ما أنا بقارئ - ثلاث مرات إلى أن قال له جبريل عليه السلام : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [(١)] وعاد رسول الله يرجف فؤاده ويقول : زملونى زملونى حتى ذهب عنه الروع وأخذت زوجه خديجة رضى الله تعالى عنها التى كانت مرفأ راحة وأمان له صلى الله عليه وسلم - تقول أبشريا ابن العم : فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق. وأخذت بيده وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وقالت له : يا ابن العم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مارأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا» [(٢)] .

هنا بدأ الحديث عن الهجرة وليس من ذلك الوقت الذى تمت فيه البيعة، فمنذ ذلك الحين وقد وقر فى قلب نبينا صلى الله عليه وسلم أنه سيأتيه اليوم الذى يخرجونه.

---

(١) سورة العلق ١ - ٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحى .

والذى يتآمرون فيه على إخراجه ، فالحق فى صراع مع الباطل إلى يوم القيامة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [1] .

منذ ذلك الحين كان الحديث عن الهجرة، فإذا ماتمت بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية يقرر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم حقيقة الهجرة ويطلعه فى منامه ويخبر أصحابه قائلا : «قد أريت دار هجرتكم رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين » [2].

ويحقق الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم دار مهجره وهى المدينة التى كانت من قبل يثرب وأصبحت بهجرته المدينة المنورة به صلى الله عليه وسلم، لقد أذن لأصحابه بالهجرة فكانوا يهاجرون ذرافات ووحدانا، وكان أعداء الإسلام يتربصون بالمهاجرين الدوائر مخافة أن يكونوا فى المدينة دولة وقوة يأتونهم بعد ذلك بجيش لاقبل لهم به فأخذوا يقفون فى وجوه المهاجرين ويمنعونهم فإذا ماأراد أن يهاجر واحد هو أول المهاجرين وامرأته وهى أول ظعينة قدمت المدينة هى السيدة أم سلمة وزوجها أبو سلمة فحين خرج الرجل على بعيره ومعه زوجته وابنه وقف له أهل زوجته بالمرصاد وقالوا له : نفسك وقد غلبتنا عليها فكيف نفرط فى ابنتنا تخرج معك فى الصحراء والله لن تخرج معك أم سلمة وحالوا بينه وبين زوجته . قائلين إن أردت أن تخرج فاخرج من غير الزوجة ، وجاء أهل الرجل، وقالوا لهم مادمتم قد انتزعتم ابنتكم من زوجها فلن يبقى الولد معكم فلنأخذه نحن أهل أبيه فانتزعه كل فريق حتى نزعوا ذراع الطفل الصغير ، حالوا بين الرجل وبين زوجته وبينه وبين طفله ، ومع هذا انظروا إلى الإيمان كيف يصنع بالرجال ، انظروا إلى حب الله وحب رسوله كيف، يؤثره الرجل على أحب الناس إليه ، يؤثر حب الله ورسوله على أهله وزوجته وأرضه وماله فيهاجر أبو سلمة حتى يصل إلى قباء، ثم تحن الزوجة إلى الرحيل وتخرج بالأبطح عشية وضحاها تبكى بكاء مرا حتى جاء بعض العرب ممن عندهم نخوة وقال : ألا رحمتم هذه المسكينة التى فرقتم بينها وبين زوجها ووليدها . حتى أذنوا لها أن تخرج فماذا فعلت أم سلمة ؟ أعدت البعير وأعطاها أهل زوجها الطفل الصغير، فإذا بواحد من العرب وهو مشرك

---

(١) سورة الفرقان آية ٣١ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الكفالة باب جوار أبى بكر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده .

إنه عثمان بن طلحة قبل أن يدخل الإسلام يقول لها : إلى أين ؟ فتقول: إلى زوجى حيث الهجرة . فيقول : والله مالك من مترك فى هذه الصحراء التى لا تستطيع المرأة أن تسير فيها فى هذه الغربة .

انظروا إلى هذا الرجل العربى ، وانظروا إلى نخوة الرجل وأصالته التى نفتقدها اليوم ، نفتقد اليوم الأصالة والمروءة والنخوة العربية التى تقف بجوار المظلوم، رجل عربى رغم أنه لم يدخل الإسلام بعد، ولكنه أخذ بخطام بعير هذه المرأة ورضيعها من المكان الذى يسمى بالتنعيم ، والتنعيم فى أول مكة للداخل من جدة، الذى يريد الإحرام بالعمرة يذهب إلى مسجد التنعيم ، قاد بعيرها من مكان التنعيم إلى قباء -حيث مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ماشيا على القدمين . وتحكى السيدة أم سلمة وتقول : فكان إذا جاء وقت الراحة يخرج الرجل بعيدا وينيخ الراحلة ويذهب بعيدا حتى لا يقع بصره عليها، فإذا مانزلت واستراحت وذهب بعيدا فى ظل شجرة ذهب وحل عقال بعيره ويقود البعير حتى ماوصل إلى القرية قال لها : هنا زوجك فاذهبى إليه فى أمان [1] . انظروا إلى أصالة المعدن ، إلى الأخلاق التى ستستقبل الإسلام بعد ذلك فتعتنقه فى حب ، أين هذه المروءة والنخوة ممن ينتسبون إلى الإسلام اليوم ويضرب بعضهم رقاب بعض ، أين هذه الأخلاق العربية وأصالة المعدن الذى لم يدع امرأة تمشى فى الطريق وحدها بل يظل حارسا وخادما وقائدا لبعيرها ؟ أين هذه من الذين يتسلط بعضهم على بعض ، ولا يحمى بعضهم بعضا ، ولا ينصر بعضهم بعضا ، ويرى المستضعفين فى الأرض فلا يحن لنصرتهم عشية أو ضحاها .

كانت أول ظعينة قدمت المدينة كما يقول المؤرخون .

ومن بين أولئك الذين هاجروا أيضا صهيب الرومى ، وكان لصهيب الرومى موقف عظيم ، فعندما أراد أن يهاجر وقفوا له أيضا كما وقفوا لأبى سلمة وقال له : أتيتنا صعلوكا فقيرا لامال لك ، أفإن جمعت المال ، وأصبحت فيما أصبحت فيه تريد أن تخرج؟ والله لن تخرج أبدا. فقال لهم : لا المال أريد ولكن أريد الله ورسوله أفرأيتم إن تركت لكم المال تتركوننى ؟ لقد وقفوا يتربصون به . فقال لهم : اعلموا إنى من أرماكم رجلا وما فى

(١) انظر سيرة ابن هشام تحت عنوان : ذكر المهاجرين إلى المدينة .

كنانتى من سهام سوف أفرغها قتلا فيكم إن لم تتركونى مهاجرا ، أما عن المال فطرح لهم مامعه وأخبرهم بمكان الباقى وقال لهم: خذوه فإنى لا أريد مالا ، فأذنوا له بالهجرة ، وقبل أن يقدم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى الطريق عن بعد يطلع الله حبيبه على موقف صهيب فيلتفت الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه ويقول مناديا لصهيب : ربح البيع ياصهيب، ربح البيع ياصهيب، هكذا كان صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى محبتهم وفى ثقتهم وفى إيمانهم بالنفس ، وفى التضحية بالمال نصرة لدين الله ونصرة للمستضعفين فى الأرض ، الذين يريدون أن يبلغوا كلمة الله للناس، فقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقى بهم حين أمر أن يصدع بالدعوة ويقول : ألا رجل يحملنى إلى قومه ؟ فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى »[1] يريد أن يبلغ دين الله ، يريد أن يبلغ دعوة الله إلى القلوب القاسية ، إلى القلوب المظلمة ، يريد أن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، فكان لهذه الفئة المؤمنة من المهاجرين الذين أوذوا فى سبيل الدعوة مكانتهم العظيمة، ولقد واجهوا كل أذى واضطهاد بصدر رحب، وبنفس راضية فاستحقوا أن يسجلهم الله تعالى فى القرآن الكريم فى آيات خالدات بأن لهم الجنة وبأنهم السابقون ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾[2] .

وهكذا يتحدث القرآن عن الهجرة النبوية حديث النصر لا حديث الفرار ، حديث النصر لا حديث الهروب ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3] .

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب السنة باب فى القرآن ، وأخرجه الترمذى فى كتاب ثواب القرآن ، وأخرجه ابن ماجة فى المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٠ .

(٣) سورة التوبة آية ٤٠ .

(٢٤)

من دروس الهجرة النبوية

الحمد لله رب العالمين، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ، له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شىء قدير ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. شهادة نقر فيها بربوبيته ووحدانيته ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ رسالة ربه ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه، وأوذى فى سبيل الله فصبر ، وأخرج من بلده فصبر واحتمل، واضطهد فشكر ، وهاجر من مكة إلى المدينة فكّون خير أمة أخرجت للناس ، اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أمـا بعـد ...

فيا معشر المسلمين، تشرق على دنيا الناس وعالم البشر .. بشريات العام الهجرى الجديد ... حاملة بين طياتها أعظم ذكرى وأنبل حدث وأعظم عمل قام به سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم والقلة المؤمنة معه. إنه حدث الهجرة النبوية الشريفة ، ذلكم الحدث الذى غير وجه التاريخ فابتدأ منه التاريخ ، ذلكم الحدث الذى كان فى ضمير الغيب، ومنذ الأزل ومنذ فجر الدعوة الإسلامية ، من أول وهلة صافح الوحى فيها قلب سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو فى غار حراء ، حاملا أمر ربه إليه، اقرأ ويقول ما أنا بقارئ. وينتهى حديث اقرأ وينتهى حديث أول قطرات الوحى المنزلة على القلب النبوى الشريف بأن يعود إلى بيته قائلا «زملونى لقد خشيت على نفسى» فتقول له زوجه السيدة خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضـيف وتعين على نوائب الحق، وتذهب به إلى ورقـة بن نوفل. من هنا يبـدأ حـديث

الهجرة؟ نعم .. من هنا ، كيف وهذه المرحلة أولى مراحل الدعوة والوحى ، نعم من هنا يبدأ حديث الهجرة منذ قال له ورقة بن نوفل: هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى، ياليتنى أكون فيها جذعا، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟ قال .. نعم لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا [١] » ... منذه هذه اللحظة بدأ حديث الهجرة ولم يبدأ بعد النصف الأول من الدعوة، بل إن الذى بدأ بعد ذلك وبعد حدث الإسراء إنما كان الحدث نفسه، أما الحديث عن الهجرة أما الإخبار عنها فقد كان معهودا معروفا حين قال ورقة: ... ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، وحين رد عليه النبى صلى الله عليه وسلم قائلا: أو مخرجى هم ؟ فكأن خروجه صلى الله عليه وسلم وكأن نبأ هجرته كان معهودا معروفا من قبل، حتى إذا ماتوالت الأيام ومرت السنون وظن البعض حين بدأت معالم الهجرة أنها إلى أرض اليمامة أو أنها إلى أرض هجر بالبحرين إذا بالله تعالى يطلع حبيبه فى النوم على رؤيا ورؤيا الأنبياء حق فيصبح قائلا لأصحابه : «رأيت فى المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلى إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هى المدينة يثرب [٢] » . لقد أطلع الله تعالى حبيبه ومصطفاه على تلك الهجرة، وعلى ذلكم البلد الطيب طيبة ، وطابة .. المنورة به صلى الله عليه وسلم ، ولكن لا نريد أن نمضى مع أحداث الهجرة ، فأحداثها كثيرة ووقائعها عديدة ، ربما يكون البعض قد سمعها كثيرا ولكن حسبنا أن نقف وقفات متأملة ومتدبرة مع هذه الأسرار التى كانت فى هذا الحدث العظيم ، وهنا أتساءل: من قبل الهجرة بقليل، لقد أجرى الله تعالى لحبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم ، حدث الإسراء والمعراج ليمحص له القلوب ، وليمتحنها ويختبرها ويبتليها فيظهر المخلص الصادق فى إيمانه، الذى سيقبل على مخاطرة الهجرة ويترك ماله وأرضه وولده وأهله ، ويظهر المنافق الذى لا يخلص فى هذا العمل الخطير، فكان حدث الإسراء والمعراج ليبتلى المؤمنين وليمحصهم ويختبرهم ويظهر المخلص الذى سيقدم على تلك المخاطرة المحفوفة بالشدائد، ولكن لقد أسرى

(١) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحى

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الرؤيا

به فى جزء من الليل .. مسافة مايمشى البعير به شهرا كاملا ، وأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومنه إلى السموات العلا فى جزء من الليل دون تعب منه أو مشقة ، فلم تركه فى الهجرة على هذا النحو المرير ، والجهاد الشاق ؟ والمخاطرة الصعبة المليئة بالشدائد ؟ وقد كان فى وسع رب العزة سبحانه وفى قدرته كما أسرى به وعرج إلى السماوات العلا فى جزء من الليل دون تعب أو معاناة أن يتم له هجرته على هذا النحو دون تعب أو معاناة، وأن ينقله من مكة إلى المدينة فى جزء من الليل أو بين عشية وضحاها، وماكان ذلك يشق على القادر على كل شىء كما فعل فى الإسراء والمعراج، إلا أنه قد جرت حكمة العزيز الحكيم أن تكون هناك عبرة للدعاة والهداة والمخلصين والخلفاء الراشدين من بعده ولجميع المصلحين والرواد ، إن أولى العزم من الرسل ، وإن أتباعهم من أممهم لا يمكن أن تنتهى بهم رسالتهم، دون أن يمتحنوا وأن يبتلوا ، ودون أن يواجهوا المعاناة والمشقة، ودون أن يبذلوا أقصى مافى الوسع الإنسانى ليكونوا قدوة ونماذج عليا لأممهم على مر أدوار التاريخ، لأن لهم عند الله مكانة عليا فصلوات الله وسلامه عليك ياخير مهاجر إلى الله. أراد رب العزة أن تكون هجرته على هذا النحو المحفوف بالشدائد وبالمكاره وأن يتربص القوم به الدوائر ، ليكون فى ذلك عبرة، وليكون الدرس وليكون النموذج الأمثل لأمته وللهداة وللدعاة من بعده ، وإذا مانظرنا إلى هجرته صلى الله عليه وسلم لنقارن بينه حين هاجر واتخذ له دليلا واستخفى عن أعين الناس ، وبين هجرة واحد من أصحابه كسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه نراها تختلف تماما عن هجرة سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لقد تقلد سيدنا عمر سيفه . وتنكب قوسه ، وعلى ملأ من قريش طاف بالكعبة سبعة أشواط، وعلى مسمع من صناديد الشرك نادى بأعلى صوته من أراد أن تثكله أمه ويؤتم ولده وترمل زوجته ، فليأتنى وراء هذا الوادى، فما تبعه منهم أحد ، وهاجر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه معلنا هجرته فى رائعة النهار على مسمع ومرأى من صناديد الشرك ومن قادة الكفر ومن ملأ قريش كلها، لكن هجرة الحبيب الشفيع صلوات الله وسلامه عليه اختلفت تماما عن هجرة عمر فقد هاجر متخفيا ومتخذا الدليل وأخذ فى الأسباب وأعد للأمر عدته ، ونام ليلته فى حجرته، وقد جاءه الوحى فأخبره الخبر ، فأمر عليا أن ينام مكانه وأن يتسجى ببردته ، وماكان حين أمر عليا ليجعل من علىّ فداء له وليتأخر هو

عن موقف الخطر... كلا .. كلا، لكن الوحى هو الذى أعلمه أنه سوف يكون بمنجى من الأعداء، وأن من ينام مكانه سوف يكون بمنجى أيضا ، ولذلك قال لعلى : نم مكانى وتسج ببردى الحضرمى هذا .. ولن يخلص إليك شىء تكرهه، لأن الوحى نزل إليه بذلك، وهاجر مستخفيا ، وشاء الله أن يلقى بالتراب على رؤوسهم ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [1] و يختفى فى الغار مع صديقه، يأخذ فى الاختفاء وعمر فى الإعلان ، وماكان عمر بأشجع من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن سيدنا رسول الله كان أشجع الناس على الإطلاق ، وكم شهد بذلك أصحابه وقالوا كان أشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبى طلحة فى عنقه السيف وهو يقول : «لم تراعوا لم تراعوا»[2] .

لكنه هنا يختفى ولا يعلن هجرته كما أعلنها عمر، لأن سيدنا عمر حين يعلن هجرته وله ظهور تحميه ، فهو يتصرف انطلاقا من توجه خاص به واجتهاد له معين وتصرف خاص به ، ولعل الفترة التى كان قد قضاها قبل الإسلام ، تجعله يضاعف من تصرفات الإيمان والشجاعة ، تحديا منه لمرحلة الشرك السابقة، فها هو يجابه الشرك الذى كان يعتنقه ويعلن التوحيد فى غير خوف ولا وجل تصرفا من نفسه، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يتصرف من نفسه بل يتصرف عن وحى من الله علام الغيوب، ولا يتصرف لذاته هو ولكن يتصرف لأمة تتبعه ، وتقتدى به، ومن بين أتباعه مستضعفون لو هاجر بهم علانية لذاقوا صنوف المعاناة، وأوذوا واضطهدوا فإنه نبىّ مقتدى به لم يشأ أن يعلن هجرته وأن يجعلها جهارا نهارا علانية ، كما هاجر عمر ، فربما يظن المسلمون والمستضعفون أن الهجرة لا تصح إلا علانية فيهاجرون علانية فيؤذون ويضطهدون وتكسر شوكتهم فأراد أن يأخذ فى الأسباب وأن يحمى أمته ، وهذا هو شأن القائد الماهر ، إنه يعطى درسا عظيما على

---

(١) سورة يس آية ٩

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد باب شجاعته صلى الله عليه وسلم وأخرجه البخارى فى كتاب الجهاد باب الشجاعة فى الحرب والجبن .

مر أدوار التاريخ لكل الخلفاء من بعده، ولكل حكام الدول والدنيابأسرها إلى أن تقوم الساعة، أن القائد الماهر ، والحاكم العظيم هو الذى يحقن دم أمته ويصون الذين يتبعونه، وهكذا كان النبى الرؤوف الرحيم عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، لم يشأ أن يعلن هجرته ، بل أخذ بالأسباب واستخفى عن أعين المشركين، ويشاء الله تعالى أن يجرى الخوارق على يديه فالحمامتان تبيضان وتعششان والعنكبوت ينسج خيوطه والشجرة تضرب بجذورها فى لحظة على فم هذا الغار ليرتد أعداء الإسلام وينسج العنكبوب خيوطه على الغار وتعشش الحمامتان الوحشيتان وتنبت شجرة لم تكن لتنبت إلا بعد كثير من الزمان فيقول المشركون لايمكن أن يكونوا قد دخلوه فيرتدون على أعقابهم خاسرين ، وصدق البوصيرى رحمه الله حين قال :

فالصدق فى الغار والصديق لم يرما ... وهم يقولون بالغار من أرم

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسح ولم تحم

وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

إنها رعاية الله وعناية الله

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

وحتى إذا ما أعلنت قريش عن جائزتها لمن يأتى برسول الله صلى عليه وسلم، وإذا بسراقة سيد بنى مدلج يمتطى صهوة جواده ويقطع الصحراء وثبا حتى إذا مااقترب من موكب رسول الله صلى الله عليه وسلم هوى به فرسه وساخت أقدامه فى رمال الصحراء ومااستطاع لها حراكا ، ويعاود مرة ثانية ، ومرة ثالثة ، وهكذا كلما توجه بفرسه تجاه رسول الله صلى الله عيه وسلم ، كبا به فرسه حتى أيقن الرجل المشرك الذى راح ليقطف رأس محمد أن هذا نبىّ معصوم محفوظ من قبل الله ولاسلطان لأحد عليه ، ولايمكن أن يصل إليه شىء من أعدائه ، فيطلب الأمن ويعطيه الأمان ويقول له : إن شئت أمدك بالزاد فيقول له : ياسراقة، لاحاجة لنا فى شىء ولكن عمّ عنا الطلب ، أى الذين يطلبونه ويريدونه، ولقد

أيقن أن الرجل بدأ فى طريق الهداية ، ثم قال له بعد أن أعطاه الأمان فلعلى بك وقد ألبسك الله سوارى كسرى. قال: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز ، فعاد سراقة بوجه غير الوجه الذى ذهب به. ذهب بوجه مكفهر على قسماته العدوان ، وعاد بوجه هادىء تشرق فيه آيات اليقين ، يرد الطلب عن رسول الله ، ذهب بوجه يريد أن يقطف رأس محمد ، وعاد بوجه يرد أعداء محمد عنه، ثم رجع إلى ملأ قريش والقوم يموجون فى جموعهم ، ويقول لهم : لقد رأيت من أمره عجبا لقد حدث لى ولجوادى كذا وكذا .. وقص عليهم ماحدث له ، موضحا لهم أن ماحدث دليل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبى حقا محفوظ من قبل الله، وهكذا عاد الرجل الذى ذهب ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملأ قريش يردد معجزات هذا النبى حتى عجب القوم ، وعجب أبو الحكم،وهو أبو جهل وخاف أن يدخل الناس فى الإسلام بسبب سراقة، وهذا فعلا ماحدث ، فراح أبو جهل ينادى فى القوم :

بنى مدلج إنى أخاف سفيهكم ... سراقة مستغو لنصر محمد

عليكم به ألا يفرق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عزّ وسؤدد

فنادى أبو جهل بنى مدلج ، موضحا لهم ماحدث من سيدهم سراقة فى هذين البيتين، وأنه يخاف وقد أغراه محمد ومالقيه معه أن يجعل الناس كلهم يتبعونه، فماذا قال سراقة ؟ وبماذا أجاب على أبى الحكم أبى جهل ؟ قال :

أباحكم والله لو كنت حاضرا ... لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه

علمت ولم تشكك بأن محمدا ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه [1]

صلوات الله وسلامه عليك ياصاحب الهجرة، يامن أعطيت دروسا لقادة الدنيا ، وحكامها ، ولشعوب العالم على مر أدوار التاريخ، الحق أحق أن يتبع وأن الرواد والهداة والمصلحين فى كل زمان ومكان لابد أن يعانوا ، ولابد أن يلاقوا من المشقة ماشاء الله تعالى

---

(١) حديث الهجرة أخرجه مسلم فى آخر كتاب الزهد

لهم ، حتى ترفع درجاتهم عند الله سبحانه وتعالى ، وكما قال سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم قولته الحبيبة حين ترك مكة المكرمة «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلىّ ، والله لولا أنى أخرجت منك ما خرجت [1] » أو كما قال : التائب من الذنب كمن لاذنب له .

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب المناسك باب فضل مكة.

(٢٥)

ذكرى الإسراء والمعراج

الحمد لله رب العالمين ، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره، ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، بيده مقاليد السموات والأرض ، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير . ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله. بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فبلغ رسالة ربه أعظم مايكون التبليغ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه .. اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ...

أمـا بعـد ...

فيـا جمـاعة المؤمنين .. تسعـد الأمة الإسلاميـة بذكرى إسراء الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم . وذكرى الإسراء والمعراج تضفى على المجتمع الإسلامى وعلى الأمة الإسلامية آثارا بعيدة المدى، توقف هذه الأمة التى شهدت نبيا هو أعظم الأنبياء ودستورا سماويا ختم الله به الكتب السماوية ، ودعوة خاتمة هى كلمة السماء الأخيرة إلى جميع من عـلى ظهر الأرض، توقفها على مكانتها العظيمة . فإن ديـن الإسـلام الذى ختم الله به الأديان السابقة، وختم بدستوره السماوى وهو القرآن الكريم جميع الكتب السماوية السالفة، وختم برسولنا صلى الله عليه وسلم جميع الأنبياء والمرسلين، جدير بأن يسود العالم كله، وإن دينا له هذه الخصائص، وله هذه الأسس، وله هذا النبى الخاتم، لجدير بأن تكون له الإمامة العظمى، والقيادة الكبرى على ظهر الأرض، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولأن هذا الدين هو الذى ختم الله به الأديان، وبشريعته الشرائع وبرسوله الرسل، وقد جعل الله

سبحانه وتعالى من هذا الرسول العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم الأسوة الحسنة والنموذج الأمثل الذى لم يسبق هذا النبى نبى أوتى مثل ماأوتى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد آتى الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم من المعجزات ومن الخصائص مايجل عن النظير و جعل منه النموذج الأمثل فى القدوة، فقد عانى ماعانى ، ولاقى قبل إسرائه مالاقى ، فجاءت معجزة الإسراء والمعراج ، وسطا بين مرحلتين . اكتنفت معجزة الإسراء والمعراج مرحلتان من أهم مراحل الدعوة الإسلامية ، مرحلة سابقة ، ومرحلة لاحقة، أما المرحلة السابقة فقد عانى فيها النبى صلى الله عليه وسلم من اضطهاد الكفر ، ومن السفاهات التى لاقاها من المشركين حين حاصروره وقومه ، وحين أخرجوه من مكة ، وحين تركها إلى الطائف وحين ودعوه باضطهادات من الطائف. وأما المرحلة اللاحقة فهي فى الهجرة من مكة إلى المدينة كل ذلك لم يثنه عن حمل رسالته ، كل هذه المعاناة لم تفت فى عضده ، وبرغم أنه حوصر فى الشعب وطورد إلى الطائف وأخرج منها ، وهو آسف على مايفعله قومه ، كل ذلك لم يؤثر فى قلبه الكبير .. بل راح يصعدها أنفاسا طاهرة مبرورة إلى السماء ، ويقول إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالى ، كل ذلك لايعنيه ، لكن كل ماكان يبتغيه أن يكون رب العزة سبحانه وتعالى راضيا عنه ثم يموت عمه أبو طالب الذى كان ينصره ، وتموت زوجته خديجة التى كانت مرفأ أمن وراحة لحياته ، ويمر عليه عام يطلق عليه المؤرخون أنه عام الحزن ، ولكنه ماكان حزينا برغم كل هذا ... بل كان يلقى بكيانه ، وبكليته إلى الله قيوم السماوات والأرض ، وهو على يقين أن الله ناصره ، فيشاء رب العزة سبحانه أن يطلع الملأ الأعلى والأدنى وأهل الأرض والسماء أنهم إن تنكروا له فى الأرض فإن سماوات الله مفتحة له ، إن تنكر له المعادون فى الأرض فإن رسل الله تعالى فى انتظاره فتأتيه هذه المعجزة ويدعو الحبيب حبيبه فى رحلة أرضية ورحلة سماوية ، يسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ويعرج به من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا ويطلعه على أشياء مااطلع عليها نبى من قبله ، كلها أمور ماتلقاها نبى ولا رسول من قبله إلا بطريق السماع من الوحى .. الوحيد الذى رأى الأمور الغيبية والسمعية رأى العين هو سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم .. أطلعه الله على جميع الرسل السابقين ، وعلى جميع الأنبياء الذين تقدموه ، أطلعه الله على الجنة ، وعلى

النار ، وعلى سدرة المنتهى ، حتى الأنبياء الذين سبقوه من لدن آدم إلى سيدنا عيسى .. جميعهم أحياهم الله وحشرهم الله ، وصفهم الله فى المسجد الأقصى .. وصلوا جميعا خلف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذن كان الإسراء والمعراج مهرجانا ربانيا ، ومؤتمرا سماويا ، شاء الله تعالى فيه أن يجمع الرسل والنبيين ، وأن يجمعهم مرة ثانية فى السموات العلا وفى كل سماء يتلقاه فيها رسول وتبتهج الملائكة ، ولكنه حين انتقل من سدرة المنتهى إلى الحضرة القدسية .. إلى مالم يره قبله نبى ولا رسول .. إذا به صلى الله عليه وسلم ، يشاهد الأنبياء ويشاهد الرسل ، ثم يشاهد الملائكة .. ملائكة ساجدين لا يقومون من سجودهم ، وملائكة راكعين لا يقومون من ركوعهم ، وملائكة قائمين لا يخرجون عن قيامهم فشاء الله تعالى أن يجمع له جميع عبادات الملائكة فكانت عبادة الصلاة التى جمعت بين القيام والركوع والسجود .. أعطاه الله تعالى معراجا ... صعد عليه إلى السماوات العلا .. وأعطاه الله معراجا لأمته فلئن كان المعراج كما يقول القشيرى نقلا عن أبى على الدقاق رضى الله عنهم وعن سادتنا الصوفية والمحققين جميعا يقول أبو على الدقاق :

لقد أعطى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ذلك المعراج بمنازله الثلاثة .. من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وهذا هو المنزل الأول ، ومن المسجد الأقصى إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى ... وهو المنزل الثانى ، ومن سدرة المنتهى إلى الحضرة القدسية حيث رأى رب العزة سبحانه وتعالى ... وهذا المعراج الذى أعطاه الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، أعطى الله أمته معراجا مثله فى هذه الليلة المباركة حيث فرض الله عليه الصلاة فكانت الصلاة للأمة الإسلامية معراجا روحيا كالمعراج الذى صعد عليه الرسول حتى التقى بالحضرة القدسية ، فمن شاء أن يلتقى بالحضرة القدسية ، وأن يقف بين يدى رب البرية ، وأن يكلم ربه جهارا نهارا ، فعليه أن يسجد فى الصلاة ، فالصلاة هى المعراج الروحى ، كما أن المعراج ثلاثة منازل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومن المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى ، ومن سدرة المنتهى إلى الحضرة القدسية ، فإن المعراج الروحى للأمة الإسلامية يتمثل فى الصلاة . بمنازل ثلاثة من القيام إلى الركوع ومن

الركوع إلى السجود ومن السجود إلى القرب من الرب المعبود ، ولذلك يقول الله ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[1]، واسجد واقترب أى أنك حين تسجد تكون من ربك قريبا ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء [2] ».

والصلاة .. هى العبادة الوحيدة التى شرعت من فوق سبع سماوات كل عبادات الإسلام، وكل شرائع الإسلام فرضت عن طريق الوحى ، وعن طريق جبريل عليه السلام ، يأتى بها من رب العزة ويبلغها إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ ذلك إلى أمته ، هكذا كان تشريع جميع العبادات من زكاة وصيام وحج إلى غير ذلك من الشرائع... يأتى جبريل من ربه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، والرسول يبلغ أمته ، أما العبادة الوحيدة التى لم يتدخل فيها جبريل ، ولم يحملها من ربه فهى الصلاة ، فقد كلف الله بها رسوله مباشرة صلى الله عليه وسلم دون واسطة بين الرسول وبين ربه ، فقد فرض الله تعالى عليه أول مافرض : خمسين صلاة ، والحديث الدال على هذا صحيح فى صحيح البخارى ، وهو أول حديث فى كتاب الصلاة .. فرض أول ما فرض عليه خمسين صلاة، ولما عاد إلى موسى طلب منه التخفيف، فقد جرب الأمم قبله فظل يتردد رسول الله صلى عليه وسلم بين رب العزة وبين موسى فيحط الله عنه خمسا، ثم يرجع إلى موسى، فيقول له: قد جربت الأمم قبلك وإن أُمتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فيرجعُ إلى ربه، فيخفف عنه خمساً.. وهكذا.. حتى صارت الصلاة خمسا ، قال: سل ربك التخفيف؟ قال: سألت ربى حتى استحييت، وقد قال لى ربى : هن خمس.. وهن خمسون، وأوحى إلى أنه من جاء بحسنة فله عشر أمثالها.. إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. والعجيب أن بعض الناس ينكرون للأسف هذا الحديث مع أنه حديث صحيح، ويقولُ بعض الناس : أما كان الله يعلم أن الأمة لا تطيق. فيخفف من أول وهلة؟ لماذا يتردد رسول الله بين ربه وبين موسى صلى الله عليه وسلم .. ؟ والجواب على هذا أن الله أراد ذلك .. أراد رب العزة سبحانه ذلك، وأراد موسى عليه السلام أن يقبس من نور

---

(١) آية ١٩ من سورة العلق

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل ٢ / ٤٢١

الحضرة القدسية لأن موسى كان من قبل قد طلب رؤية ربه.. فقال له ربه: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[1]

فلما حظى خاتم الرسل برؤية الله أراد موسى كلما تردد بين ربه وبينه أن يحظى من نور الحضرة الإلهية التى لم يحظ بها من قبل، وأيضاً.. شاء الله تعالى أن يفرض الصلاة خمسين وأن يحصُل هذا الفضل من الله حتى تكون خمساً ويشفع فى كل مرة، فيجيبه ربه ، ويحط عنه خمسا.. فخمساً... لماذا ؟لأن الله تعالى كما أطلع أهل الأرض على مكانة هذا الرسول أراد أن يُطلع الملأ الأعلى على أن لهُ نبيا ختم به الأنبياء لو طلب منه أمراً يجيبه فى كل أمر ، وأراد أن يبيُن لهم أنه مقبول الشفاعة عنده، وأن يُطلعهم على منزلته عنده فيطلب أن يحط عنه خمسا، فيستجيب الله، ثم خمسا فيستجيب. أراد الله تعالى بهذا أن يُطلع ملائكته وأهل السماء العُلا على مكانة ومنزلة هذا الرسول العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، وكان للإسراء والمعراج أكبر الأثر فى دنيا الناس لأنها تطُلع الأمة على مر أدوار التاريخ، وتُطلع كل التيارات الموجودة فى الشرق وفى الغرب، وفى الشمال وفى الجنوب، وفى كل بقعة على ظهر هذه الأرض ، أن هذا الدين هو الدين الخاتم . وأن هذه الدعوة هى كبرى الدعوات وخاتمة الدعوات، وأن رسولها صلى الله عليه وسلم جدير بأن يُتبع، جديرٌ بأن تتوحد الأمة على يديه جدير بأن تعنو على يديه كل الجباه إلى الله ومن أجل ذلك أعطاه الله دستوراً سماوياً، ومعجزة كبرى ، رجا بها أن يكون أكثر الأمم تابعاً يوم القيامة، ومن أجل ذلك لما أنكروا إسراءه ومعراجه وطلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس، وما كان قد ذهب إليه من قبل، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر.. فجلىّ الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم وأنا أنظر إليه[2] .

اللـهم صل وسلم وبارك عليك يا خير خلق الله. قال عليه الصلاة والسلام ... « التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، ادعوا الله يستجب لكم.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٣.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير باب قوله تعالى : أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام «سورة الإسراء»

(٢٦)

الحكمة من الإسراء والمعراج

الحمد لله رب العالمين، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره على نعمه التى لا تحصى، وأفضاله التى لا تستقصى، فهو سبحانه وتعالى صاحب الفضل والنعمة أنعم علينا بنعمة الإسلام، وكفى بها نعمة، وتفضل علينا بإرسال خير خلق الله رسولاً خاتماً للأنبياء والمرسلين.. صلوات الله وسلامه عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نقُر فيها بربوبيته ووحدانيته ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، بعثه الله بالحق، ليخُرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأيده بالمعجزات الحسية والمعنوية ، اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والذين اتبعوه بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الإخوة المؤمنون.

من بين الذكريات المباركة الطيبة تشرق علينا ذكرى من أعز الذكـــريات الغالية على الإسلام والمسلمين ألا .. وهى ذكرى الإسراء والمعراج لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناظر. إلى هذا الحدث العظيم يرى أنه من الأحداث والخصائص التى لم يحك لنا التاريخ ولا كتب السماء السالفة ولا القرآن ولا الحديث أن مثل هذا الحدث حدث لأى نبى أو لأى رسول أولأى عظيم فى البشرية منذ آدم.. إلا لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم فى حديثه عن هذا الحدث يقول بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [١] ومع أن هذا الحدث أجراه رب العزة سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يظهر بعد من يعارض أو يجادل فقد سبق القرآن الكريم الأحداث وعرف علامُ الغيوب ما ستتعرض له هذه المعجزة من القيل والقال . فبدأ الحديث عنها

(١) سورة الاسراء آية (١)

بتنزيه الساحة الإلهية عن أى عجز أو نقص لا يليقُ بذاته العلية، بدأها الله بالتسبيح وهو تنزيه الساحة الإلهية عن أى نقص أوعجز ، وليكون فى هذا رد على المنكرين منذ القدم إلى أن تقوم الساعة، ردٍ على القائلين بالروح لابالجسد وردّ على القائلين أنهاكانت فقط رؤيا منامية، كان الحديث بالتسبيح والتنزيه يعنى أنها أمرٌ خارق للعادة وأنه أمر يُنزه الله فيه تعالى عن أى نقص وما دام الذى أسرى وعرج برسول الله صلى الله عليه وسلم هو خالق القوى والقُدر وقيومُ السموات والأرض فهو لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، سبحان الذى أسرى فكلمة التسبيح : تفيد تنزيه الله عن أى نقص، وما دام هو الذى أسرى فإنه لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وقد أسرى بمن ؟ بعبده وكلمة العبد لا تطلق على الروح ولا تطلق على رؤية منامية لإنسان ولا تطلق إلا على الإنسان جسداً وروحاً ويقظة،.. «بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» ولو كانت كما يدعى المدعون والقائلون بأنها رؤيا منامية ما كان لهذا الإنكار ولا لهذا السيل الجارف من القيل والقال والتكذيب والإنكار معنى، لأن الناس يرون فى رؤاهم المنامية أنهم ذهبوا إلى أقصى البلاد وإلى أعلى السماوات فليس الأمر عجباً بالنسبة للرؤية المنامية فإنكارهم دليلٌ على أنها ما أخبروا بها إلا على أنها كانت بجسده وروحه ويقظته صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى حين أعطى هذه الأدلة فى هذه الآية الكريمة على أنها بالروح والجسد واليقظة كان من أول وهلة يحُدث فيها القرآن الكريم يعطى الدليل ويُفحم المعارضين والمجادلين ويثبت أنها حقا يقظة وبالروح وبالجسد ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾

فالحكمة من هذا الحدث العظيم ليس المراد بها من أجل أن يؤمن هؤلاء المكذبون والمعارضون ، فالله تعالى يعلم أن الذين طمس على قلوبهم وبصائرهم مهما آتاهم من أدلة ومعجزات فما دام الله أراد لهم الضلال فلن يهتدوا أبداً، فلم تكن المعجزة من أجلهم هم، لأنهم من قبل طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يرقى إلى السماء ، وقالوا له: ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ [1] بل إن الله تعالى أخبر عنهم بأنه

(١) سورة الإسراء آية ٩٣

لو صعّد هؤلاء المعاندين المعارضين أنفسهم لو فتح لهم طريقاً إلى السماوات وصعّدهم إليها، وأراهم الآيات الكبرى بأنفسهم، يعلم أنهم ما دام قد طمس على قلوبهم وبصائرهم فلن يؤمنوا ، وتحدث القرآن عن هذا النوع من الناس فقال ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (١)

فالقرآن يعلم ابتداء عنهم ذلك ورب العزة وهو علام الغيوب لا يجعلُ هذا الحدث ولا هذه المعجزة من أجلهم هم، وإنما من أجل حبيبه ومصطفاه، من أجل أن يُرى الحبيب حبيبه مالا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كانت المعجزة من أجل ماذا؟ ما الغاية منها ؟ الغاية منها وضحها الله في كتابه العزيز: ﴿ لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ هو وحده الذى رأى من آيات ربه الكبرى ؟ نعم ... إن فى الإسلام وفى عقيدة الإسلام أموراً تسمى بالسمعيات، طريق الوصول إليها السماع فقط مثل الجنة والنار والصراط، والحشر والنشر وسدرة المنتهى، وثواب الطائعين، وعقاب العاصين ، هذه الأمور الغيبية لا طريق للعلم بها إلا السماع ولذا تُسمى بالأمور السمعية، وكل نبى سابق وكل رسول من الرسل الماضين كان يخبر أمته بهذه الأمور السمعية بسماع سمعه من الوحى وأخبر به أمته. ولكن الوحيد الذى لم يكن طريق معرفته بها السماع وإنما رؤيا العين.. هو سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ففى هذه الليلة وفى هذا الحدث العظيم «الإسراء والمعراج» أطلعه الله على كل هذه الأمور السمعية وصعّده إلى سموات ربه العليا حتى سمع صريف الأقلام، وسمع أصوات أقلام الملائكة وهى تكتب أقدار العباد.. كل هذه الأمور كان حديثه عنها، ليس حديث من سمع فقط.. بل حديث من رأى ومن سمع ، لأنه سيحمُل كلمة السماء الأخيرة إلى أهلِ الأرض، ولأنه سيختم الله به النبيين، وبكتابه الكتب السالفة ولأنه بعث رحمة للعالمين، ولأن دعوته خالدة وباقية وعامة فى الزمان وفى المكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فمن أجل الحفاظ على بقاء هذه الشريعة ومن أجل صيانة هذه الدعوة ومن أجل الحفاظ على صاحب هذه الدعوة لا بد أن تكون له مكانة سوى ما للرسل السابقين ومعجزة لم يؤتها أحد من قبله، فكانت الإسراء والمعراج

(١) سورة الحجر آية ١٤، ١٥

لنريه من آياتنا، ليرى الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه فيكون حديثه حديث من رأى ومن سمع، فيرى فى رحلته الأرضية من آيات الله أولئك الذين يعذبون بسبب تركهم للصلاة كيف تضرب رؤوسهم بالحجارة وتلتئم ثم تضرب ثانية فتلتئم ثم تضرب ثالثة.. فتلتئم... وهكذا... عذاب لا يتوقف، فيسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل عليه السلام : من هؤلاء؟ فيقول هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة، يرى أولئك الذين يحصدون فى اليوم فيعودُ زرعهم كما كان فيحصدون فيعود كما كان.. فيسأل جبريل فيقول: هؤلاء المجاهدون يضاعف الله لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف والله يضاعف لمن يشاء.. وهكذا.. مما ثبت فى السُنة الصحيحة من آيات ومعجزات وصور ونماذج للطائعين ومالهم من ثواب. وللعاصين ومالهم من عقاب.. فكانت من أجل أن يُرى الحبيب حبيبه هذه الآيات لنريه من آياتنا وكانت الإسراء والمعراج من أجل أن تُمتحن الفئة التى اتبعت هذا النبى قبل أن تُقدم معه على مخاطرة شديدة، فإنهم سوف يتحملون مع الرسول الذى يتبعونه مخاطر وأهوالاً يتركون فيها الأهل والوطن والمال ويبذلون الروح رخيصة فى سبيل عقيدتهم، مثل هذه النماذج لا بد أن تمتحن وأن يظهر المُحق من المُبطل والصادق من المنافق فكانت أيضاَ امتحاناً لأمته وللذين اتبعوه: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾[1] امتحاناً لهم واختياراً ، ولذلك ظهر المنافقون بالإسراء والمعراج وقالوا لايمكن أن يحدث هذا . إن مسافة ما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى نقطعها فى شهر تقول إنك قضيتها فى جزء بسيط من الليل مستحيل أن يكون ذلك وكفر من كفر، وظهر نفاق المنافقين . وفى الوقت نفسه ظهر صدق الصادقين وإخلاص المخلصين، فأبو بكر حينما حُدث بشأن هذا الحدث ما قال لهم: أنظرونى حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل حدث له ذلك أم لا.. ؟ ولم يقل أبو بكر لهم أمهلونى حتى أُفكر أهذا الحدث صحيح أم .. لا؟ **إنما بمجرد** أن قالوا له أتصدقه أن يقطع مسافة شهر فى جزء من الليل؟ أجـــابأبو بكر بقـوله : إن كان قـال فقـد صدق إنى أصدقه فى خـبر الســماء يأتيه فى

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٠

لحظة أفلا أصدقه فى ذلك. إنه لم ينتظر حتى يقابله ولم ينتظر حتى يسأله، ولم يقل دعونى حتى أستوثق وإنما أظهر صدقه الحقيقى، ومن يومها لقب أبو بكر بالصديق رضى الله تعالى عن الصديق وعن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين، وكما كانت الإسراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل أن يُرىَ الحبيب حبيبه من الآيات «لنريه من آياتنا» كانت بالنسبة لأتباعه؛ ليظهر المخلص من المنافق، وليظهر الناس على حقيقتهم، لأنهم سيقدمون بعد قليل على الهجرة التى سيتركون فيها الوطن والمال والولد ولا يُضحى بذلك إلا من كان صادق الإيمان مخلصاً لله تعالى، ومن أجل ذلك كانت فتنة للناس، واختباراً وابتلاء وامتحاناً لهم، فظهر المحق وظهر المبطل وظهر المخلص وظهر المنافق، وكانت أيضاً تحقيقاً عملياً وتطبيقاً فعلياً لميثاق أبرمه رب العزة سبحانه وتعالى مع جميع الرسل والنبيين منذ الأزل ، أبرم الله تعالى مع الرسل إذا ما جاءهم هذا الرسول أن يؤمنوا به وأن ينصروه وأن يتبعوه وكيف يتم لهم ذلك ؟ والأزمنة بينه وبينهم متطاولة والعصور متباعدة ولكن القادر على كل شئ المحيى المميت الذى بيده مقاليد السموات والأرض شاء أن يطبق هذا الميثاق، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (١)

شهد رب العزة مع النبيين والمرسلين إذا ماجاء هذا الرسول أن يؤمنوا به وأن ينصروه وأن يتبعوه، لكن الأعصر متباعدة، والأزمنة متطاولة، فكيف يلتقى بآدم أبى الأنبياء وأبى البشر وبإبراهيم وبنوح وبموسى وبعيسى وبينهم قرون متباعدة ممعنة فى البعد ، لكنها ليست بعيدة على علام الغيوب القادر على كل شئ فيجمع الله هؤلاء الرسل جيمعاً، وكما جاء فى الحديث الصحيح بالنص الصريح «يحشرهم» ومعنى يحشرهم : يُخرجهم من أجدائهم وقبورهم بأجسامهم وأرواحهم ليقفوا جميعاً فى بيت المقدس وليصلوا وليقتدوا بإمام المرسلين صلى الله عليه وسلم، فكان فى ذلك التطبيق العمـلى الفعلى لهذا الميثاق أن يتبعوه، وأن

---

(١) سورة آل عمران آية ٨١

يؤمنوا به فيصلوا جميعاً خلفه، بيد أن الصلاة لم تكن قد فرضت بعد، لأنها فرضت فى المرحلة العلوية السماوية فى المعراج لكن كان صلى الله عليه وسلم يصلى ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى وكان صلى الله عليه وسلم يعبد ربه على الحنيفية السمحة، فكانت هذه الصلاة الأولى والتى أعطاه الله نموذجا لعقوبة تاركيها فى الرحلة الأرضية قبل أن تفرض فى الرحلة السماوية فاجتمعوا جميعاً وصلى بهم النبى صلى الله عليه وسلم إماماً إعلانا لإمامته، وإقرارا لعالمية رسالته، فهى رســالة عالمية فى الزمان وفى المكان ، وجميع أتباع الرُسل يجبُ عليهم بنص الإسراء والمعراج أن يتبعوا هذا الدين، وهذه الدعوة وهذا النبى، لأن جميع رسلهم وأنبيائهم قد اتبعوه واقتدوا به صلى الله عليه وسلم، من هنا جعل الله تعالى هذا الحدث وهذه المعجزة من أجل أن يرى حبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم من آياته الكبرى ، ومن أجل أن يمتحن الذين اتبعوه ، ويظهر المحق من المبطل ومن أجل أن يثبت المؤمنين الذين اتبعوا رسولهم صلى الله عليه وسلم، ومن أجل أن يُعلن مكانته ومنزلته فى الملأ الأعلى وفى أهل الأرض، ليعرفوا للنبى الذى سيحملُ كلمة السماء الأخيرة مكانته ومنزلته وعظمته، وأن الذين تنكروا لدعوته أو حاولوا إطفاء نور رسالته، أنه إن ضاقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأرض فالسماء تفتحت أبوابها له ، وإن تنكّر له العباد فى الأرض فإن رب العباد معه يؤيده بنصر من عنده، ومن أجل ذلك أدرك سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه هذه الحقيقة الكبرى فأعلنها عندما لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ليعلن على ملأ الدنيا وعالم البشر عظمة هذا النبى ووجوب اتباعه لعالمية رسالته الخالدة إلى أن تقوم الساعة، فقالها عمر صريحة مدوّية: بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم فحنّ الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ... إلخ الحديث [١].

---

(١) مضى فى الخطبة السادسة.

(٢٧)

العشر الأواخر من شهر رمضان وذكريات رمضان

الحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجلاله وكماله، سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شئ قدير، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره، ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له بيده مقاليد السموات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شئ قدير. ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه بالهدى ودين والحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ رسالة ربه أعظم ما يكون التبليغ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه. اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد .. فيا جماعة المسلمين .

إن أيام العشر الأواخـر من **شـهر رمضـان المبـارك وهى الأيام الأخـيرة منه**، نودع فيها أعز ضيف وأكرم وافد، وأعظم موسم إيمانى روحى، أفاض الله فيه علينا من الخير والبركة ما أفاض، وهذه العشر ومنذ اليوم العشرين وحتى آخر يوم فى شهر رمضان تتجلى نفحات الله تعالى على هذه الأمة ففى اليوم العشرين شاء الله تعالى أن يفتح على سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة ، وأن ينصره وأن يُعيده إلى مهبط الوحى ومسقط رأسه ، إلى أم القرى إلى الكعبة المشرفة بعد أن أخرجوه وأخرجوا أصحابه منها دون جريمة ارتكبوها إلا أن يقولوا : ربنا الله فودعها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم أن

خرج من مكة بدمعته الرجراجة وكلماته الحانية قائلاً : « والله إنك لأحب أرض الله على، وأحب أرض الله على الله ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت» [1] يشاء الله تعالى فى اليوم العشرين من رمضان أن تعود مكة إلى حبيبها وأن يعود الحبيب لموطنه وأن يدخلها ظافراً منتصراً فاتحاً لتتجلى أخلاقيات القائد الظافر المنتصر الفاتح، الذى لايأخذه زهو النصر ولاكبرياء الفتح، ولاغرور القادة الفاتحين المظفرين.. كلا ... كلا .. وإنما دخلها بالتواضع الجم وبالأدب العالى، والذوق الرفيع، والأمان الذى نشره على كل أرجاء مكة وربوعها، دخل مكة خافض الرأس.. خاشعاً خاضعا.. تكاد لحيته أن تمس دابته من شدة انخفاض رأسه خشوعاً وخضوعاً وشكراً لمن منّ عليه بالنصر فى هذا اليوم العظيم ،ولا يكاد يسمع سعد بن عبادة حين قال قولته المشهورة : «اليوم يوم الملحمة.. اليوم تستحل الكعبة» وما إن ترامى إليه هذا القول.. إلا وأصدر أمره أن تؤخذ الراية من سعد، وألا يدخل مكة حامل الراية مادام قد قال اليوم يوم الملحمة.. ومادام قد أخذته نشوة النصر وفرحته فيخشى أن تكون له صولة فى قريش فى هذا اليوم فيصدر أمره أن تؤخذ الرايه منه. وأن يأخذها علىّ.. وأن يدخل حاملاً الراية ثم يقول: « لاتقولوا : اليوم يوم الملحمة ، بل قولوا : اليوم يوم المرحمة » يوم الرحمة ، انظروا إلى أى مدى يريد أن ينشر الرحمة والأمان . على مَنْ ؟ على الذين أخرجوه.. على الذين ناصبوه العداء.. على الذين عانى منهم وعانى أصحابه الأمرّين، يقول: اليوم يوم المرحمة، ثم يلقى بالأمان فى كل بيت وعلى كل إنسان حتى لا تراق الدماء فى البلد الحرام فينادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم: من دخل البيت فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن يالعظمة الأمان وأنت تنشره يا سيدى يا رسول الله فى يوم أصبح فيه أعداؤك فى قبضة يدك، وأصبح الذين ناصبوك العداوة بالأمس فى قبضة يدك، وفى وسعك أن تبطش بهم إلى غير رجعة، ولكن أبت مكارمك العليا، وأدبك الجم وذوقك الرفيع ورحمتك التى بعثت بها، أبت إلا أن تجعل من يوم النصر والفتح على الأعداء يوما تنشر فيه الأمان والوفاء إلى جميع الناس، من دخل بيته فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن، يالعظمة الأمان وأنت تنشره فى هذا اليوم يا سيدى يا رسول الله، انظروا ماذا فعل فى هذا اليوم وهو يُصدر أمرهُ بأن تتحطم الأوثان والأصنام التى ضربت أطنابها حول الكعبة المشرفة..

(1) أخرجه ابن ماجه فى كتاب المناسك.

ضربت أطنابها منذ متى؟ منذ قديم وحتى بعد هجرته وحتى فى أثناء غزواته وبعد أن كان للجيش الإسلامى قوته.. لم يبعث أحداً ليحطم الأصنام والأوثان رغم أنها كانت حول الكعبة ورغم أنهم كانوا يحجون البيت والأصنام فى البيت ؟ لماذا أخرّ تحطيم الأصنام ، وتهشميها وإزهاق الباطل إلى غير رجعة لماذا أخره إلى هذا اليوم، يوم الفتح .. لم لَمْ يحطم الأصنام من قبل ؟ لأنه كان يريد الأمان لأصحابه من قبل، حتى لا تكون فرقة وحتى لايهلك الجيش وحتى لا تقع فتنة ولذا صبر حتى على الأصنام، صبر حتى على أن تبقى الأوثان وأن يتأخر تحطيمها إلى يوم الفتح فيحطمها فى هذا اليوم: ويقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [1] أخر هذا من أجل أن يحقن دماء المسلمين الذين اتبعوه، لا أن يغامر بهم كما يغامر المغامرون ، ولا أن يغامر بشعبه ولا أمته ولا الذين آمنوا معه رغم أنهم يعبدون الأصنام ورغم أن الأوثان ظلت ضاربة أطنابها بين جنبات الكعبة إلى يوم الفتح ولكنه صبر حقنا للدماء ونشراً للأمان وحفاظاً على أصحابه من الفرقة والاختلاف ، وحفاظاً على دماء المسلمين وعلى حرمة المسلمين ، فصلوات الله وسلامه عليك يا من بُعثْتَ رحمة للعالمين، وليتعلم القادة منه، ولتتعلم قطاعات شعبنا وأبنائنا وشبابنا حتى لايأخذهم الغرور وحتى لا يتسرع متسرع فى أن يغامر بنفسه أو بأمته أو بأحد يورده موارد الهلاك من أجل أن ينهى عن منكر أو يأمر بمعروف، لقد صبر حتى على الأصنام حقناً للدماء وحفاظاً على حرمة المسلمين وفى هذا اليوم يتجلى الوفاء بأسمى معانيه حين طلب مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة وصلى فيها .. ثم يخرج ، فيرى سيدنا عِلىّ رضى الله عنه أن القوة أصبحت لدى المسلمين وأن الفرصة أصبحت مواتية ليأخذ بنو هاشم مفتاح الكعبة ليضموا إلى شرف السقاية – شرف الحجابة ، وكانت الحجابة شرفا بأن يكون حاجباً للبيت وخادماً له.. وقائماً على أمره... كما كانت السقاية وهى سقاية الحجيج من زمزم شرفاً يتنافسون عليه ، وكانت الرفادة وهى إطعام الحجيج فكانوا يتنافسون على إطعامهم ويعتبر هذا شرفاً ومجداً من أمجاد العرب فيقول على رضى الله عنه: يا رسول الله اجعل لنا الحجابة مع السقاية.. صلى الله عليك .. والمفتاح فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فهل يعطيه لابن عمه ؟ لا... قال : تقدم يا عثمان وخذ مفتاحك اليوم يوم بر ووفاء خذوها يا بنى شيبة تالدة خالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم، فيأخذ عثمان

(١) سورة الإسراء آية ٨١ .

مفتاح الكعبة ويظل فى بنى شيبة إلى يوم القيامة ، وفى هذا نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (1)

فرد الأمانة، وقال اليوم يوم بر ووفاء وجعلها خالدة فى بنى شيبة، قال : خذوها تالدة خالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلاظالم. وتجلى الأمان فى هذا اليوم العظيم حتى على أعدائه.. حتى على الذين كانوا يتربصون به الدوائر، وحتى على الذين أرادوا أن يُجهزوا عليه، لقد غر أحدهم بنفسه الغرور وغاظه ما وصل إليه المسلمون من نصر وفتح، فراح أحدهم واسمه فضالة – ورسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة فحدث نفسه، ولم يتلفظ بشفتيه ولم يقل السر لمخلوق. حدث نفسه أن يتتبع النبىﷺ فى خطاه أثناء الطواف وأن يتخلص منه وأن يُجهز عليه ويكون بذلك ضيع هذا اليوم، وضيع النصر كله، ومشى خلفه وإذا بالسماء تتحرك والوحى يتنزل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ما يحدث هذا المنافق به نفسه فإذا به صلى الله عليه وسلم يلتفت خلفه ويقول : مَنْ ؟ أفضالة؟ قال : فضالة، قال: ما الذى تحدث به نفسك؟ قال: لاشئ : أذكر الله، قال: لا حدثتك نفسك أن تقتلنى .. فبهت الرجل.. وقال : والله ما كلمت بذلك أحداً، ولاتحركت بذلك شفتاى فما أعلمه بهذا إلاربه فهو نبىٌّ حقا وصدقا، من الذى أنبأه فلم تتلفظ شفتاى بذلك، فإذا به يضع يده الشريفة على صدره ويقول لمن أراد قتله لمن حمل السلاح ليُجهز عليه يقول : استغفر الله، بل ويدعو الله له فيقول الرجل متحدثاً عن هذا الموقف العجيب : والله ما إن رفع محمد يده عن صدرى، وقد كان أبغض الوجوه إلىّ.. إلا وأصبح أحب الناس إلىّ. أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

وبهذا انتشر الإسلام، وبهذا انخلع الوثنيون عن وثنيتهم، بهذه الروح السمحة، بهذا الأمان الذى نشره على أعدائه، بهذا الأمان الذى منحه حتى للذين تربصوا به وأرادوا أن يُجهزوا عليه.

أيها الإخوة المؤمنون يجب علينا أن نأخذ من عبر الأمان فى رمضان أن ننشر الأمان فى ربوع وطننا الغالى، وأن ننشره فى كل بيت، فى كل شبر؛ لأننا حراس على "الأمان وليست الدولة وحدها فماذا عساها أن تفعل، إن على الدولة واجباً، وإن على رجال الأمن

(1) سورة النساء آية ٥٨

واجباً أن يؤدوه أضعافاً مضاعفة وأن يحافظوا على الأمن، وأن يزيدوا من حرصهم عليه، ولكن هذا كله لا يغنينا نحن عن واجب نؤديه لأن سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول :«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (١)

ويقول صلى الله عليه وسلم : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» (٢) ويسأل رب العزة سبحانه: من حضرالمنكر ومن حضرالظلم فلم يدفع عن المظلوم يقول له: ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ، فيقول : خشية الناس.. أى كنت خائفاً منهم ... فيقول له رب العزة : إيّاى كنت أحق أنه تخشى أى أنا الذى أحق أن تخشانى لا أن تخشى هؤلاء الظالمين الفاسقين المجرمين، لا يحقرن أحدكم نفسه إن الذى لا يغيث المستغيث .. إنسان يحقر نفسه، يجعل نفسه حقيراً ذليلا .. ليس بمؤمن حقاً، يقول عليه الصلاة والسلام «لايحقر أحدكم نفسه، قالوا : يا رسول الله: كيف يحقر أحدنا نفسه قال : يرى أمراً لله عليه فيه مقال ثم لايقول فيه فيقول له رب العزة يوم القيامة؟ ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ فيقول: خشية الناس فيقول فإياىّ كنت أحق أن تخشى(٣)» هذا فى أن يقول، فما بالك بمن لم يدفع الظلم عن المظلوم، من أجل هذا كان علينا أن نستنبط من هذا الشهر المبارك العظيم دروس الأمن التى نشرها سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم والتى منحنا الله تعالى إياها فى ليلة الأمان وهى ليلة السلام .. ﴿ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ هى ليلة القدر التى جعلها الله خيرا من ألف شهر وجعل الملائكة تتنزل فيها ، وأنزل سورة باسمها وجعل سمتها أنها أمان وسلام ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ① وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ② لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ (٤)

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان.

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن باب ما جاء فى نزول العذاب إذا لم يغير المنكر.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

(٤) سورة القدر.

أمان وسلام ، فهذه منحة ربانية اختص الله تعالى بها هذه الأمة الإسلامية وجعلها خيرا من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، لقد كان فى الأمم السابقة رجل حمل السلاح ألف شهر وتقاصرت الأمة أعمارها فأعطى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ليلة واحدة هى خير من ألف شهر فأقيموها.. لأن الرسول علية الصلاة والسلام قال: ﴿ من قام ليلة القدر إيمنانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه [١]

وهذه الليلة فى العشر الأواخر، وقد قال عليه الصلاة والسلام «تحّروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان» [٢] وفى رواية «فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان» [٣] وفى رواية «تحروا لليلة القدر فى السبع الأواخر» [٤]، وهى ليلة طلقة لاحارة ولا باردة .. تكون السماء صافية تشرق الشمس صبيحة يومها ولا شعاع لها ولا شدة لشعاعها.. لماذا ؟ لأن ملائكة الله بين السماء والأرض سدت بأجنحتها أشعة الشمس وقوتها .. إنها الليلة المباركة التي تتفتح فيها أبواب السماء، ليس كما يدعى العامة ، جائزة يتلقفها صاحب الحظ، ليست طاقة من نور، وليست كما يزعم الزاعمون، وإنما هى ليلة إذا دعوت استجيب دعاؤك، هى ليلة أمان ينشره الله على الأمة، وعلينا أن ندعو الله فيها، وأن نسأله العفو فيها؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم حين سألته السيدة عائشة: إن وافقت إلى ليلة القدر ماذا أقول؟ قال : قولى «اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنى» [٥] . أو كما قال: التائب من الذنب كمن لا ذنب له.. ادعوا الله يستجب لكم.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب قيام ليلة القدر من الإيمان، وأخرجه فى كتاب فضل ليلة القدر .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب فضل ليلة القدر باب تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب فضل ليلة القدر باب تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر.

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها.

(٥) أخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات.

(٢٨)

وداع رمضان

الحمد لله رب العالمين حمداً يليق. بجلاله وكماله ، سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شىء قدير ، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره ، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوم ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، بيده مقاليد السموات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فبلغ رسالة ربه أعظم ما يكون التبليغ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعل آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، أما بعد فيا جماعة المسلمين يستأذن الضيف الكريم بالرحيل بعد أيام مباركة طيبة عاشها المسلمون فى رحابه ، نهاره صيام وليله قيام ، والناس فيه ذاكرون لله الواحد العلام ويبدأ الضيف الكريم بالرحيل ليكون شفيعاً لكل مؤمن صادق صامه ، ولليله قامه وليضاعف الله سبحانه وتعالى الأجر والمثوبة للمخلصين الذين خرجوا من مدرسة رمضان الروحية وقد تعلموا فيها كيف يقاومون نزغات الشيطان وكيف يتغلبون على هوى النفس الأمارة بالسوء ، وكيف يعتصمون بحبل الله جميعاً ، وكيف ينبذون الخلافات وأسباب الفرقة التى أدت إلى فشل من قبلهم ولطالما حذرهم سبحانه وتعالى من التنازع والاختلاف حيث قال : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (١)

تعلمنا من مدرسة الصوم وحدة الصف واجتماع الكلمة وصفاء القلوب ونقاءها ، وفى اليوم الأخير من هذا الشهر المبارك الذى شاء الله تعالى أن يمتعنا به وأن يسعدنا به وأن يجعل يومه الأخير هو خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم ، وفيه أدخل

(١) سورة الأنفال آية ٤٦

الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة) [1] وقال عليه الصلاة والسلام: «إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم قائم يصلى يسأل الله خيرا إلاّ أعطاه إياه) [2] .

يشاء ربنا سبحانه أن يكرمنا بختام لرمضان المبارك فى يوم مبارك هو يوم الجمعة خير يوم طلعت فيه الشمس وقد كان سلفكم الصالح يستقبلون الجمعة الأخيرة من شهر رمضان ويطلقون عليها اسم الجمعة اليتيمة يلتقون فى رحابها باكين خاشعين خاضعين مودعين رمضان وكل قلب يبكى على رمضان ، ويتعلق برب رمضان ويدعو الله الرحيم الرحمن . كانوا يستقبلون الجمعة الأخيرة بنفوس مؤمنة صابرة متأدبة بأدب الإسلام لكن مما يؤسف له أننا فى هذه الآونة الأخيرة ، كلما أشرقت علينا أو كادت أيام رمضان ، وكلما آذنت بالانتهاء ترى الشيطان يدب بالفرقة وأسباب الاختلاف بين أفراد الأمة الإسلامية فتراهم يقولون إن البلد الفلانى صام بعدنا وإن البلد الفلانى صام قبلنا ، وإن اليوم عيدٌ عند غيرنا ، وإن غداً عيدٌ عندنا ، وتثور الخلافات ويتبارى أهل الآراء بآرائهم وكل يتكلم ويُلقى باللائمة على هذا أو ذاك وما هى إلا نزغات شيطانية ، رمضان منها براء ورب رمضان منها براء ، فالأمة الإسلامية أينما صامت وحيث أفطرت سبق بلد بلداً أو تأخر بلدٌ عن بلد ، فما ذاك إلا بإذن الله الذى يُطلع الهلال هنا ولا يطلعه هناك ، ومن أجل ذلك تلقف أئمة الإسلام وفقهاء الشريعة الإسلامية والمجتهدون نصوص الكتاب والسنة ليوثقوا الحكم الشرعى فى ذلك فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [3]

وفى قوله صلوت الله وسلامه عليه : (لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فإن أغمى عليكم فاقدروا له) [4] أخذوا من هذه النصوص ومن غيرها توثيقاً للحكم الشرعى الذى يبدأون به الصيام ويخرجون به من الصيام فمنهم من اجتهد فأداه اجتهاده

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الجمعة .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الجمعة .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٥.

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم باب قول البنى صلى الله عليه وسلم. إذا رأيتم الهلال فصوموا، وأخرجه مسلم فى كتاب الصيام باب وجوب الصوم لرؤية هلال رمضان.

إلى أنه إذا ثبت فى أى بلد يسرى الحكم على سائر البلاد الأخرى وهذا مذهب ، ومنهم من رأى أنّ لكل بلد الرؤية الخاصة به ، فلا يلزم أهـل مصر أن يرى الهلال أى بلد آخر ولا يلزم أى بلد آخر أن يرى الهلال أهل مصر ، لماذا ؟ لأن هذا البلد الذى رآه ثبت فى حقه والذى لم يره لم يثبت فى حقه والحديث يقول : (لا تصوموا حتى تروا الهلال) والأمر موجه لكل بلد ، وهذا رأى ثان . ومنهم من أداه اجتهاده إلى أنه إذا اشترك أهل البلاد فى جزء من الليل فتسرى الرؤية على الآخرين وإلا .. فلا وهذا رأى ثالث . وكلها صحيحة وأهلها مجتهدون ومن اتبع أيّاً منها فهو على حق ، لكن لايصح إذا أخذت بلد بمذهب أن يشذ أحدٌ من أبنائها عن هذا الرأى حتى لا تكون الفرقة وحتى لا يكون الاختلاف فحيث لم يثبت هلال شوال فى مصر وكان اليوم متمما لرمضان لزم الجميع أن يصوموا هذا اليوم ومن هنا ندرك الحكمة العليا من اختلاف تلك المطالع ومن تأخر الهلال أو تقدمه فى بلد أ وآخر لأنك لو نظرت إلى هذه الأهلة التى قال تعالى عنها :﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [1]. لو نظرت إلى هذه المواقيت وإلى المطالع والمغارب والمشارق لوجدت أنك هنا فى وقت الظهر وفى دولة أخرى هذا الوقت بالنسبة لها وقت العشاء وفى بلد أخرى هذا الوقت بالنسبة لها وقت الفجر وفى غيرها هذا الوقت بالنسبة لها وقت العصر .. بل أكثر من ذلك، فى كل لحظة واحدة من قت يبدأ على بقعة من بقاع الكرة الأرضية فى كل لحظة يبدأ فجر وظهر أو مغرب أو عشاء ليجعل منها نداءً صالحا قائلاً .. الله أكبر .. الله أكبر . فتتحد جميع دول العالم على رفع شعار التوحيد والتكبير ولا يخلو مكان من صلاة يؤذن لها ويقوم فيها المسلمون ويولّون وجوههم فيها شطر الله سبحانه وتعالى ، وتلك حكمة عليا لا يصح أن نقف وراءها ونقول : ولماذا لم تكن بمطلع واحد أو مغرب واحد؟ هذا شيء مستحيل ، ففى الوقت الذى أنت فيه الآن فى وقت الظهر هناك من عنده وقت العشاء أو الفجر وهناك من يتأخر هلاله أو يتقدم فلا يصح أن يكون ذلك مثار خلاف بل يجب أن يكون ذلك من أكبر الأسباب لتوحيد الأمة فى الاستجابة لأمر ربها ولدعوة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٩ .

إن هذا الشهر الكريم الذى نودعه اليوم تعلمنا منه أن نكون أمة واحدة فلا يصح أن نختلف ولا أن نتفرق ، ولا أن نتنازع لأن الله سبحانه أمرنا بالوحدة حيث قال : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (١)

ولأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بين لنا أن وحدة الصف من أعظم الأمور التى يرضاها الله لنا حيث قال صلى الله عليها وسلم : ((«إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويكره ثلاثا ، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتقرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال») (٢) صدقت ياسيدى يارسول الله ، إن ما يرضاها الله لنا أن نعتصم بحبل الله جميعاً وأن لا نتفرق وأن نوقن أن هذه الاختلافات التى تكون هنا وهناك وبين لحظة وأخرى هى من بقايا مقاصد الاستعمار ومن بقايا غايات أعداء الأمة الإسلامية الذين يحاولون أن يفرقوا صفوفها وأن يحدثوا الخلاف فيها ، لأنهم يعلمون ويوقنون أن هذه الأمة لا يمكن بحال من الأحوال أن يضعفوها ، ولا أن يهزموها إلا إذا فرقوا صفوفها وإن أعظم ما يدعوها إلى الوحدة هو كتاب الله ، ولذا قال غلاد ستون وزير بريطانيا الأسبق وأحد رواد الاستعمار فى الشرق الأوسط : «ما دام هذا القرآن موجودا فلن تسـتطيع أوربا السيطرة على الشرق ، بل ولا أن تكون هى نفسها فى مأمن» . وهكذا نرى أن أعداء أمتكم قد أدركوا سرّقوتكم وأنه فى كتاب الله فراحوا ينشرون الفرقة بينكم وبين كتاب ربكم الذى أكرمكم الله به وأنزله فى هذا الشهر العظيم ، فلا تستجيبوا لمن يفرقون صفوف هذه الأمة ، لا تستجيبوا لمن يحدثون شروخا بين فصائل الشباب المسلم ، إن أمتنا اليوم أحوج ما تكون إلى وحدة الصف وإلى اجتماع الكلمة وما أروع هذا الداعية المبارك الذى وقف يوما حين قالوا له أدرك المسلمين ياشيخ فقد اختلفوا اختلافاً كبيراً وكاد بعضهم يقتل بعضاً فقال : أين اختلفوا ؟ قالوا : فى

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الأقضية باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة وأخرجه مالك فى كتاب الكلام باب ما جاء فى إضاعة المال وذى الوجهين

بيت الله . ثم قال وعلام اختلفوا ؟ قالوا : اختلفوا فى صلاة التروايح بعضهم يقول أنها لا تصح إلا ثمانى ركعات ، والبعض الآخر يقول لاتصح إلا عشرين ، وتعصب كل فريق لرأيه وانحازت كل جماعة لصاحبهم .. ووقعت الفرقة فى بيت الله ، ولاحول ولا قوة إلا بالله ، فأدركهم فكادوا يقتتلون بسبب هذا الاختلاف .. فقال لهم : فتواى هى : أن يغلق هذا المسجد فى هذا الوقت وأن لاتصلى التراويح بالمرة الآن ، لأن صلاة التراويح مهما عظم قدرها لا تعدو أن تكون نافلة من النوافل وسنة من السنن ، ووحدة المسلمين واجتماع كلمتهم فريضة وواجب ولا قامت نافلة تصد عن فريضة الله ، إن وحدة المسلمين واجبة وإن الدستور السماوى الذى أكرمنا الله تعالى به فى هذا الشهر الكريم وهو القرآن الكريم دعوة إلى وحدة الصف ، وإلى اجتماع الكلمة ، فعلينا أن نتمسك بهدية الله ، هدية ربكم فى رمضان القرآن الكريم أجل نعمة إلهية ، هدية ربكم هذا الدستور السماوى الذى نزل معجزة لصاحب الرسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ورجا بهذا الكتاب أن يكون أكثر الأمم تابعاً ، وأكثر التابعين وحدة للصف ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة [1])) . هذا الكتاب العزيز هدية الله لهذه الأمة فى رمضان هذا الدستور السماوى لو مكن من قلوبنا ما اختلفنا ولو وعته عقولنا ما تناحرنا فى هذه الأيام وإنما كنا وحدة واحدة لو مكن من القلوب ما وسع أصحابها إلا أن يؤمنوا بمن أنزل القرآن وإلا أن يصدقوا بمن أُنزل عليه القرآن ، هذا الدستور السماوى الذى جعله الله معجزة لصاحب الرسالة ، وجعله هداية إلى أقوم السُبل وجعله عبادة يثاب على قراءته الحرف بعشر حسنات ، وجعل الله تعالى من يُعلّمه ومن يتعلمه خير هذه الأمة حيث قال صلى الله عليه وسلم : ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه [2])) بل يتدارك العبدَ فضلُ هذا الكتاب بعد أن يموت ، وبعد أن يكون قد حيل بينه وبين العبادة هذا الكتاب يكون شفيعاً له ورحمة لصاحبه يا أمة القرآن ياخير أمة أخرجت للناس دينكم .. دينكم ..

(١) أخرجه البخارى فضائل القرآن باب كيف نزل الوحى وأول ما نزل.
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن.

قرآنكم .. قرآنكم .. وحدتكم .. وحدتكم .. لا تختلفوا ولا تنازعوا فإن من قبلكم اختلفوا وتنازعوا ونسوا دعوة القرآن إلى الوحدة فضلوا .. وأضلوا .. وخسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين فلا نريد أن نضل أو نخسر ولكن نريد وحدة تقوم على هدى من القرآن الكريم الذى يدفع الناس إلى كلمة سواء والذى قال فيه رسولنا صلى الله عليه وسلم :

« خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

أو كما قال التائب من الذنب كمن لا ذنب له .. ادعوا الله يستجب لكم..

(٢٩)

عيد الفطر المبارك

الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر ..الله أكبر .. الله أكبر
الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. ولله الحمد

الحمد لله ... منَّ على الأمة الإسلامية بالأعياد وجعلها فواصل زمنية وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد

ففى يوم العيد تنزل رحمات الله لمن يجتمعون للصلاة ولخطبة العيد .. أما الذين لا يكملون سماع خطبة العيد ويخرجون من المسجد دون أن يستمعوا للموعظة فقد فاتهم خير كثير وثواب عظيم وجزاء من الله العلى القدير ، فقد جرت عادة بعض الناس بعد صلاة العيد أن يخرجوا من المسجد متجاهلين ومتناسين أنه يوم الجائزة وأن الملائكة تتلقى الذين يكملون شعائر يوم العيد تتلقاهم الملائكة مهنئين ومباركين وحاملين لهم جائزة رب العالمين، لماذا يستعجلون أيستعجلون من أجل دنياهم؟.. إنها عرض زائل وعارية مستردة، وإن مجلس علم ، خير مما يذهبون إليه وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع فخطبة العيد أيها الإخوة إحدى مجالس العلم بل إحدى شعائر الإسلام ولئن جاز للمسلم أن يصلى العيد وأن يخرج فإن ذلك ليس من كمال العبادة ، وليس من كمال الحصول على الثواب الذى أعده الله تعالى للصائمين القائمين الذين ينتظرون فرج الله وجائزة الله فى يوم العيد لأن هذا اليوم يسمى فى السماء يوم الجائزة ... فبعد أن تصلى العيد ، وبعد أن تستمع إلى الخطبة ينبغى عليك أن تبقى بالمسجد ، وأن تصافح إخوانك وأن تسلم على المسلمين وأن تهنئهم ويهنئوك لتكتمل الفرحة ولتنتظر بعد ذلك أن تصافحك ملائكة الله وأنت على الطريق أما أولئك الذين يتركون الثواب والأجر ويتعجلون الدنيا الفانية فقد تركوا

خيرا وافرا كان عليهم أن يأخذوه من أجل ذلك لابد أن نعلم أن الأعياد فى الإسلام جعلها الله تعالى فواصل زمنية بين العبادات ... فقد جاء عيد الفطر عقب فريضة الصيام كما جاء عيد الأضحى عقب فريضة الحج إلى بيت الله الحرام فربط رب العزة كل عيد من الأعياد بعبادة عظيمة من أعظم العبادات لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة به صلى الله عليه وسلم وجدهم يتخذون يومين يلعبون فيهما فسألهم ماهذان اليومان ؟ قالوا : هذا يومان كنا نلعب فيهما فى الجاهلية ونلهو فنحن نلعب فيهما أيضا بعد الإسلام وهما : يوم النيروز ويوم المهرجان فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : لقد أبدلكم الله تعالى بهما خيرا منهما يوم الفطر ، ويوم الأضحى [١] . وعيد الفطر أيها الإخوة المؤمنون هو يوم الجائزة يكافئ الله سبحانه وتعالى فيه عبادة الصائمين وينادى ملائكته : أغدوا إلى عبادى الصائمين ، فتغدو الملائكة إليهم تصافحهم وتهنئهم وتبارك هذا اليوم العظيم المبارك وإن هذا اليوم ... وهو يوم عيد الفطر المبارك يمثل الفرحة الأولى للصائمين فى الدنيا لينتظروا الفرحة الأخرى يوم لقاء الله لأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقى ربه فرح بصومه[٢]» **ففى يوم الفطر حيث يفطر الصائمون فى هذا اليوم يفرحون على أن وفقهم الله تعالى إلى هذه العبادة التى تكفل بثواب أصحابها ، ويفرحون بالجائزة وبالرحمة التى تتنزل عليهم ولقد أباح الله تعالى فى هذا اليوم من اللّهْو المباح ، ممايروح به المسلم عن نفسه حتى** إن السيدة عائشة رضى الله عنها كانت تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى هذا اليوم وسمح وأذن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنظر إليهم وهم يلعبون بالدرق وفى هذا اليوم أيضا أباح الله تعالى من الترويح على النفس مايوضح أن هذه الشريعة السمحة جاءت سمحة فى كل تعاليمها لاتزمت فيها ولا تشدد ولا غلو فيها ولا إسراف وذلك أنه فى يوم عيد من الأعياد دخل سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه على بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ابنته السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها فوجد جاريتين تغنيان بغناء بعاث وهو يوم من

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة باب صلاة العيدين، وأخرجه النسائى فى كتاب صلاة العيدين.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم باب هل يقول إنى صائم إذا شُتم.

الأيام المشهورة التى كانت فيها حرب بين الأوس والخزرج وكانت لهم أغان أشبه بالأغانى لوطنية يتذكرون هذا اليوم ومافيه فأبو بكر الصديق نهر ابنته السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها ، وقال لها : مزمارة الشيطان فى بيت رسول الله .. تقول السيدة عائشة : فلما غفل غمزتهما ، أى لتخرجا ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أدار ظهره ، فالتفت إلى أبى بكر وقال له : ياأبا بكر ألم تعلم أن هذا اليوم عيد ؟ إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا)[1] دعهما ياأبا بكر إن لكل قوم عيدا وإن هذا اليوم عيدنا لتعلم اليهود أن فى ديننا فسحة إنى بعثت بالحنيفة السمحة» [2] فوضح سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أن فى هذا ترويحا عن النفس وأن شريعةالإسلام التى بعث بها هى الحنيفية السمحة ولا يمكن أن يكون فى هذا الإصرار على شىء محرم حاشا لله ، ولا يمكن أن يقر شيئا من الأغانى المحرمة ، التى لايرضاها الله فى كلامهما ولا فى غنائهما وإنما هو الترويح عن النفس . بما هو حلال ، إن هذا اليوم المبارك العظيم الذى أباح الله سبحانه وتعالى فيه الترويح عن النفس ... يجب على المسلمين أن لا يتخذوا من ذلك ذريعة للسخط وارتكاب ماحرم الله فى يوم العيد باسم الترويح عن النفس ،ويجب عليهم أن يصونوا حرماتهم ، وأن يصونوا أعراضهم وأن يصونوا شرفهم وأبناءهم لا أن يذلوا أو أن يضلوا فى يوم جعله الله يوم فرح وسرور ويوم جائزة يُثيبُ بها أولئك الصائمين القائمين الذين عبدوا الله حق عبادته ، وإنه ليوم مبارك جدير بكل مسلم فيه أن يبدأ أخاه بالسلام وأن يصافح إخوانه ، وأن يصطلح مع الذين سبق أن خاصمهم ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول «لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام [3] »

فمن كان مخاصما لأخيه فليذهب وليبدأه بالسلام وليصطلح مع أخيه ومن كان قاطعا لأرحامه فعليه أن يبادر فى هذا اليوم المبارك العظيم وأن يصل أرحامه وأن يزور أقاربه وإذا كان قد وسع الله عليه فليوسع عليهم فى هذا اليوم وعلى أبنائه وعلى أحبائه وعلى

(١) أخرجه البخارى فى كتاب العيدين باب سنة العيدين لأهل الإسلام.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل ٦ / ١١٦.

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الاستئذان باب السلام للمعرفة وغير المعرفة وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الهجرة فوق ثلاثة أيام بلا عذر شرعى.

جيرانه ، إنه يوم التواصل ، يوم التواد ، يوم التراحم ، يوم المحبة والفرحة والألفة بين المسلمين ولقد صان الله تعالى هذا اليوم عن أن يكون موطنا لمذلة إنسان أو أن يمد فقير يده ، فكلفنا الإسلام أن ندفع زكاة الفطر قبل أن نصلى العيد حتى نغنى فقراءنا عن أن يمدوا أيديهم أو أن يذلوا أنفسهم فى هذا اليوم فقال سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم : «أغنوهم عن السؤال فى هذا اليوم» فمن دفعها قبل صلاة العيد فهى زكاة مقبولة ومن أخرها إلى مابعد العيد فهى صدقة من الصدقات ولا تسقط عنهم لأنها تصبح دينا فى عنقه، أيها الإخوة المؤمنون إن يوم العيد فى الإسلام يوم له جلاله وبهاؤه فعلينا أن نتواصى فيما بيننا بالحق وبالصبر وبالصلح بين المتخاصمين وبصلة الأرحام التي أمرنا ووجهنا إليها سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث قال «من سره ان يبسط له فى رزقه أو ينسأله فى أثره فليصل رحمه» [1] وقال رب العزة سبحانه وتعلى فى الحديث القدسى : (أنا الرحمن .. خلقت الرحم وشققت له اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته [2] » وقد تعلقت الرحم بعرش الرحمن وقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة فقال رب العزة لها أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فهو لك ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : –

اقرءوا إن شئتم فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم» [3] ولاتنتظر من قريبك أن يصلك هو أولا ثم تصله أنت بعد ، بل أبدأ أنت بالصلة أولا . فصلة الرحم الحقيقية تتضح بصورتها المثلى بأن تبدأ الذين قاطعوك وأن تقوم بصلتهم أنت لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : «ليس الواصل بالمكافىء ... ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها[4] » يعنى ليس الواصل بالمكافئ.. أى الذى إذا زاره قريب يزوره،

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع باب من أحب البسط فى الرزق. وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها.

(٢) أخرجه أبو دواود فى كتاب الزكاة باب فى صلة الرحم .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب من وصل وصله الله.

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب ليس الواصل بالمكافئ.

ليست هذه صلة هذه تسمى مكافأة على زيارته ولكن الواصل أى الذى يصل رحمه حقيقة هو الذى إذا قطعت رحمه.. هو الذى يبدؤها ويزورها.. وهناك من الأرحام... من يكره قريبة ويبغضه.. وربما يحمل له العداوة، فحين يكون هذا القريب فقيراً يكون ثوابه أكثر لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (أفضل الصدقة الصدقة على ذى الرحم الكاشح)(1) أى القريب الذى لا يحبك لأنها تكون خالصة لله وتكون استجابة لصلة الرحم حتى وإن كان يسئ إليك، أو يقطعك أو يجهل عليك، فإن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى ، وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ، وأحلُم عنهم ويجهلون علىّ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: لئن كنت كما قلت فكأنما تُسفُّهُم الملّ ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك(2) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى الحديث أن هذا الرجل الذى له قرابة يقوم بصلتهم وهم يقابلون صلته بالقطيعة، ويُحسن إليهم ويقابلون إحسانه بالإساءة ويكون حليما معهم وهم يجهلون عليه، فالنبى صلى الله عليه وسلم قال له: إن كنت كما تقول فكأنما تسفهم المل.. والمل هو الرماد الحار أى كأنك ترمى فى وجوههم التراب الحار تبكيتا لهم وتقريعاً وتوبيخاً ، ثم قال له : «ولا يزال معك من الله ظهير»، أى أن الله معك ، والملائكة معك والله يؤيدك، والله يكون فى رعايتك وهدايتك، ولايزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك فعلينا أن نصل أرحامنا، وأن نصطلح مع إخواننا وأن نجعل من هذا اليوم المبارك يوم فرح وسرور ويوم تعاطف وتحاب وتواد هذا فيما بيننا وفى داخل مجتمعنا أما المجتمعات الدولية، فيجب على الأمم والدول أن تتواصى بالحق، وأن تتواصى بالصبر وأن تمد يد التعاون فيما بينها للدول الفقيرة وأن تمد يد التراحم للأقليات الإسلاميةوللدول الإسلامية الناشئة التي تحتاج من الأمة الإسلامية أن تكون يداً واحدة وأن تتعاون معها على البر والتقوى وأن تكـون يداً واحدة أو كما قال.. التائب من الذنب كمن لاذنب له، ادعوا الله يستجب لكم .

---

(1) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل ٣ / ٤٠٢.

(2) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها .

(٣٠)

واجب المسلمين فى نصرة إخوانهم من الأقليات الإسلامية

الحمد لله.. حمداً يليق بجلاله وكماله، سبحانه وتعالى.. له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شئ قدير، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ، ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، بيده مقاليد السموات والأرض يُعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شئ قدير. ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله، فبلغ رسالة ربه أعظم ما يكون التبليغ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه. اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد فيا جماعة المؤمنين فى كل يوم تطالعنا الأنباء بما يجرى فى بعض بلاد العالم الإسلامى، وما يتعرض له المسلمون فى البوسنة والهرسك وغيرها من تصفية جسدية وقتل وتعذيب وإبادة. وما كان لمؤمن على ظهر هذا الكوكب الأرضى يعلم بما يجرى لأخيه المسلم فى أى موقع كان على خريطة العالم ويسكت . وما كان له ليقف مكتوف اليدين، فإن الدول التى تقف مكتوفة الأيدى من بلاد المسلمين دون أن يتحركوا من أجل إخوانهم يصدق فيهم قول سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم «من أصبح لايهتم للمسلمين فليس منهم ، ومن أصبح وهمه غير الله فليس من الله» [1] . وإن الذين تجاهلوا الموقف ولم يصغوا لتلك الأنباء وما يجري لإخوانهم المسلمين. يصدق فيهم هذا الحديث

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان وأبو نعيم فى حلية الأولياء.

وأما الذين وقفوا بجانب إخوانهم معاونين لهم فهم المؤمنون حقا ومن أوائل الذين نادوا بحل المشكلة ومدوا يد العون ... بلدنا ودولتنا العزيزة.. مصر .. والحمد لله ولئن كان موقفها مشرفا وموقف غيرها من دول الإسلام كذلك، فإن هذا وحده لايكفى بل لا بد أن يقف المسلمون جميعاً عن بكرة أبيهم ولا يكفى ما يتردد من أنباء وما يتردد لدى بعض الدول .. من شجب لهذا العدوان أو من إدانة لأولئك المعتدين ، أو من دعوة لأن يكون لهم عضوية فى تلك المنظمة الدولية.. إننا نريد إنقاذاً عاجلاً ؛ لأن الدعوة.لأن يكونوا أعضاء أو الدعوة بأن تحل مشاكلهم أمر يسير فى خطوات تأتى عاجلاً وآجلاً . لكن الأمر الخطير الذى لا يحتمل التسويف ولا التأجيل هو أن تهبّ الدول الإسلامية عن بكرة أبيها لتكوّن قوة ردع إسلامية تكون لها الصولة، وتكون له القوة ؛ لتتمكن من إيقاف هذا العدوان وغيره على أى بلد من بلاد العالم الإسلامى ، أو على الأقليات الإسلامية وذلكم هو الواجب الذى وضحه لنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بين أن كل إنسان مؤمن يؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا له حق على أخيه المؤمن فى أى موقع كان وفى أى بلد كان وفى أية دولة كانت ، له حق عليه لأن المؤمنين جميعاً كالجسد الواحد. كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [1] والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، من أجل ذلك نقول إن نصرة هؤلاء المظلومين وإن الوقوف فى وجه أولئك الظالمين أمر واجب.. واجب على المسلمين جميعاً حكومات وشعوباً، وأفراداً وجماعات، أن يقفوا فى مواجهة الظالمين المعتدين وأن يقفوا إلى جوار المظلومين المعتدى عليهم، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : «أنصر أخاك ظالما أو مظلوماً، فقال رجل : يارسول الله، أنصره إذا كان مظلوما، أفرأيت إن كان ظالما، كيف أنصره ؟ قال: «تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره» [2].

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم، وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم . واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الإكراه باب يمين الرجل لصاحبه.

فوقوف المسلمين جميعاً اليوم تجاه هذا العدوان على هؤلاء المسلمين وعلى الأقليات أمر واجب، وأمانة فى أعناقهم يحاسبون عليها يوم لقاء الله ، إذا كنا نؤيد بحرارة أولئك الذين وقفوا مع المظلومين ودافعوا وقاموا برد الظلم عنهم فإننا نقول إن ذلك لايكفى، إن لم تذهب وفود البلاد الإسلامية لتدفع الظلم عن هؤلاء المظلومين ولتنقذ هذه الأرواح المؤمنة التى لا يحل قتلها بحال من الأحوال، لقد أعطى الله تعالى للنفس الإنسانية حرمة وجعل لها ذمة وأماناً فلا يحل لأحد كائناً من كان أن يهدم هذه النفس ولا أن يعتدى عليها ... ، فالمؤمن بنيان الله ملعونٌ من هدم بنيان الله، إن حرمة النفس الإسلامية، وإن صيانتها . وإن تأمينها من أن يعتدى عليها كان حقاً أوجبه الله تعالى على الناس جميعاً، وحكم على الذين يعتدون على حرمة النفس الإنسانية بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (١)

ولكى يُرى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين إل أى مدى تكون حرمة الدم وحرمة النفس طاف على ملأ من أصحابه بالكعبة المشرفة، وهى أول بيت وضع للناس، وأشرف بقعة على ظهر الأرض، طاف بها مشيراً إليها، ورافعاً صوته على ملأ الناس قائلا: «ما أطيبك، وما أطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك. والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك» (٢) انظروا إلى أى مدى كانت حرمة النفس الإنسانية التى صانها الإسلام، ولم يبح بحال من الأحوال لأى إنسان أن يغتال أخاه الإنسان أو أن يسفك دم أخيه الإنسان، .. حتى ولو كان قاتلا ؟ نعم .. فما جعل الإسلام القصاص بأيدى الناس، وإلا كانت الحياة فوضى تنتشر المذابح دم هنا، ودم هناك.. بل جعل الله القصاص فى يدى ولىّ الأمر حتى يُقام حق الله، والقرآن يقول:﴿ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (٣)

---

(١) سورة النساء آية ٩٣ .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب البر والصلة باب ماجاء فى تعظيم المؤمن، وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الفتن باب حرمة دم المؤمن وماله.

(٣) سورة الإسراء آية (٣٣)

هذا الحق بينه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الصحيح حين يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة» (١) ودون ذلك لايحل أبداً ،بل تظل حرمة الإنسان، مادام قد صلى، وما دام يستقبل القبلة، وما دام لم يكفر بالله . ففيما رواه البخارى فى صحيحه يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة ورسوله فلا تخْفروا الله فى ذمته» (٢) أى لا تخونوا الله فإنكم حين تعتدون على نفس إنسان قتلاً أو سفكا لدمه، تخونون الله وتهدمون بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، إن الرجل الذى كان فى سرية وحين شذّ أحد أولئك ورأى أنه ليس مسلماً ، وأراد أن يشهر السيف عليه فنادى الرجل وقال لاإله إلا الله، فإذا بأسامة يقتله، وإذا به حين يُرفع أمره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحمر وجهه وينفعل ، ويقول له : أقتلته بعد أن قال لا إله إلاالله؟ قال: يا رسول الله : إنما قالها تعوذاً وخوفاً من السيف .. فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : هلا شققت عن قلبه ؟ ثم ظل يكررها ثلاث مرات ، ويقول للرجل : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ، أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟ كيف تصنع بلاإله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ .. انظروا ماذا كان جواب الصحابى عليه، بعد أن سمع غضب النبى صلى الله عليه وسلم ، قال الصحابى فما زال يكرر ها على – أى قوله أقتلته بعد ما قال لاإله إلا الله – حتى تمنيت أن لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»(٣) .

تمنى الصحابى أن لم يكن أسلم قبل هذا ولم يكن منه ما كان من قتل هذه النفس التى قتلها وهو يرى أنها تستحق القتل ، لكنها فى مبدأ النبى الرءوف الرحيم لا تحل أبدا.. لا يحل لإنسان أبداً أن يستحل دم أخيه ولو رآه فاسقا ؟ .. حتى ولو رآه فاسقاً، لماذا ؟

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الديات باب قول الله تعالى : «إن النفس بالنفس والعين بالعين إلى آخر الآية وأخرجه مسلم فى كتاب القسامة باب مايباح به دم المسلم.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة باب فضل استقبال القبلة.

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب تحريم قتل الكافر بعد قول لا إله إلا الله.

لأنك لا تدرى ، قد يؤيد الله الدين بالرجل الفاسق كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد يتوب الله عليه كما تاب على الكثيرين ممن شهدوا المشاهد وانتصر الإسلام بهم ، فما كان ليبيح لإنسان أن يقتل نفسا ، لكن بعض الناس قديستحلون سفك الدماء ومعنى يستحلون : يرون أنه حلال يقولون هذا الإنسان كافر، أو هذا الإنسان منافق، أو هذا إنسان ظالم، أو ما إلى ذلك مما يُبرره الشيطان لهم .. وهنا خطورة أيها الإخوة لا بدأن نتنبه إليها .. إنك إذا ارتكبت ذنباً وأنت معتقدٌ بأنك ارتكبت ذنبا فلك عقوبة الذنب ، لكن حين ترتكب ذنباً وأنت تعتقد أنه حلال، وأن قتل النفس حلال فالإسلام يقول لك : من استحل ما حرم الله فقد خرج من دين الله وكفر بالله، وهنا الخطورة ، ومن أجل ذلك نقول لكل من يحاول أن يعبث بدم أخيه الإنسان ودم أخيه المسلم إن صيانة دم المسلم واجبة ، وإن العدوان عليه بأى سبب من الأسباب مرفوض شرعاً، ومن استحلها خرج من الإسلام ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول «أبى الله على من قتل مسلما ثلاث مرات» [1] صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبى الله.. نعم .. لأن من استحل دم المسلم خرج من الإسلام بالمرة، وإذا كان هذا أيها الإخوة فى حق المسلم مع أخيه المسلم، فما بالنا في الدم الذى يُراق من إخواننا المسلمين بأيدى غيرهم ، من غير المسلمين ، والعدوان على الأقليات الإسلامية بتلك البلاد ؟ ! أيليق بنا نحن المسلمين أن نتفرق ونتشرذم ويُعادى بعضنا بعضاً، ويقتل بعضنا بعضاً، والعدو هناك يحصد المسلمين إبادة وقتلا، أيليق بالمسلمين هنا أن يتفرقوا وأن يحدثوا شروخا بين فصائل الشباب المسلم وبين الرجال والشيوخ والكبار والصغار، وبين الدول بعضها مع بعض، يتفرقون ويعادى بعضهم بعضاً، وأهل الباطل يتجمعون حول باطلهم، أو ليس هذا من المخزيات للمسلمين أن يتفرقوا وأن يتعادوا وأن يتظالموا وأعداؤهم يتجمعون ويتوحدون ليسحقوهم، وليبيدوا الأقليات منهم.. أليس ما يحدث فى تلك الجمهوريات ناقوس خطر يدق فى كل شبر فى أرض العالم . ينبه المسلمين أن يتوحدوا مناديا لهم لقيام وحدتهم ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[2] يناديهم أن يتوحدوا .. فلِمَ يُباد المسلمون؟ وما ذنبهم ؟ وما جريمة الذين يعتنقون هذا الدين؟ أليس هذا الدين

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل ٤ / ١١٠ ، ٥ / ٢٨٩

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

خاتم الأديان؟ أليس كتابه ودستوره كلمة السماء الأخيرة ؟ أليس رسوله خاتم الأنبياء والمرسلين؟ أليسوا على حق ؟ أليس من قوانين الإسلام أن تصان النفس الإنسانية مسلمة كانت أوغير مسلمة، أو أليس القرآن الكريم قد نادى بأن يأمن حتى المشرك حين قال رب العزة ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[1]

فلم إذن العدوان على قوم دينهم يأمر بالأمان والسلام، ما انتشر بالسيف ولا بالقوة وإنما انتشر بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن، إن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ما اعتدى على نفس خالفته فى الدين قط بل بالعكس، كان يُعنى بأحد زعماء الكفر وصناديد الباطل ممن آذوه وآذوا أصحابه وآذوا الإسلام يقول أبو هريرة رضى الله عنه بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سوارى المسجد فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ماذا عندك ياثمامة؟ فقال: عندى يا محمد خير إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ، فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان من الغد فقال :

ماذا عندك يا ثمامة؟ قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ، فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان من الغد فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال عندى ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ماشئت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. أطلقوا ثمامة – انظر إلى سماحة الإسلام ورحمة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم! هذا الرجل الذى كان يعمل السيف فى المسلمين وفى وسعه صلى الله عليه وسلم أن يبطش به اليوم ، رأى الرجل هذه السماحة التى اتصف بها منهج الإسلام فراجع نفسه وتساءل : ما هذا الدين؟ كنت عدوهم بالأمس وتمكنوا منى فأطلقونى ، والله لابد لهذا الدين من أثر ومن حكمة ، ولا بد أنه على حق ، وظل يفكر وجاء ليعلنها صريحة مدوية مؤمنا بهذا الدين . يقول أبو هريرة رضى الله عنه: انطلق ثمامة إلى نخل

---

(١) سورة التوبة آية (٦)

قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، يامحمد والله ماكان على الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك فقدأصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىّ، والله ماكان من دين أبغض إلىّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلىّ وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت؟ فقال : لا ولكنى أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا والله لايأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]

هذا هو الإسلام فى جوهره وفى دعوته إلى الحق، فهل أتباع هذا الدين يؤذون ويضطهدون، هل أتباع هذا الدين الذى يدعو إلى السماحة والأمان والسلام - يتعرضون للإبادة والتصفية.

إن واجباً على المسلمين فى كل الأرض أن يوحدوا صفوفهم، وأن ينقذوا إخوانهم المسلمين وأن يشاركوا بالمال والأنفس وبكل ما استطاعوا لإنقاذهم.

والله من وراء القصد، أو كما قال : التائب من الذنب كمن لا ذنب له. ادعوا الله يستجب لكم.

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه.

(٣١)

ذكر الله

الحمد لله رب العالمين ، حمد الذاكرين الشاكرين، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك بيده الملك يحيى ويميت وهوحى لايموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله ، وجهنا إلى ذكر ربنا سبحانه وتعالى بالغدو والآصال.. اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعـد الله لهم مغفرة وأجراً عظيمـا . أما بعـد ، فيا جماعة المسلمين ، من معالم ديننا الحنيف التى أمرنا الله سبحانه وتعالى بها أن نذكر الله سبحانه وتعالى، وأن نذكره فى كل وقت وحين، وأن نذكره بالغدو والآصال، وأن نذكره ذكراً كثيراً، وأن نذكره إذا أخذنا النسيان وشغلتنا مطالب الحياة وغرتنا فيها الأمانى، وغرنا بالله الغرور . علينا أن نذكره لأنه قال ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ (١)

لأن فى ذكر الله تعالى مطردة للشيطان ونحن فى عصر برغم ما وصلت إليه الحضارة من متع للحياة ومن نعيم للإنسان ومن وسائل للرفاهية، برغم ما وصلت إليه الحضارة من ذلك كله فإنها وإن أراحت الإنسان فى نومه، وإن متعته فى طعامه وشرابه، وإن أسعفته فى وسائل انتقاله، وإن هيأت له ظروف الحياة المادية ، فإن تلكم الحضارة بكل مخابرها وأجهزتها وبكل علمائها والقائمين عليها، لم يستطيعوا. بحال من الأحوال أن يدخلوا الأمن النفسى فى داخل الإنسان وفى قلبه، فعاش الناس فى قلق، وعاش الكثير فى أرق، ويستيقظ الواحد منهم كل صباح فيستشعر الانقباض ويحس أنه ضـائق به صدره ، ويبحث عن الأسـباب

(١) سورة الكهف آية ٢٤

فلا يعلم الأسباب إلا مسبب الأسباب سبحانه وتعالى، يستيقظ الإنسان كل صباح ، ومنا من يشعر أنه ضائق الصدر، منقبض النفس، ولم ياترى ؟ ويأخذ يبحث فى الأسباب ، ومنا من تزل به القدم ومنا من يحار به الفكر، ومنا من يظن أن الجن قد ركبه، ومنا من يظن أنه يحدثه ويكلمه، ومنا من يتخبطه الشيطان، ولايدرى كيف الخلاص؟ ولو رجعنا إلى مأدبة القرآن الكريم لوجدنا العلاج الناجع فى صيدليتها الربانية ؛ لأن رب العزة بين لنا أنه لا يمكن لمن يذكر الله تعالى أن يقترب منه الشيطان، ولايمكن لمن يذكر الله تعالى أن يوسوس له الشيطان، ولا أن يضيق صدره بوساوس الشيطان فإنه قال سبحانه :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (١) أى أن الذى يبتعد عن ذكر ربه سبحانه هو الذى يكون الشيطان قريبا منه ، ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا ، أما الذى لا ينسى ذكر ربه، ويظل ذاكراًربه فى كل وقت وحين لا ينسى خالقه، فإنه يجد انشراحاً فى صدره ، والارتياح فى قلبه ولا يجد ذلك الضيق، ولاتلك الوسوسة، ولاهذه الهواجس التى يستشعرها سواه، وكان ذلك من أهم ثمرات ذكر الله تعالى ، وإن الذكر يطرد الشيطان . وإن البعد عن الذكر يقرب الإنسان من الشيطان، ومن ثمرات ذكر الله تعالى أنك تكون قريبا من ربك . وأن الله تعالى يكون معك بالعون والنصر والتأييد يستجيب دعاءك إذا دعوته، ويلبى نداءك إن ناديته، ويذكرك إن ذكرته لأن الله تعالى يقول فى كتابه العزيز : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (٢) فاذكرون أذكركم ، أى إنك حين تذكر ربك سبحانه يذكرك ربك فأية عظمة وأية ثمرة تحصل عليها حين تذكر ربك ؟ إن الله تعالى بعظمته وجلاله يذكرك أيها الإنسان بنص القرآن «فاذكرونى أذكركم» ولذلك جاء فى الحديث القدسى «أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى» أى أنك حين تذكر ربك : ثق .. بأن الله معك وإذا كان الله معك فلن يضرّك أحد، وإذا كان الله معك فالخير والتأييد والرعاية الربانية معك ، لأنه يقول وقوله الحق « أنا عند ظن عبدى بى » .

إنه يعلن سبحانه أنه مع عبده حين يذكره ، وأنه عند حسن ظن العبد به. أى إذا أحسنت الظن بالله خيرا، فسيأتك الخير، وإذا أحسنت الظن بالله فرجاً فسيأتيك الفرج، وإذا

(١) سورة الزخرف آية ٣٦

(٢) سورة البقرة آية ١٥٢

أحسنت الظن بالله يسراً فسيأتيك بعد العسر يُسر ، «أنا عند ظن عبدى بى» رأى أحد سلفنا الصالح أخاً له فى المنام بعد أن توفاه الله فقال له! يا أخى بماذا أقبلت على ربك؟ فقال له: أقبلت عليه بذنوب كثيرة محاها حسن ظنى بالله - أنا عند ظن عبدى بى، فمن ظن بربه خيراً وذكر ربه بالخير فليعلم أن الله معه «أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملأ خير منهم، وإن تقرب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلىّ ذراعا تقربت إليه باعاً، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة» (١) سبحانك يا ربنا يا ذا الجلال والإكرام ، يذكرك عبدك الفقير الضعيف فتذكره بجلالك وعظمتك ويذكرك فى ملأ من أهل الدنيا على ظهر هذه الأرض، فتذكره فى ملأ السماوات والأرض ، ويقترب منك فتزيد الاقتراب من العبد، أى كرم هذا وأية رحمة هذه؟ إنها تدعونا بأن نذكر ربنا بالغدو والآصال ، لأننا حين نذكره وكان الإنسان محتاجاً إلى خير فى الدنيا أو فى الآخرة يحققـه له الله سواء كان هذا الذكر صلاة تتقرب بها إلى الله أو تلاوة للقرآن الكريم، أو استغفاراً من الذنب أو ترديدا لكلمة التوحيد : لاإله إلاالله محمد رسول الله، فإنه بكل أنواع الذكر من تسبيح ومن تحميد ومن تهليل «لاإله إلا الله» ومن تكبير.. كل هذه الأنواع من الذكر تقربك من الله علام الغيوب . ومن ثمرات ذكر الله تعالى أن كثيراً من قلوب البشر تضطرب وتتهيب وتتخوف لأننا خُلقنا بنوازع بشرية ورُكبت فينا شهوات إنسانية مادية ، فمنا من تأخذه شهوة الجنس، ومنا من تشده شهوة المال ومنا من تشده شهوة الشهرة ، ومنا من تشده شهوة القوة، شهوات ونوازع رُكبت فى الإنسان وفى بشريته وفى آدميته ومن أجل هذه النوازع نراه لايهدأ له بال، ولا يستقر به حال ، وترى قلبه وهو المحرك لجوارحه لايمكن أن يطمئن ، يضيق مرة، وينقبض أخرى ويغضب مرة، ويضطرب أُخرى ، فلا يطمئن القلب أبدا ، ولا يستريح بحال من الأحوال ،حـــتى وإن أوتى خيرات الدنيا ، حتى وإن أصبح أغنى الناس حتى وإن أصبح فى أرفع المناصب والوظائف وجمع أكثر الأموال فلا يمكن أن يصل إلى طمأنينة القلب إلا بذكر ربه كما قال جل

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ويحذركم الله نفسه، وقول الله تعالى : تعلم ما فى نفسك ولا أعلم ما فى نفسك وأخرجه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة ، واللفظ للبخارى.

شـأنه : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (١) يا من اضطربت قلوبكم على ظهر هذه الحياة، ويا من اختلفتم فيها شيعاً ومذاهب، ويا من حادت بكم الأقدام على ظهر هذه الأرض، فبعثرت خطاكم المادة، وجرفتكم الشهوات ، وفرقتكم الفتن والمحن والأهواء إن أردتم أن تعودوا إلى صراط ربكم ، وأن توحدوا أمتكم على كلمة واحدة فالدواء فى القرآن الكريم: ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ فاذكروا ربكم بكتاب الله، فاقرءو ه آناء الليل وأطراف النهار ولنردد كلمة التوحيد، فإنها تعصم دم الإنسان الذى يقولها كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» (٢)

إن كلمة التوحيد تعصم دماءك ومالك ، ولا يحل لأحد أن يقترب من المال أو الدم لإنسان نطق وقال لا إله إلاالله محمد رسول الله، من قالها عصم منى دمه وماله الإبحقها وحسابه على الله ، لنا الظاهر والله يتولى السرائر ، إن فى ذكر الله غناء عن الدنيا وماديتها ، وكما جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه حين هرع المهاجرون وفقراء المهاجرين إلى سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم وقالو له : «يارسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور» أى ذهب الأغنياء بالثواب الكبير، فقال لهم ماذا ؟ قال الفقراء إن الأغنياء يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، ولكنهم يزيدون علينا بأنهم يتصدقون بفضول أموالهم ويحجون ويعتمرون ، ونحن لا نستطيع أن نتصدق لأنه ليس لدينا المال ، ولانستطيع أن نحج أو نعتمر فما ذنبنا فى هذا ؟ وقد خلقنا الله فقراء وخلقهم أغنياء ؟ فقال لهم النبى الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم : ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتم من قبلكم ولايدرككم من بعدكم إلا من فعل مثلكم ؟ قالوا بلى يارسول الله قال: تسبحون الله وتحمدون الله وتكبرون الله ، دبر كل صلاة ، يعنى عقب كل صلاة مفروضة ثلاثا وثلاثين أى يقولون ، سبحان الله ثلاثا وثلاثين ، والحمد لله ثلاثا وثلاثين ،

(١) سورة الرعد آية ٢٨.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب كفاية اعتقاد الإسلام بغير تعلم الأدلة فى الإيمان.

والله أكبر ثلاثا وثلاثين فيكون العدد تسعا وتسعين ، وتمام المائة لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير ، فأخذ الفقراء وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وراحوا يطبقونها عقب كل صلاة يسبحون ويحمدون ويكبرون ، فسمعهم إخوانهم الأغنياء ففعلوا مثل مافعلوا وأخذوا فى التسبيح والتحميد والتكبير ، فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له : يارسول الله إخواننا الأغنياء سمعونا نسبح ونحمد ونكبر ، فسبحوا وحمدوا وكبروا ، ، إذن مازالوا يتفوقون علينا بفضول أموال يتصدقون ويحجون ويعتمرون ، فأجابهم بقوله «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» [1] إن ذكر الله سبحانه وتعالى الذى يعادل هذه الأعمال الجليلة وقد نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه التسبيحات والتكبيرات والتحميدات من لم يكن لديهم مال ينفقون منه أو يحجون أو يعتمرون وفى هذا دلالة على أن لذكر الله تعالى مكانة عند الله سبحانه وتعالى عظيمة، وحسب الذاكرين أن مجالسهم بعيدة عن الشيطان ، بعيدة عن الأهواء والفتن ، قريبة من الله الرحمن الرحيم «مااجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» [2] إن مجالسهم محفوقة بالملائكة ، وإن الله تعالى يقبل مجالس الذاكرين ويقبل كل من جاء مجالس الذاكرين ، حتى وإن لم يكن منهم ، لأنه ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم: «إن لله ملائكة سيارة - أى تسيح وتسير على الأرض - وفى رواية البخارى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم منهم : مايقول عبادى ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال : فيقول : هل رأونى ؟ قال : يقولون : لا والله مارأوك ، قال : فيقول : كيف لو رأونى قال : يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة . وأشد لك تمجيدا ، وأكثر لك تسبيحا . قال : يقول : فما يسألوننى ؟ قال : يسألونك الجنة ، قال : يقول وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا ، والله

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

يارب مارأوها ، قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة ، قال : فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون : من النار ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : فيقولون : لا ، والله يارب ما رأوها ، قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة ، قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال . يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لايشقى جليسهم [1] .

إن جليس الذاكرين لايشقى ، وإن جليس الصالحين لايشقى ، وإن جليس العلماء لايشقى ، وإن جليس الأتقياء لايشقى ، هم القوم لايشقى جليسهم .

فعلينا أن نحافظ على ذكر ربنا لنطرد الشيطان من صفوفنا ، ولتصفو قلوبنا ولتتنزل السكينة على نفوسنا ، وحتى نعيش حياتنا آمنة مطمئنة لايفزعها خوف ، ولا يفرقها رعب ولا قلق ، ولا أرق. فالسكينة و الطمأنينة فى كتاب الله ، فعودة إلى كتاب الله ، وعودة إلى حديث سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فقد قال «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى[2] » أو كما قال : التائب من الذنب كما لاذنب له ، ادعوا الله يستجب لكم.

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات باب فضل ذكر الله عز وجل وأخرجه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء باب فضل مجالس الذكر.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الحج باب حجة النبى صلى الله عليه وسلم .

(٣٢)

من ثمرات فريضة الحج

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلاله وكماله ، سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شيء قدير .

نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ، ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره ، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، بيده مقاليد السماوات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ الرسالة وعرف الناس دينهم وأركانه من صلاة وصيام وزكاة وحج وغير ذلك ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه . اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أمـا بعـد ..

فيما معشر المسلمين ، فى هذه الأونة وضيوف الرحمن يشدون رحالهم إلى بيت الله الحرام فى رحلة العمر التى أوجبها الله سبحانه وتعالى على المستطيع ، يجدر بنا أن نلقى نظرات على ماتشتمل عليه هذه العبادة ، وماتشتمل عليه مناسكها من دعوة عالمية للإنسانية جمعاء أن تعيش فى سلام وأمان .

فإن الله تعالى شرع من عباداته عبادات أوجبها فى كل يوم كالصلاة ، ومنها ماأوجبه الله فى كل أسبوع كصلاة الجمعة ، ومنها ماأوجبه فى كل عام كصيام شهر

رمضان ، ومنها ماأوجبه فى العمر كله مرة واحدة على المستطيع وهو الحج إلى بيت الله الحرام .

هذه العبادة يجتمع فيها المسلمون على شوق، أولئك الذين تحقق فيهم شرط الاستطاعة، وشاء الله لهم أن يحظوا بهذه العبادة ، يتلاقون فى صعيد واحد وبزى واحد، فى مؤتمرهم العالمى الإسلامى ومع شعائرهم ومناسكهم يتدارسون كبرى قضاياهم حتى يكونوا خير أمة كما أراد ربهم سبحانه وتعالى ، ولو نظرنا إلى لحظات بناء هذا البيت أو إلى ماقبل بناء إبراهيم بقليل لهذا البيت حين ترك ابنه الرضيع وأمه فى هذا المكان وذهب إلى الشام وتناديه الزوجة قائلة : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولاشىء ؟ فلايلتفت وثانية وثالثة فلما لم تر منه جوابا قالت له الزوجة العاقلة الحصيفة : آالله الذى أمرك بهذا ؟ فأجابها قائلا : نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا . وتمكث الأم مع رضيعها وفى سقائها بعض الماء وفى جرابها بعض التمر ، حتى إذا نفد الماء والتمر وجاع الرضيع وجاءت الأم وتراه يتلوى أمامها – وللأم عاطفتها التى لاتعادلها عاطفة فى الوجود – فذهبت مسرعة إلى جبل الصفا تنظر علها تجد الغوث وتهرول إلى المروة وتعود إلى الصفا حتى أكملت سبعة أشواط ، وفى نهاية الشوط السابع سمعت الغوث ، ومن هنا كان السعى بين الصفا والمروة ، سمعت الغوث وجاء الملك وقال بعقبه فإذا بالمكان الذى كانت جالسة فيه يتفجر منه الماء فكانت عين زمزم التى جعلها الله شفاء من كل داء وأغاث الله تعالى الأم ورضيعها ، وتمر الأيام ولكن حين فجر الملك ماء زمزم ماذا قال للأم فى هذه اللحظة التى أغاثت السماء هذا الرضيع وأمه ، وتغيث الأمة على مر أدوارها ، لقد قال الملك حين تفجر ماء زمزم التى قال عنها النبى صلى الله عليه وسلم «ماء زمزم لما شرب له» [(١)].

لقد قال الملك لأم إسماعيل حين كانت خائفة مرتعدة على نفسها وولدها ؟ قال لها : لاتخافوا الضيعة – أى لا تخافوا الضياع ولا الهلاك– فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله [(٢)] .

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده والبيهقى فى السنن الكبرى وابن أبى شيبة فى مصنفة عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء.

إن أهل هذا البيت، أهل هذه الدعوة، أهل هذا الدين لن يضيعهم الله سبحانه وتعالى، وما إن مرت الأيام وجاء إبراهيم وأمره الله ببناء البيت وكان يناوله ولده إسماعيل - الذى كان رضيعا وتقدمت به السن - فإذا ماأكمل البناء قال يارب اقتربت ، فيقول له الله «وأذن فى الناس بالحج» قال يارب وماذا يبلغ صوتى الضعيف أنادى من ؟ لايوجد أناس أناديهم ولا صوتى بالقوة التى تمتد عبر الدنيا ، فيقول له رب العزة ، ماعليك إلا الأذان وعلينا البلاغ.

فيقف إبراهيم فيؤذن فى الناس بالحج ويقول : أيها الناس لقد كتب الله عليكم الحج فحجوا ، فيبلغ الله نداءه إلى كل أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى أن تقوم الساعة ، فما من أحد يحج إلا وهو يلبى هذه الدعوة قائلا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك، وتحمل هذه العبادة بمناسكها المتعددة معانى السلام والأمان التى يجتمع من أجلها المسلمون من كل أنحاء الدنيا ، ويتدارسون كبرى قضاياهم ويدعون إلى الوحدة والسلام وإلى الأمان ، ولها آثار فى دنياهم وأخراهم ، لها آثار فى دنياهم فى مغفرة ذنوبهم وتطهيرهم «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »[1] وللحج آثاره فى سعة الرزق فإنه ينفى الفقر وتلك آثار دنيوية واقتصادية يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحج المبرور ثواب دون الجنة»[2].

ومن هنا ندرك ماللحج من أثر دينى ودنيوى ، وماله من أثر فى مغفرة الذنوب ، ومالرسولنا صلى الله عليه وسلم من رحمة وشفقة على أمته حين دعا عشية عرفة أن يغفر الله لأمته فيجيبه رب العزة قائلا : إنى قد غفرت لهم ماخلا الظالم فإنى آخذ للمظلوم منه ، قال : أى رب إن شئت أعطيت المظلوم الجنة وغفرت للظالم .فلم يجب عشيته ، فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء فأجيب إلى ماسأل ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تبسم.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الحج باب فضل الحج المبرور، و أخرجه مسلم فى كتاب الحج باب فضل الحج والعمرة.

(٢) أخرجه النسائى فى كتاب مناسك الحج باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة.

فقال أبو بكر وعمر بأبى أنت وأمى إن هذه لساعة ماكنت تضحك فيها فما الذى أضحكك؟ أضحك الله سنك . قال : «إن عدو الله إبليس لما علم أن الله عز وجل قد استجاب دعائى وغفر لأمتى أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه ويدعو بالويل والثبور. فأضحكنى مارأيت من جزعه» (١) .

إن من رحمته صلى الله عليه وسلم ورفقه بأمته أنه لاينساها ويدعو الله سبحانه وتعالى لها .

إن هذا البيت الذى أوجب الله علينا حجه وجعله حرما آمنا وجعله مثابة للناس وأمنا، جعل وقته وقتا حراما ، ومكانه مكانا حراما ، ولايحل فيه القتل ، ولايحل فيه الترويع، ولايحل فيه أن يخيف الإنسان شيئا ما، فقد جعل الله الإنسان فيه آمنا وجعل الطير والحيوان آمنا فلايحل الصيد فيه ، وجعل الشجر والنبات آمنا فحرم قطع الشجر حتى الشوك حرم الله قطعه فى الحرم .

كل ذلك يعلمنا ويغرس فى نفوس المسلمين أن يعيشوا فى أمن وسلام فيما بينهم ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (٢)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إن إبراهيم حرم مكة وإنى حرمت المدينة مابين لَابَتَيهْا، لا يقطع عضاهها ولايصاد صيدها» (٣) .

ولقد قرر الإسلام احترام الإنسان واحترام أمنه فى هذه الشعيرة الهامة التى حج فيها النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وهو يقول للمسلمين ويبين لهم حرمة الدماء وحرمة الأموال وحرمة الأعراض: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم ، ألا هل بلغت ؟ قالوا :

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب المناسك باب الدعاء بعرفة.

(٢) سورة البقرة آية ١٢٥

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الحج باب فضل المدينة ودعاء النبى صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة.

نعم . قال : اللـهم اشهد، فليبغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدى كفـارا يضـرب بعضـكم رقاب بعض » [1] . فعـبادة الحـج بما تحمله من معـان كريمة وبما تحمله من تجمع إسلامى كبير على أعلى مستوى وعلى مختلف اللهجات والأجناس والألوان يجتمع الناس من كل فج عميق يؤدون هذه الشعيرة التى أوجبها الله تعالى مرة واحدة فى العمر للمستطيع؛ حتى يتمكنوا من أداء هذه المناسك ، وحتى يتدارسوا كبرى قضاياهم ومشاكلهم التى تعن لهم فى أوطانهم ، وحتى يوحدوا صفوفهم لنبذ الخلافات ولتقوية شوكة الأمة الإسلامية ، وما أحوجنا فى هذه العبادة وفى هذه الشعيرة التى يتجمع فيها أكبرعدد من المسلمين ، ما أحوجنا إلى أن نستوصى وأن نوصيهم أن تكون مدارستهم لقضاياهم ، وهذا له أكبر الأثر ، وله أكبر التناول لهذه القضايا التى تقض مضاجع الأقليات الإسلامية وتقض مضاجع الآمنين فى الأوطان الإسلامية .

وإذا كـانت دعـوة الحج ومناسك الحج ومظاهر بيت الله الحـرام دعـوة إلى الأمن والسلام فلنقل لأولئك الذين حاولوا تخريب السلام وتخويف الناس وإرهابهم ، نقول لهم : إن الذين يخالفون شعائر الدين وشعيرة السلام والأمان هم خارجون عن حظيرة الإسلام لأن من أولى تعاليم هذا الدين « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» [2] ومن أولى تعاليم هذا الدين «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم» [3] والذين يستحلون دمـاء النـاس يخـرجـون من الإسلام بالمـرة ويكونون مـخـلـدين فى النـار بنص القـرآن الكريم ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [4] ورسولنا صلى الله عليه وسلم يقـول : «أبى الله أن يجعل لقـاتل المؤمن توبة» [5] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الحج باب الخطبة أيام منى، وأخرجه أيضا فى كتاب الأدب باب قول الله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم» .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب بيان تفاضل الإسلام وأى أموره أفضل .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب الإيمان باب ما جاء المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

(٤) سورة النساء آية ٩٣ .

(٥) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير ، والضياء المقدسى فى المختارة .

وإن فريضة الحج أيها الإخوة يجب على من كتبها الله تعالى له أن يطهر نفسه قبل أن يخرج ، وأن يتحرى المال الحلال ، وأن يكتب وصيته ، فالآجال بيد الله ، وعليه أن يتوب توبة نصوحا ، وأن يرد المظالم ، وأن يقلع عن ذنبه ، وأن يندم على مافات ، وأن يعزم على عدم العود ، وأن يذهب وهو طاهر مقبل على ربه عسى الله أن يجعل حجه مبرورا وسعيه مشكورا.

وإذا كانت هذه العبادة تحمل هذه الدلائل ، وتحمل هذه الآثار الدينية والدنيوية التى ألمحنا إلى بعضها - فإننا لابد أن ندرك أن أداء هذه العبادة الذى يحصل الحاج منها على هذه الآثار، وأنه يعود كيوم ولدته أمه إنما هو لمن أدى الحج مبرورا ، أى لم يخالطه إثم ، أى لم يكن فيه فسوق ولا عصيان ولا جدال ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ (١)

فليحافظ ضيوف الرحمن على أنفسهم وعلى أداء مشاعرهم على أكمل وجه ، على أداء الواجبات والأركان والسنن ، وأن يكونوا إخوة متحابين ، وأن ينبذوا الخلافات والأثرة والأنانية ، وأن يذهبوا أصدقاء ، وأن يعودوا أكثر صداقة، ولايكون أحدهم كأولئك الذين يذهبون أصدقاء ويعودون فى خصومات فيما بينهم ، لابد من الاحتمال فى هذه الرحلة التى يخالف الإنسان فيها إلفه وعادته ووطنه وأولاده ، فإنه إن أدى الحج على هذا النحو كان حجه مبرروا .

قال صلى الله عليه وسلم : «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » (٢) .

وعنه أنه قال : التائب من الذنب كمن لاذنب له، ادعوا الله يستجب لكم .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الحج باب وجود العمرة وفضلها، وأخرجه مسلم فى كتاب الحج باب فضل الحج والعمرة.

(٣٣)

بـر الوالديـن

الحمد لله حمد العابدين الصادقين ، نحمده سبحانه وتعالى على ماأنعم به علينا من نعم لا تحصى وأفضال لاتستقصى ،﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[1] ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نقر فيها بربوبيته ونؤمن فيها بعظمته ووحدانيته .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وليهديهم إلى صراط ربهم المستقيم ، وليدعوهم إلى البر بربهم والبر بآبائهم وأمهاتهم والبر بأنفسهم وبسائر عباد الله الصالحين .

اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمـد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين المخلصلين البارّين ، الذين ساروا على منهاج الحق فرضى عنهم أجمعين .

أما بعد ... فياجماعة المسلمين ...

إن أول أمر وصى به القرآن الكريم بعد وصيته بتوحيد الله سبحانه وتعالى وعبادة الله سبحانه وتعالى هو البر بالوالدين ، وصى القرآن الكريم بالبر بالوالدين والإحسان إليهما بعد الوصية مباشرة بعبادة الله ،حيث قال جل شأنه﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾[2] ومعنى هذا أن الوصية بالوالدين تأتى مباشرة بعد الوصية بعبادة الله وحده ، بل إن القرآن الكريم حين أوصى العباد بشكر رب العباد أمرنا مباشرة بعد الأمر بشكر الله أن نشكر الوالدين ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾[3] .

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٤ .

(٢) سورة الإسراء آية ٢٣ .

(٣) سورة لقمان آية ١٤ .

وهذا ينبهنا إلى أمر هام وهو أن عبادة الله سبحانه وتعالى وفرض الله سبحانه وتعالى له المقام الأول ولايليه شيء فى الوجود أبدا قبل البر بالوالدين ، وهو حين يقول «وبالوالدين إحسانا» لم يقل ولا تقصر فى شأن الوالدين مثلا ، ولم ينه عن الإساءة إلى الوالدين مثلا لأن عدم الإساءة وعدم التقصير أمر طبيعى وضرورى وليس فيه شىء ذو بال، وإنما لابد مع عدم التقصير وعدم الإساءة أن يصل البر إلى درجة أن تحسن إلى أبيك وأمك ﴿ وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما﴾ لأنهما حين تتقدم بهما السن قد يحتاجان إلى شئ من الصبر فى المعاملة وإلى شىء من الجهد فى الخدمة ، وإلى شىء من الاحتمال فى الأسلوب .

فالقرآن يقول : ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما﴾ والإسلام يدعو إلى عزة النفس ، فإنه لم يبح لنا أن نخشع ونخضع ونذل ونضع أشرف عضو فى أجسامنا وهو الجبهة سجودا إلا لله رب العالمين، ثم بالنسبة إلى الوالدين يقول : ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ لأن الوالدين هما السبب المباشر فى وجودك فى الحياة ، ولأنهما بذلا من الجهد والمشقة والعناء فى سبيلك مالم يبذله أحد ، ولأن لهما فضلا لايسبقهما إليه إلا خالق السماوات والأرض وهو رب العالمين ، ولذلك جاءت الوصية بهما بعد الله تعالى مباشرة ، ومن أجل ذلك قدم البر بالوالدين على النافلة ، قدم بر الوالدين على السنن لأن الله جعل الوصية بهما بعده مباشرة وبعد الفرض مباشرة ، وبعد طاعة الله مباشرة ، فإذا كان أمام إنسان خيار بين أن يفعل سنة أو يبرّ أبا أو أما فعليه أن يقدم بر الوالدين على السنة أو النافلة . والدليل على ذلك الحديث الصحيح الذى رواه البخارى فى صحيحه من حديث جريج الراهب العابد الذى كان فى بنى إسرائيل ، والذى جاءته أمه ذات مرة وهو يصلى النافلة ويتطوع ويقف بين يدى ربه سبحانه وتعالى فلما نادته تردد وقال : ياترى أظل فى صلاتى وأنا واقف بين يدى رب العزة سبحانه وتعالى أم أجيب نداء أمى ودعاءها ؟ فآثر الصلاة وأن يقف بين يدى ربه ، وهذا أمر يستجيب له كل إنسان ، فاحتاجته مرة ثانية وألحت عليه فى الدعاء والنداء فقال : ياترى أأجيبها أم أظل واقفا فى صلاتى، فآثر أن يظل

واقفا بين يدى الله فغضبت عليه الأم وقالت : اللــهم لاتمه حتى يرى وجوه المومسات .
فمـاكان من هذا الرجل إلا أن جاءته إحدى المومسات تدعوه إلى نفسها فأبى ، وراحت تتزين له فلاينظر إليها فجاءت إلى أعرابى فواقعها وحملت فلما وضعت وقالوا لها : من أين لك هذا وأنت غير متزوجة ؟ قالت : من هذا الرجل الذى يزعم أنه عابد وصالح ، فجاءوا له فى صومعته وهدموها عليه ، وقالوا له :كيف تدعى كيت وكيت وتلك المرأة تقول إنك قد فعلت معها الفاحشة انظر إليها فضحك ، فى هذه الأزمة الخانقة يضحك ، ماالسبب فى ضحكه ، تذكر دعوة أمه عليه حين قالت : اللــهم لاتمته حتى يرى وجوه المومسات .
وعلم أن دعوة الأم لاترد عندئذ ضحك وهو يعلم أنه على حق ويعلم أنه مظلوم ولكن دعوة الأم استجيبت فيه فى شىء بسيط حتى جاء فى بعض روايات الحديث الصحيح أنها لو دعت عليه لاتمته حتى تفتنه لفتن ، ولكنها دعت فقط حتى يرى وجوه المومسات فضحك فلما قالوا له ماأضحكك فى هذه الأزمة ؟ قال : لأن أمى دعت على هذه الدعوة ، فقال لهم : أمهلونى حتى أصلى لله فأمهلوه قبل أن يوقعوا عليه العقوبة ، فلما توضأ وصلى لله ركعتين واستغفر من ذنبه فى عدم استجابته لأمه وتوجه إلى الله بركعتين وقالوا له انظر ماذا جنيت وماذا جرى من ورائك ؟ فوقف بقلب ثابت إلى الطفل المولود منذ ساعات وقال له : أيها الطفل بحق من خلقك من أبوك حقا ؟ فقال : أبى هو الراعى وأنت من المظلومين ، وإليك نص الحديث كما أورده البخارى :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان رجل فى بنى إسرائيل يقال له جريج يصلى ، فجاءته أمه فدعته فأبى أن يجيبها ، فقال : أجيبها أو أصلى ، ثم أتته فقالت : اللــهم لاتمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكان جريج فى صومعته ، فقالت امرأة : لأفتننّ جريجا ، فتعرضت له فكلمته ، فأبى ، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها ، فولدت غلاما ، فقالت : هو من جريج ، فأتوه وكسروا صومعته ، وأنزلوه ، وسبوه ، فتوضأ وصلى ، ثم أتى الغلام ، فقال : من أبوك ياغلام ؟ قال : الراعى، قالوا نبنى صومعتك من ذهب ، قال : لا إلا من طين » [1] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه.

يقول أئمة الحديث النبوى وشراح هذا الحديث الذى رواه البخاري فى صحيحه إن دعوة الأم لا ترد ، وليس بينها وبين الله حجاب ، فحين دعت عليه بهذه الدعوة كان يضحك ولو دعت عليه ألاَّ يموت حتى يفتن لفتن ، ويستدلّ أئمتنا من الفقهاء بهذا الحديث الصحيح على أن بر الوالدين مُقَدَّمٌ على كل نافلة وسنة وهذا تكريم من رب العزة سبحانه وتعالى للوالدين اللذين كانا سببا مباشرا فى وجود الإنسان للحياة.

وهنا ندرك أيضا أهمية بر الوالدين، وأهمية دعاء الوالدين، ولدعاء الأم أثر خاص كما يقول القائل :

لا يـردُّ القـضـــاءَ شـىء وكـادت   دعـوة الأم أن ترد القـضـاء

نعم . لقد خصها الله سبحانه وتعالى بمزيد بر حتى حين سُئل الرسول صلى الله عليه وسلم من أحد المسلمين من أحق الناس بحسن صحابتى؟

«قال : أمُّك قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال: ثم مَنْ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال: أبوك» [1] **فوصَّى بالأم ثلاث مرات ، لماذا ؟ لأن للأم ثلاث خصوصيات لايشاركها الأب فيها ، الأم هى الوحيدة التى تحمل، والأم هى الوحيدة التى تلد، والأم هى الوحيدة التى ترضع. فالحمل والولادة والرضاع خصوصيات تتعب الأم** وتنصب فيها فاختصت بالوصية بها ثلاث مرات أكثر من الأب . وهذا تكريم من رب العزة سبحانه وتعالى للأم، وهو حين يوصى الأبناء بآبائهم وأمهاتهم، ويجعل البرَّ مقدما على النافلة أحيانا يقدم البرعلى الفريضة حين تكون مثلا فرض كفاية أو حين يقوم غيرنا بهذا الواجب وفيه الغناء أو حين تكون الطاعة ويكون البر بالوالدين أهم وألزم من هذا مثلا الجهاد وهو فريضة فحين يستأذن أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجهاد يسأله النبى صلى الله عليه وسلم ويقول له: أحيٌّ والداك ؟ قال : نعم قال **«ففيهما فجاهد»** [2] يرجعه من الغزو والحرب والجهاد ويقول: عُد وفى والديك جاهد.

وعن أبى سعيد رضى الله عنه أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله صلى

(١) رواه البخارى ومسلم.   (٢) رواه البخارى ومسلم.

الله عليه وسلم ، فقال: هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواى، قال : أذنا لك ؟ قال : لا ، قال : فارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما» [1] .

انظروا إلى سماحة هذا الدين وإلى رأفة هذا النبى ورحمته صلى الله وعليه وسلم وإلى دعوته إلى البر بالوالدين إلى هذا الحد الذى وصل هذه المرتبة التى قدم فيها برّ الوالدين على النافلة بل وعلى الفريضة حين تكون فرض كفاية أو حين يكون هناك من يكفى .

وبهذا ندرك أهمية برِّ الوالدين فى وقت تنكر فيه الكثير من الأبناء لوالديهم نعوذ بالله من بعض شبابنا الذين جحدوا فضل آبائهم وأمهاتهم وكانوا عاقين لهم ، فى عصر أصبح فيه الولد حين يسمو فى رتبته أو وظيفته يكاد يتخلى عن والديه ويستعلى عليهما، وإذا بلغ أحدهما أوكلاهما الكبر يَدفع بهما إلى دار المسنين وبابئس ما يفعل هؤلاء الأبناء حين لايكون الوفاء منهم لآبائهم وأمهاتهم، وهل فى دور المسْنين العواطف التى ولدنا بها من بطون أمهاتنا ؟ وهل فى دور المسنين ما فى هذه القلوب من الرحمة ، وهل تذكر وأنت تدفع بأبيك أو أمك إلى دور المسنين كيف كانت الأم تسهر ؟ وكيف كانت تؤثر راحتك على راحتها وسعادتك على سعادتها وحياتك على حياتها ، وهى ترى أن حياتك عندها أغلى من الدنيا وما فيها ، هل هذا هو الوفاء ؟ أبعد أن بلغ أحدهما أو كلاهما الكبر تتنكر لهما على هذا النحو يا ويل أولئك العاقين لآبائهم وأمهاتهم.

واعلموا أيها الإخوة المؤمنون أن الله إذا كان يعذب العبد على معصية أو على جناية أو على فاحشة يرتكبها فى الدنيا فيعاقبه عليها فى الآخرة ، فاعلموا أن المعصية الوحيدة التى يعاقب عليها فى الدنيا قبل الآخرة هى عقوق الوالدين والعياذ بالله، يعاقب عليها فى الدنيا قبل الآخرة ، وحسبنا دليلاً على ذلك ماروته كتب السنة المعتمدة عن هذا الذى احتضر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وساعة الموت راحوا يلقنونه الشهادة ويقولون له: قل أشهد أن لاإله إلا الله فيتوقف لسانه، وإذا حدثوه حديثا يُجيب ، فانظروا إلى العجب العجاب يتكلم ويجيبهم ولكن حين يطلبون منه أن ينطق بالشهادة يتوقف لسانه ولايستطيع أن ينطق

---

(١) رواه أبو داود.

بالشهادة حتى عجب المسلمون وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: انظر إلى فلان هذا نلقنه الشهادة فلا يستطيع أن ينطق بها ، فيسألهم هل كان يعرف ربه ويؤدى حقوق الله ويصلى؟ فيجيبون : نعم ،كان يصلى معنا وكان يأتى المسجد فى كل صلاة ، ما تأخر عن فريضة من الفرائض.

فيقول لهم : أله أم؟ فيقولون نعم . فيقول ، ائتونى بأمه. فيأتون بأمه فيسألها: ماحال ابنك هل كان من الصالحين؟ فتقول :نعم كان من الصالحين ، قال : ألم يرتكب معصية ؟ فتقول : لم يرتكب معصية. فيسألها : وكيف حاله معك ؟ قالت : كان عاقا لى وأنا غاضبة عليه يارسول الله. (عندئذ أدرك المصطفى صلى الله عليه وسلم وأدرك الصحابة ما أصاب هذا الشاب من توقف لسانه عن النطق بالشهادة وأراد النبيُّ الرؤوف الرحيم بأمته أن يثير عاطفة الأمومة وعاطفة الحنان عند الأم ، وللأم قلب لايُعادله قلب فى الوجود من الرحمة .

أراد أن يثير عاطفتها فأمر أن تؤجج نار فتقول الأم لماذا؟ قال: لألقى ابنك فيها فإن نار الله وعذابه أشد من عذاب الدنيا، فأراد أن يثير عاطفتها ، فقال صلى الله عليه وسلم : إلاَّ أن تصفحى عنه، وأن تشهدينى على ذلك فقالت يارسول الله : أشهد الله وأشهدك أنى قد عفوت عن ولدى وسامحته فى عقوقه، فقالوا له . انطق بالشهادة فقال: أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : «الحمد لله الذى أنقذه بى من النار» وإليك نص الحديث : عن عبد الله بن أبي أو في رضى الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتاه آتٍ فقال : شاب يجود بنفسه ، فقيل له : قل : لا إله إلا الله ، فلم يستطع ، فقال : كان يصلى ؟ فقال : نعم ، فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهضنا معه فدخل على الشاب فقال له : قل لا إله إلا الله ، فقال : لا أستطيع ، قال : لم ؟ قال : كان يعق والدته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أحيّة والدته ؟ قالوا : نعم ، قال : ادعوها ، فدعوها ، فجاءت ، فقال : هذا ابنك ؟ فقالت : نعم ، فقال لها : أرأيت لو أججت نار ضخمة فقيل لك : إن شفعت له خلينا عنه ، وإلا حرقناه بهذه النار أكنت تشفعين له ‹ قالت : يارسول الله إذا أشفع ، قال : فأشهدى

الله وأشهديني أنك قد رضيت عنه ، قالت : اللـهم إني أشهدك وأشهد رسولك أني قد رضيت عن ابني ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياغلام قل لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمد عبده وسوله ، فقالها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار » (١) فحمد الرسول صلى الله عليه وسلم ربه، انظروا أيها الإخوة المؤمنون إلى نبأ هذا الرجل الذي حكته لنا كتب السنة الصحيحة ، والذي لامرية في خبره ، وكان في عهد النبوة أشرف العهود، وكان يؤدي حقوق الله، ولكن انظروا كيف وصل عقوق الوالدين به إلى درجة كادت تحبط كل ثوابه وكل عباداته وكل أعماله.

من أجل ذلك حين يوصينا القرآن الكريم بالبر بالوالدين عقب الوصية بعبادته مباشرة ، يريد منا أن نعيش في مرضاة الله وفي طاعته سبحانه وتعالى، وقد يقول قائل : وما موقفي الآن وقدمات أبي أو ماتت أمي أو مات الأبوان، كيف أدرك البر بالوالدين؟ كيف أكون باراً بهما؟ وأجيبه قائلا : لقد سـأل أحد المسـلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله هل بقي من برَ أبويّ شئ أبرهما به بعد موتهما؟ قال له : «نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لاتوصل إلاَّ بهما ، وإكرام صديقهما» (٢). فهو يبين أن صلة الرحم وأن برّ الوالدين حيث كان الأبوان أو أحدهما موجودا فالبر واضح: أن تخضع لهما وأن تبرهما وأن تقف معهما بالإحسان إلى الدرجة النهائية ، ولكن بعد انتقالهما ووفاتهما يمكن أن تقوم بالبر بالوالدين بالصلاة عليهما ومعنى الصلاة عليهما: الدعاء لهما، فالدعاء يصل إلى الميت، والدعاء يصل إلى الوالدين «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاَّ من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أوولد صالح يدعو له» (٣) وهذا معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: الصلاة عليهما والاستغفارلهما أن تستغفر لأبويك، وصلة الرحم التي لاتوصل إلا بهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، إذا كان هناك عهد بينك وبين أبيك أو أمك أو وصية عليك أن تنفذها ، وإكرام صديقهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، فحين تكرم أقارب الأب

---

(١) رواه الطبراني وأحمد.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم.

(٣) رواه مسلم.

وأقارب الأم، وتكرم صديقهما من بعدهما تكون باراً بالوالدين، والصديق هو الرجل الذى كان صديقا لأبيك أو امرأة كانت صديقة لأمك، ورُوىَ أن سيدنا عبد الله بن عمـر رضى الله عنهما كان يركب دابة فى شدة الحر وكان على رأسه عمامة تقيه من حرارة الشمس وكان فى قدميه خف فقابل إنساناً فى شـدة الحرّ من الأعراب يمشى حافيا وكان عـارى الرأس فنزل عبدالله بن عمر عن دابته ووضع عمامته على رأس الرجل فقال له خادمه : هؤلاء الأعراب يا ابن عمـر ويكفيـهم القليل من ذلك فلم نزلت عن الدابة ولم خلعت عمامتك من على رأسك ؟ فقال له هذا الرجل كان أبوه صديقا لأبى عمر بن الخطاب والرسول صلى الله عليه وسلم قال : «إن مـن أبرّ البر أن يبرّ الرجل أهل ود أبيه» وإليك نص الحديث : عن عبد الله بن عمـر رضى الله عنهما أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبدالله بن عمر، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، قال ابن دينار فقلنا له : أصلحك الله فإنهم الأعراب وهو يرضون باليسير، فقال عبدالله بن عمر : إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إن أبر البر صلة الولد أهل ودّ أبيه» [1] .

فانظروا كيف صان الإسلام حرمة الوالدين وأمر بالبر بهما حتى بعد أن ينتقلا إلى جوار الله سبحانه، فلا غرابة أن نسمع رسولنا صلى الله عليه وسلم وهو يقول حين صعد المنبر ، وكان من ثلاث درجات وكان يخطب الجمعة عليه فحين صعد الدرجة الأولى قال آمين، وحين ارتقى الثانية قال آمين، وحين ارتقى الثالثة قال آمين، فسألوه وقالوا يارسول الله سمعناك تقول آمين ، وليس هناك من دعاء نسمعه فما السبب فى قولك آمين آمين آمين ثلاث مرات.

روى الإمام أحمد فى مسنده وغيره أنه عليه الصلاة والسلام أجاب بقوله أما الدرجة الأولى التى قلتُ فيها آمين فقد جاءنى جبريل وقال :رغم أنف من ذكرت عنده ولم يصل عليك قُلْ آمين فقلتُ آمين. وأما الثانية فجاءنى جبريل وقال: رغم من أدركه شهر رمضان فلم يغفر له قل آمين ، فقلتُ آمين . وأما الثالثة فقال : رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يغفر له قُلْ آمين فقلتُ آمين .

أو كما قال : التائب من الذنب كمن لا ذنب له . ادعوا الله يستجب لكم.

(١) رواه مسلم.

(٣٤)

الرحمــة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلاله وكماله. سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شئ قدير.

نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ، ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره ، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له بيـده مقاليد السماوات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شئ قدير.

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله، بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فبلغ رسالة ربه أعظم ما يكون التبليغ ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه.

اللـهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد فياجماعة المؤمنين.

إن جوهر الدين الإسلامى الذى نؤمن فيه بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – نبيا ورسولا هو الرحمة. فالرحمة جوهر هذه الرسالة التى بعث الله بها خاتم الأنبياء والمرسلين. وعبَّر القرآن الكريم عنها ملخصا ومُقّصرا رسالة هذا النبى الخاتم في الرحمةَ. وكأن ربه سبحانه لم يبعثه للناس ولم يرسله لهذه الأمة إلاَّ من أجل أن ينشر الرحمة فيها، وأن يبعث الرحمة فى كل أرجاء الكون فى كل زمان وفى كل مكان . لقد جعل الله الرحمة جوهر رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم فقصرها عليه وعبَّر فى كتابه العزيز مخاطبا نبيه ومصطفاه وقائلا له : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [(١)] وعلماء

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

البلاغة يقـولون عن هذا التعبير : إنه أسلوب حصر ، أو أسـلوب القصر أى أنك لم ترسـل إلاّ بهذه الرحمة «وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين».

فكل ما جاء به وما ينزل عليه ما هو إلا رحمة حتى ما يظنه البعض بأن فيه شدة كالحرب مثلا والجهاد فإن ذلك رحمة، حتى ما يتبادر إلى أذهاننا لأول وهلة من شدّة فى الحدود والعقوبات شرعها الإسلام أيضا رحمة . فكل ما فى هذا الدين: رحمة .

فالعقيدة – التى نؤمن فيها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره – رحمة، والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج: رحمة، والمعاملات من بيع وشراء وزواج وغير ذلك: رحمة، والجهاد والحرب والاستشهاد فى سبيل الله: رحمة، والحدود والعقـوبات التى شرعها الإسـلام : رحمـة ، إذا اسـتبان لنا الحق فى هذه الأمـور يتضح بما لا مجال للشك فيه أن فى العقيدة رحمة لأنها رحمت الخلق من أن يسجدوا أو أن تعنو وجوهم لغير الخالق القادر ذى القوة المتين، فهى ترحمهم من أن يذلوا أنفسهم لغير الله، أو أن يسألوا أحدا غير الله، أو أن يستعينوا بمخلوق غير الله.

وفى العبادة رحمة لأنك مهما حملت من هموم الدنيا ومن مشاكلها ومن متاعبها ثم ذهبت تتوضأ تتســاقط مع قطرات الماء الذى تتوضأ به ذنوبك وأوزارك فيطهرك الله تطهيرا ، وفى هذا رحمة ، فإذا ما وقفت بين يدى الرحمن الرحيم وكبّرت تكبيرة الإحرام وقلت الله أكبر فأنت فى معية العزيز الرحيم سبحانه وتعالى وفى ذلك رحمة . ثم إذا صمت واتجهـت بصـومك لله فطهّرك من الذنوب وقرّبك وصـرت من المتقين فى ذلك رحمة وإذا ما قهرت فى نفسك الشح والبخل ومددت يدك عطفا على الفقراء والمحتاجين زكاة أو صدقة فى ذلك رحمة، وإذا أديت فريضة الحج وأنت مستطيع فعرفت كيف تصل حبالك بالله، وكيف توثق صلتك بخالقك وبأمتك فى ذلك رحمة، وإذا تعاملت بالبيع والشراء والأمانة والصدق فى ذلك رحمة لك ولمن تتعامل معهم . لكن قد يرى البعض أن هناك أشياء فيها مشقة على النفس فكيف تكون فيها الرحمة؟ ففى الجهاد يبذل الإنسان نفسه ويضحى بروحه ويستشهد . فأين الرحمة هنا ؟ نقول ما شرع الله تعـالى الجهاد عـدوانا على الغير

ولا تسلطا على الآخرين، وإنما شرعه الله دفاعا عن النفس والمال والأرض والعرض ورحمة بالمحتاجين والضعفاء والنساء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فحين يستشهد واحد أو أكثر في سبيل الله دفاعا عن أمن الناس وعن وطنهم ودينهم وعقيدتهم يكون فى ذلك رحمة ، وإن ضحّى بنفسه فله جزاء الشهداء عند الله وقد يتساءل أيضا أين الرحمة فى العقوبات التى يقطع فيها عضو أو يجلد فيها إنسان ؟

نقول : إن فى ذلك رحمة لأنه حين يعلم أن عقوبة ستنزل به فإنه حينئذ سوف يبتعد ، وسوف يحاسب نفسه، وسوف يفكر مرة ومرة قبل أن يُقدم على هذه الجريمة لأن وراءها عقوبة فيكون فى ذلك رحمة لنفسه ورحمة لمن كان سيعتدى عليه.

فلاعجب أن يخاطب الله تعالى رسوله فى كل تشريعاته وفى رسالته برُمّتها وأن يقول لـه : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (١) فيعى موقفه ويدرك خطورة رسالته وينبئ أمته بها فيقول صلوات الله وسلامه عليه موضحا مكانته وموقفه : «إنما أنا رحمة مُهداة» (٢) أى أنه جاء رحمة مهداة من قبل رب العالمين سبحانه وتعالى .

وقد وصف الله نفسه بالرحمة وسمّى نفسه الرحمن الرحيم، وابتدأ بهذين الاسمين من الرحمة جميع سور القرآن «بسم الله الرحمن الرحيم» إلاّ سورة واحدة كان فيها القتال وكانت فيها مواقف وأحكام تتصل بالكافرين والذين عادوا الإسلام وهى سورة التوبة أو سورة براءة .

ابتدأ سور القرآن فيما عداها ببسم الله الرحمن الرحيم، بهذين الوصفين اللذين ينبئان عن أن الله تعالى يرحم جميع خلقه الطائع وغير الطائع حتى غير المؤمن ، ألم ترأن الله يسوق رزقه إلى الجميع! ويبعث بالهواء الذى لولاه ما عاش الإنسان لحظة واحدة، فالماء والهواء والرزق يسوقه للمؤمن والكافر، للصالح والعاصى أليست هذه رحمة كبرى من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب كيف كان أول شأن النبي صلى الله عليه وسلم .

لقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة رب العزة لخلقه حين رأى أما تضم طفلا رضيعا لها، تضمه إلى صدرها فى حنان ورحمة بالغة وإشفاق عظيم ، فسأل أصحابه وقال : أترون هذه الأم طارحة ولدها فى النار؟ . قالوا : لا والله وهى تقدر على أن لاتطرحه ، فقال لهم : لله أرحم بعباده من هذه بولدها [1].

وهكذا يصور رحمة رب العزة سبحانه وتعالى بالخلق على هذا النحو وأنه أرحم بخلقه من الأم بولدها، هذه الرحمة التى تتدارك العباد فى نومهم وفى يقظتهم، فى حلهم وفى ترحالهم، وفى طعامهم وفى شرابهم . ربما فى نفس يتردد أو غصة فى الحلق قد يفاجأ بها الإنسان فيموت، ربما من سنيتمتر واحد بين سيارة وسيارة لواصطدم بها لهلك الإنسان، هناك رحمة الله فى أمور دقيقة قد تخفى على العباد ولكنهم لو تمعنوا فيها لأدركوا أن الرحمة معهم وأن رحمة ربهم تتداركهم فى كل لحظة وفى كل لمحة وفى كل نفس تتداركهم هذه الرحمة ، ولولاها لانطمست معالم الحق وهلك الناس أجمعون . هذه الرحمة يصورها لنا سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ويبين لنا كيف أن هذه الرحمة الكثيرة الغزيرة التى تتداركنا فى كل لمحة ونفس ، ما هى إلا جزء من مائة جزء فيقول صلى الله عليه وسلم ، جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل فى الأرض جزءا واحداً فمن ذلك الجز تتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» [2]

انظروا إلى أى مدى تتدارك رحمة الله تعالى عباده فى الأرض. ومن رحمته أن يبعث لهم رسولا وصفه بصفتين من صفات رب العزة، واسمين من أسماء الله الحسنى حين قال عن رسوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه العزيز: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3]

---

(١) أخرجه البخاري فى كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، وأخرجه مسلم فى كتاب التوبة باب سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب جعل الله الرحمة فى مائة جزء ، وأخرجه مسلم فى كتاب التوبة باب سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه .

(٣) سورة التوبة آية ١٢٨ .

إنه يصف رسوله بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم . صلوات الله وسلامه عليه. من أجل ذلك نراه صلى الله عليه وسلم فى دعوته وفى رحمته بأمته وفى إشفاقه حتى على غير الطائعين وفى رحمته حتى بغير المؤمنين وبغير المسلمين، نراه عليه الصلاة والسلام عندما أوذى واضطهد فى مبدأ الدعوة وطورد من موقع إلى موقع ، وعندما جاءه ملك الجبال من قبل رب العزة يقول له: قد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فيما شئت «إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين» إن شئت أطبقت الجبلين المحيطين على أولئك الذين يعادونك فما كانوا ولا كانت حياتهم، فانظروا ماذا قال للملك - قال : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا [1] ويدعو لهم ويقول : رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون [2] .

لقد كانت رحمته صلوات الله وسلامه عليه التى بعثه بها رب العزة سبحانه وتعالى تدعو الناس جميعا أن يدخلوا فى هذا الدين أفواجا. وما كانت الرحمة بالإنسان فقط وإنما كانت فى الإنسان السوى والإنسان المعاق وفى الحيوان وفى كل دروب الحياة وفى رحمة الإنسان بنفسه ولابد أن يبذل الرحمة حتى يحظى برحمة ربه، إن رحمة الله الواسعة التى بيناها كيف تتدارك الإنسان فى كل لمحة ونفس إن الله تعالى يكتبها للذين يرحمون كما فى الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا أهل الأرض يرحمكم من فى السماء» [3] ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[4]

إن هذه الرحمة تكون للرحماء الذين يرحمون أنفسهم فلايوردون أنفسهم موارد الهلاك ولا يكلفونها مالاطاقة لها به ، ويرحمون آباءهم وأمهاتهم برًا بهم وعطفا عليهم

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم أمين والملائكة فى السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ماتقدم من ذنبه وأخرجه مسلم فى كتاب الجهاد باب مالقى النبى صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب استتابة المرتدين وأخرجه مسلم فى كتاب الجهاد باب اشتداد غضب الله على من قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب فى الرحمة .

(٤) سورة الأعراف آية ١٥٦ .

وإحسانا لهم : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾(١)

فالله تعالى لايبيح الذل لإنسان ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) إلا فى موطن السجود لله حيث نضع أشرف عضو من أجسادنا على الأرض خضوعا لله وذلة له ، وعند الأبوين أن نخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، أن تبلغ رحمتك بهما حيث بلغا مبلغ الكبر، بحيث تكون أشبه بالذليل لأن الناس كثيرا ما ينفرون من البر أو تقصرهممهم عندما يبلغ آباؤهم الشيخوخة والهرم فيدعونا الإسلام إلى الرحمة بالأبوين والرحمة بالأقارب والأرحام يقول رب العزة فى الحديث القدسى : «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته» (٣) وقال صلوات الله وسلامه عليه : «من سره أن يُبسط له فى رزقه وأن يُنسأ له فى أثره فليصل رحمه» (٤) .

والرحمة بالجيران واجب من واجبات المؤمنين فالإسلام ينفى الإيمان عن الذى يضر جيرانه ويؤذيهم ويتسلط عليهم ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : والله لايؤمن والله لايؤمن ، والله لايؤمن قيل خاب وخسر ، من هويا رسول الله ؟

قال : «الذى لا يأمن جاره بوائقه» (٥) أى شروره.

والرحمة بالرحم وبالوالدين وبالجيران والرحمة، بأولئك الضعفاء من أصحاب الحاجات

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة المنافقون آية ٨ .

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الزكاة باب فى صلة الرحم ، وأخرجه الترمذى فى كتاب البر باب ماجاء فى قطيعة الرحم .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب من بسط له فى الرزق لصلة الرحم ، وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها .

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب إثم من لايأمن جاره بوائقه .

ومن أصحاب العاهات ، والرحمة بالإنسان وبمن لايستطيع العمل لأنه غير سليم حيث أباح الإسلام له أن يسأل وأن نتصدق عليه لاعلى الإنسان السوى فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى» (١) ذى مرة أى ذى قوة . وسوى أى : أعضاؤه سليمة، أما الذى ليست أعضاؤه سليمة كالكفيف مثلا والإنسان المعاق فى جارحة من جوارحه علينا أن نمد له يد العون والمساعدة وألا يهزأ أحد به وألا يسخر الإنسان منه كما يفعل بعض ضعاف الإيمان ، بل على المجتمع أن يقوم برعاية هؤلاء الناس الذين خلقهم الله وقد فقدوا بعض النعم التى نتمتع بها .

لقد رأى بعض الصحابة عبدالله بن مسعود على شجرة ، وكان البعض ينظر إل دقة ساقة لأنها دقيقة ونحيفة ونحيلة – فضحك البعض سخرية من نحافة ساقه فالتفت النبى غاضبا وقال : «أتضحكون من دقة ساقه ونحافتها والله إن ساقه يوم القيامة فى الميزان لأثقل من جبل أحد» (٢)

ويرفع من قدر أولئك البسطاء المعاقين الذين يجب أن ينظر إليهم المجتمع أفرادا وجماعات وأمما وشعوبا وحكومات نظرة رعاية ونظرة عناية، ولنعلم أنه يجب علينا أن نكون فى خدمة المعاق الضرير أو الأعرج ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾(٣) إن الذى يقوم برعايتهم وخدمتهم ثوابه مضاعف وجزاؤه عند الله بلا حدود، بحيث يتمنى الإنسان الذى خدم إنسانا معاقا فى الدنيا أن لو كان ذلك كثير ا وأن لوكان ذلك أعظم .

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة باب من يعطى من الصدقة وحد الغنى ، وأخرجه النسائي فى كتاب الزكاة باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها .

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل ١١٤/١ .

(٣) سورة النور آية ٦١ .

(٣٥)

العلاقات الإنسانية فى الإسلام

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شىء قدير . نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ، ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره ، فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له بيده مقاليد السماوات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه وتعالى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وكشف الغمة وهدى إلى صراط ربه المستقيم .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد، فياجماعة المسلمين :

لقد دعا الإسلام إلى توثيق العلاقات الإنسانية ، كما دعا إلى توثيق العلاقة العلوية بين العبد وخالقه ، دعا إلى توثيق العلاقات الإنسانية بين البشر ، بين الإنسان وأخيه الإنسان، وجعل لهذه العلاقات مكانة عظيمة عنده سبحانه وتعالى .

والعلاقات الإنسانية نوعان : علاقات بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين .

أما العلاقات الإنسانية بين المسلمين بعضهم مع بعض فقد أقامها الإسلام على ركيزة الإيمان حيث نظر إلى الجميع على أنهم إخوة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[1] .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٠ .

ونظر الإسلام إلى العلاقات الإنسانية بين المسلمين على أن بينهم رابطة الإيمان . تلك الرابطة التى بسببها ينبغى على كل إنسان أن يحب لأخيه مايحبه لنفسه . فقد قال صلى الله عليه وسلم «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » [١] .

وحتى تنتعش هذه العلاقات الإنسانية بين المسلمين نهى الإسلام عن عديد من الرذائل التى تؤثر على علاقات الناس كرذيلة الظن السوء فنهى عن ذلك كالتجسس و الغيبة والنميمة، كل هذه الآفات نهى عنها الإسلام لأنها تؤثر على علاقات المسلمين فيما بينهم.
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٢].

انظروا إلى الصورة التى يصور بها القرآن تلك الآفة التى تقضى على العلاقات الإنسانية بين البشر ، إنها آفة الغيبة التى فسرها النبى صلى الله عليه وسلم حين قال : أتدرون مالغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ماأقول ؟ قال : إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ماتقول فقد بهته [٣] .

ولقد صور القرآن الكريم الذى يغتاب أخاه المسلم كأنما يأكل لحمه بعد أن مات . انظروا إلى الصورة المقززة ، إنسان ميت كيف تأكل لحمه ، هكذا يصوره القرآن إن كنتم قد كرهتم ذلك فاتقوا الله أن تأكلوا لحوم إخوانكم وأن تنتهكوا أعراضهم ، وهنا يحذر الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول «يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لاتغتابوا

---

(١) أخرجه البخاى فى كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه مايحب لنفسه ، وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان من خصال الإيمان أن تحب لأخيك ماتحب لنفسك .

(٢) سورة الحجرات آية ١٢ .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الغيبة ، وأخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب في الغيبة .

المسلمين ولاتتبعوا عوراتهم ، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته » [(١)] .

وحتى يمكن الإسلام للعلاقات الإنسانية بين المسلمين نهى أن يفتح الناس آذانهم للقيل والقال ، وحذر أولئك الذين يبلغون الناس أو رؤساء الأعمال أو المصالح أو ولاة الأمور عن إخوانهم شيئا فيغلق الإسلام هذا الباب فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «لايبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[(٢)] .

انظروا إلى الرسول المعصوم عليه الصلاة والسلام يخشى أن يتأثر من قالة سوء ينقلها إنسان عن إنسان وهو المعصوم الموحى إليه فما بالك بنا نحن؟! لاشك أن نقل الكلام عن الناس يؤثر ويقضى على علاقات الأخوة والتعاون والمحبة بين الناس .

إن الإسلام حين يحذر من هذه الآفات آفة الغيبة والنميمة والظن السوء والتقاطع والتجسس والتباغض والتدابر يريد أن يجعل أخوة الإسلام نقية صافية يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولاتحسسوا ولاتجسسوا ولاتحاسدوا ولا تباغضوا ولاتدابروا وكونوا عباد الله إخوانا [(٣)] .

ويريد أن ينقينا من هذه الآفات حتى تكون أخوة الإيمان صادقة ، وحتى نتنافس فى عمل البر وفى تعاون الإنسان مع أخيه الإنسان وفى بذل المعروف بين المسلمين بعضهم مع بعض .

ويضرب سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم على ذلك أروع الأمثلة حين كان معتكفا فى مسجده النبوى الشريف الذى تعد الصلاة فيه بألف صلاة فيما سواه وهو فى عبادة الاعتكاف يقع بصره على رجل فى زاوية المسجد رآه كئيبا حزينا ففاتحه ابن عباس وكان معتكفا فى الحرم النبوى الشريف وهم أن يخرج معه وعرض عليه أن يقضى له حاجته .

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب فى الغيبة .

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب باب فى رفع الحديث من المجلس .

(٣) أخرجه البخاري فى كتاب الأدب باب مانهى عن التحاسد والتدابر ، وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها .

فقال الرجل : إن شئت ياابن عم رسول الله ، فانتعل - فأخذ نعله - وخرج مع الرجل سريعا فذكر الرجل سيدنا ابن عباس بما هو فيه من عبادة الاعتكاف فقال له : أنسيت ماأنت فيه من عبادةالاعتكاف يابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .فقال له ابن عباس: مانسيت ماأنا فيه من عبادة الاعتكاف ولكننى سمعت من صاحب هذا القبر - وأشار إلى قبر سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم - والعهد به قريب أنه قال : من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا من اعتكاف عشرين سنة (١) . وفى رواية: « كان خيراً من اعتكافه فى مسجدى هذا عشر سنين».

انظروا إلى عظمة العلاقات الإنسانية وكيف يزكى الإسلام تعاون المسلم مع أخيه المسلم ، إنه كما نظر إلى علاقات المسلمين الإنسانية فيما بينهم نظر إلى علاقة المسلمين بغير المسلمين ، العلاقات الإنسانية بأهل الذمة ، بالمعاهدين ، والمستأمنين ، فى أول خطوة ينظم فيها النبى صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة الجديد بعد هجرته يبرم وثيقة ويعقد معاهدة بينه وبينهم أن ينافح عنهم وأن ينافحوا عنه ، وأن يكون لهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهم إنها عظمة فى تعاليم سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم وسماحة فى هذا الدين الذى يسع المسلمين وغير المسلمين حتى إنه اتخذ خادما يهوديا ، أى سماحة أروع من أن يكون خادم أشرف المرسلين يهوديا ، وإذا بالخادم اليهودى يمرض فيذهب النبى صلى الله عليه وسلم ليزوره وليعوده ووالده معه ويعرض عليه الإسلام فإذا به يتوقف فيقول له أبوه : أطع أبا القاسم يابنى، فأسلم الخادم اليهودى فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : «الحمد لله الذى أنقذه بى من النار» (٢).

واتخذ دليله فى الهجرة رجلا غير مسلم ،كل هذا معناه أن الإسلام فى علاقاته الإنسانية يزكى هذه العلاقات ليعطى العالم كله وغير المسلمين الصورة السمحة المشرفة لهذا الدين العظيم ، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة (٣).

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك والطبرانى فى المعجم الأوسط .

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل ١٧٥/٣ ، ٢٢٧ و أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه ؟.

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الخراج والإمارة والفئ باب فى تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات .

يالعظمة إنسانيتك ياخير خلق الله ، وماأعظم هذه الإنسانيات التى وعاها أصحابك البررة من بعدك حتى رأينا عمر يوقف فى الخصومة والقضاء على بن أبى طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم – بجوار رجل يهودى ، فيقول له عمر : قف يا أبا الحسن فيرى فى وجهه غضبا ، فيقول له عمر : أغضبت ياعلى أن أوقفتك فى موقف القضاء ، إن القضاء فى الإسلام لا يفرق بين مسلم وغيره ، فقال على : ياأمير المؤمنين ماغضبت أن أوقفتنى معه ولكن غضبت لأنك أكرمتنى وناديتنى بكنيتى وقلت : قف يا أبا الحسن وليس فى هذا عدل بينى وبين اليهودى .

هذه هى سماحة ديننا التى وعاها سلفنا الصالح وها هو سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ترفع له شكاية رجل قبطى ضرب ابن عمرو بن العاص حين تسابقا فسبق ابن القبطى ابن عمرو فضربه وقال : أنا ابن الأكرمين ، فلما رفعت الشكاية إلى عمر ناداه فى موسم الحج وقال على ملأ المسلمين جميعا ، وقد أعطى الدرة للرجل القبطى وقال أعطها لابنك ليضرب ابن عمرو فضربه أمام الناس ، ضرب ابن الوالى ، وقال عمر قولته المشهورة : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار ؟

هذا هو الإسلام فى قمة سماحته ، هذا هو الدين بتعاليمه السمحة ، ولذا دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وعرفوا له إنسانياته الرفيعة العالية ، فعلينا أيها الإخوة المؤمنون أن نوثق علاقاتنا الإنسانية بيننا وبين إخواننا عسى الله أن يفتح علينا بركات من السماء والأرض.

وقد قال رسولنا صلى الله عليه وسلم : «من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة [(١)] » .

وإن الإسلام الذى نظم العلاقات الإنسانية بين المسلمين بعضهم مع بعض فجعل هذه العلاقات فى سموها وفى رفعتها إلى درجة أن يحب الإنسان لأخيه مايحبه لنفسه، أن يكون هو وأخوه المسلم كالشخص الواحد . ونظم العلاقات الإنسانية بين المسلمين وغير المسلمين ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[(٢)]

(١) رواه الخطيب البغدادى فى تاريخه عن ابن مسعود رضى الله عنه .

(٢) سورة الممتحنة آية ٨ .

وتبلغ وصايا القرآن بغير المسلمين القمة حين يقول القرآن عن المشركين الذين لايؤمنون بالله يقول القرآن : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (١) .

هذه هى عظمة ديننا الحنيف ، عظمته فى إنسانياته التى وسعت المسلمين وغير المسلمين ، فحين رأى الناس فى هذا الدين هذه السماحة ماوسعهم إلا أن يعتنقوه عن اقتناع وإلا أن يروا فيه الإصلاح للبشرية كلها ، وبهذا المنهاج الذى وسعت سماحة الإسلام فيه وعلاقاته الإنسانية كل الناس دخل الناس فى دين الله أفواجا .

ووقف الرسول صلى الله عليه وسلم يعامل الذين عاملوه بالبطش والعدوان والإيذاء من قبل معاملةً بلغت القمة فى مثالياتها وفى سماحتها.

حتى وقف من ثمامة بن أثال الذى كان يناصبه العداوة وهو سيد قومه موقفا كريما حين أسر ويعرض الرسول عليه الإسلام ويرفض الرجل فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم أطلقوا سراحه وعفا عنه . ماذا كان من الرجل ؟ راجع نفسه وقال : إن دينا يقدر أهله على عدوهم ثم يصفحون عنه لجدير بأن يتبع لسماحته . ثم يجىء يعلن شهادته وتوحيده ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

يا محمد والله ماكان على الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىّ ، والله ماكان من دين أبغض إلىّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين كله إلىّ ، والله ماكان من بلد أبغض إلىّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلىّ ، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل أصبوت ؟ فقال لا ، ولكنى أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا والله لايأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) »

هكذا انتشر الإسلام ، هكذا أحب غير المسلمين هذا الدين بما فيه من تعاليم سمحة تتصف بعدالتها .. المسلم وغير المسلم وتسع كل الناس .

---

(١) سورة التوبة آية ٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأحكام باب محاسبة الإمام عماله ، وأخرجه مسلم فى كتاب الإمارة باب تحريم هدايا العمال .

(٣٦)

الصفح والتسامح

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، ولاعدوان إلا على الظالمين ، نحمده سبحانه وتعالى يحب من عباده أن يكونوا مخلصين متسامحين ، ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله بعثه الله بالحنيفية السمحة ، أخرج الناس من الظلمات إلى النور وهداهم إلى صراط ربهم المستقيم . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين المتسامحين، الذين عاشوا حياتهم بالحب والصفح والمحبة والتسامح فكانوا متآلفين متعاطفين رضوان الله عليهم أجمعين .

من خصائص هذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به وشرفنا به أنه دين التسامح والصفح ينادى أتباعه أن يعيشوا حياتهم صادقين، ومخلصين صافين أنقياء أصفياء محبين ودعاء يتغاضى بعضهم عن هفوات الآخر ، ويسامح أحدهم أخاه وهو حين يقابل هفوة أخيه بالتسامح ، وحين يقابل عداوته بالإحسان يعالج نفسية أخيه من جهة ، ومن جهة أخرى يستجيب لدعوة القرآن الكريم ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[١] .

ولكن البشر هم البشر بما ركب فيهم من نزعات بشرية ومن أهواء قد تنفلت أعصاب بعضهم حين يستثار ، وقد لا يصبر حين يقع عليه الأذى ، ويريد أن يكيل الصاع صاعين وأن يرد السيئة بمثلها وعندئذ يتفاقم الشر ويحدث مالاتحمد عقباه .

(١) سورة فصلت آية ٣٤ ، ٣٥ .

من أجل ذلك ناهض الإسلام النفوس الأمارة بالسوء ، وقاوم الإسلام نزعات الشر ووساوس الشيطان التى تهتاج بها أنفس بعض الناس ، ودعاهم أن يدفعوا بالتى هى أحسن ، وبين لهم أنهم حين يدفعون بالتى هى أحسن يتحول الذى بينك وبينه عداوة إلى صديق حميم .

ولكن لايمكن لأى بشر أن يقف فى هذا الموقف ، وإنما الذى يستطيع أن يقف فى هذا الموقف هو المؤمن الصابر «ومايلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم »له حظ عظيم فى دنياه بصبره ، وله حظ عظيم فى أخراه بالمثوبة والأجر الذى يضاعفه الله سبحانه وتعالى له .

وليس معنى هذا أن الإسلام يدعو إلى الضعف والخور ، ولا إلى ترك الشر يأخذ مجراه إلى قلوب الناس . كلا . فالإسلام يقاوم كل نزعات الشر والعدوان والصلف والغرور والبهتان والعدوان على الأنفس أو الأموال أو الأعراض ، ولكنه حين يدعو إلى الصفح والتسامح يريد بذلك أن يعالج الضعف النفسى الذى يعترى كثيرا من النفوس ، ولطالما علمنا رسولنا صلى الله عليه وسلم مقابلة السيئة بالإحسان لنعالج النفوس الشريرة التى طبعت على الشر ، نقابلها بالإحسان فإذا بها تتحول من العدواة إلى المودة «ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم» لقد قيل لأحد الحكماء عندما واجه خصوما له وكانوا ذوى كيد مزعج وعدوان صارخ عليه ، قيل له كيف تسامحت مع خصومك وقد كانوا على هذا النحو من العداوة ؟ لِمَ لَمْ تنل منهم ؟ قال: وهل فعلت غير هذا ! لقد نلت منهم كأعداء حين حوَّلتهم إلى أصدقاء.

إنه بهذا كان هو الرابح فعلا. ومن هنا نقف على منهاج الإسلام فى مواجهة مثل هذه النفوس حين بيَّن أن فى هذا علاجا لها وأن مواجهة الشر بمثله تؤدى إلى مضاعفته وإلى تفاقم الشر.

ومن أجل ذلك كان علينا أن نفرق بين هذا النوع من البشر الذى يستثار وبين نوع آخر من الأعداء الذين يناصبون الإسلام العداء والحرب ، فرق كبير بين إنسان يحاربك فى

الميدان ويريد أن يجهز عليك وعلى عقيدتك وبين آخر تريد إصلاحه. فالذى يحاربك فى الميدان سلاحا بسلاح لابد أن تقابل ذلك بمثله.

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

فينحسم الحرب بالحرب ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ (١)

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ (٢)

أما الذين لايقاتلوننا، أما الذين هم من أبناء جلدتنا وعقيدتنا فلا بد أن نحاول إصلاح نفوسهم الضعيفة الشريرة التى استبدت بها نزعات الشر والعدوان.

بهذا المنهج القرآنى «ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم» لكنك لا تستطيع ذلك إلا بالصبر والمثابرة. فقد رأينا رسولنا صلى الله عليه وسلم وهو يعطى العطاء للأعرابى ، ويحسن إليه ، فيقول له الأعرابى : لاأحسنت ولاأجملت ، قابل إحسان الرسول صلى الله عليه وسلم له بالنكران والجحود. فيحاول بعض الصحابة الحاضرين أن يناهضوا الرجل فيمنعهم الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا كان بعد ذلك أعطى الرجل عطاء آخر وزاده زيادة أخرى ثم سأل الرسول صلى الله عليه وسلم الأعرابى وقال له: هل أحسنت إليك أيها الأعرابى؟

فيقول الأعرابى : نعم . جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا.

انظروا كيف يعالج رسول صلى الله عليه وسلم نفوس بعض البشر الذين استبد بهم الجشع والطمع، زاده إحسانا على إحسان، ولما علم أنه رضى وقال : جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. قال له عليه الصلاة والسلام. إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى منك شئ فإن شئت فقل بين أيديهم ماقلته الآن، فلما كان الغداة قال الرسول صلى الله عليه

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٠ .

(٢) سورة الحج آية ٣٩ .

وسلم لأصحابه إن هذا الأعرابى أعطيناه بالأمس فغضب فزدناه اليوم فزعم أنه رضى أكذلك؟

قال الرجل : نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل له ناقة فشردت فجرى الناس خلفها ليلحقوا بها فكلما لاحقوها زادت نفورا وجريا أمامهم . فقال : دعونى وناقتى فأنا أعلم بها وأرفق. وأخذ لها من قمام الأرض ومن الحشائش ما استناخها واسترضاها . وقال : وإنى لو تركتكم حيث قال هذا الأعرابى ما قال فقتلتموه دخل النار.

فانظرو إلى رفقه صلى الله عليه وسلم وكيف قابل نكران الرجل وجحوده بمضاعفة الإحسان وبمزيد من الفضل، وكيف أراد أن يستل من صدور أصحابه غضبهم على الرجل، وأراد أن يبين لهم أنه قد أصبح راضيا بالعطاء والزيادة وأنه يقول أحسنت وأجملت وجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا حتى يطلع أصحابه على أنه قد صلح حاله، وحتى لاتحمل قلوبهم بالنسبة له كراهية . وهذا من حبه صلى الله عليه وسلم للناس أجمعين.

نعم. إن الإنسان حين يقابل من له شر أو من له سيئة أو من يقابله بمثل هذا السلوك لايزيد بمقابلة السيئة بمثلها إلا نفورا واستمراءً للشر، وأنه حين يقابلها بالحسنة فإنه يعالج الضعف النفسى الذى فى صدر أخيه. ولو تعاملنا جميعا بهذا الأسلوب الحسن ولم نستثر لأتفه الأسباب لصلحت القلوب وصلحت الأحوال.

ولقد علمنا رسولنا صلى الله عليه وسلم ذلك، وعلم أصحابه من الرعيل الأول هذا السلوك الكريم حين اعتدى رجل على الصديق فى مجلسه فيكظم الغيظ وينال ثانية فيكظم أبو بكر الغيظ فى صدره، فينال منه ثالثة فيريد أبو بكر أن يسكت الشر فيرد على الرجل، ثم ينظر فإذا بالرسول صلى الله عليه وسلم ينتفض من المجلس، فلحق به أبو بكر وقال : يا رسول الله : كان يشتمنى وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت. فقال له

الرسول صلى الله عليه وسلم معلما وموجها:«إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله ذهب الملك وقعد الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان» [1] .

فمجالس مقابلة السيئة بمثلها مرتع للشيطان، ومجالس الصفح والتسامح مواطن لملائكة الرحمن.

من أجل هذا كانت دعوة الإسلام بالحكمة وبالموعظة الحسنة وبالمجادلة بالتى هى أحسن، لاعنف فيها ولاقسوة ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [2]

حتى عندما يريد الإنسان أن يعاقب بمثل ما عوقب به يلوح له القرآن الكريم بالصفح والصبر ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [3]

إن الذين هم محسنون هم الذين يقابلون السيئة بالإحسان، وهم الذين يعفون عمن ظلمهم ويصلون من قطعهم ويعطون من حرمهم ، هم أولئك الذين قال فى شأنهم سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم:

«إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كان أجرهم على الله فلايقوم إلا من عفا»

من عفا عن أخيه، ومن تسامح. وهنا قد يعترى بعض البشر بعض المواقف التى قد يضيق صدره فيها ولايستطيع أن يتسم بفضيلة العفو والتسامح . على سبيل المثال قد يتعرض لإيذاء فى نفسه أو فى ماله وربما يتسامح لكن قد يعتريه الأذى فى عرضه وفى شرفه، وكما يقول الشاعر:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل ٤٣٦/٢ ، وأخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب فى الانتصار .

(٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٣) سورة النحل آية ١٢٦ ، ١٢٧ .

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فحين يصاب فى من يؤذيه فى عرضه أو يجرّح شرفه وكرامته قد لايستطيع احتمالا، لكن انظرو إلى سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم وقد أوذى فى عرضه وجُرّح فى أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها الصديقة بنت الصديق فى حديث إلإفك[1] الذى نزلت البراءة به من فوق سبع سماوات. **كان قمة التسامح.**

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2] .

جاءت براءتها من فوق سبع سماوات، ومع ماتعرض له من الأذى الذى لايصبر على قساوته أحد فإن الذى تولى كبره منهم وهو عبد الله بن أبى ابن سلول زعيم النفاق والمنافقين حين كانت نهايته أليمة وانتهى نهاية كل ظالم ، مع ذلك جاء ولده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب منه العفو عن أبيه فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: عفوت عنه، فيزداد الولد طمعا فى عفوه وفى كرمه صلى الله عليه وسلم فيطلب منه قميصه حتى يكون كفنا لأبيه ، فيمنحه الرسول صلى الله عليه وسلم قميصه ليكفن فيه رأس النفاق الذى آذاه فى شرفه وعرضه. أى كرم هذا ! أى صورة من صور التسامح تبلغ فى سموها هذا الذى بلغه سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم !

بل أكثر من هذا يطلب منه أن يقف مصليا عليه ومستغفرا له ، ويهم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فتتنزل آيات الوحى لتحسم الموقف وتقول ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ﴾[3] .

حسم الأمر بالنسبة لأولئك المنافقين الجاحدين

---

(١) حديث **الإفك** أخرجه البخارى فى كتاب المغازى باب حديث الإفك ، وأخرجه مسلم فى كتاب التوبة باب حديث الإفك وقبول توبة القاذف .

(٢) سورة النور آية ١١ .

(٣) سورة البقرة آية ٨٠ .

ونرى هذه الصورة تعطينا نموذجا فى سمو النفس ، وتعطينا الأسوة كيف يكون هذا التسامح لأنه النبى المصطفى المقتدى به الذى بعث إلى خير أمة، حتى إن والد السيدة عائشة الصديق رضى الله عنه حين يعلم أن أحد أقاربه واسمه مسطح قد خاض فى حديث الإفك وكان رجلا فقيرا لا يملك قوت يومه ، وكانت حياته متوقفة على إنفاق أبى بكر الصديق عليه.

ينفق عليه ومع هذا خاض فى حديث الإفك فأقسم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ألا ينفق عليه بعد اليوم مادام قدنال وجرّح شرفه وعرضه وابنته الطاهرة وخاض مع من خاض فى حديث الإفك أقسم ألاينفق عليه بعد اليوم، وتتنزل آيات الوحى من السماء لتنهى أبابكر وتقول:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

وما إن تتنزل هذه الآية وتقول : ولا يأتل أى ، ولايحلف أولو الفضل: أصحاب الفضل والسعة، أن يؤتوا أولى القربى : الأقارب والمساكين: الفقراء، والمهاجرين فى سبيل الله، وتلوح له الآية وتقول وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم : فيقول أبو بكر : بلى والله إننى أحب أن يغفر الله لى، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه. وقال : والله لأنزعها منه أبدا» (٢) .

هذه تعاليم ديننا الحنيف، هذا قرآن ربنا الذى نتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، يدعونا أن نتسامح ، أن نصفح ، لماذا؟ لنطهر القلوب من الأحقاد والأضغان، ولنقاوم بعض النفوس الشريرة التى حملت الحقد على بنى البشر والتى حملت الشر على إخوانهم، ونعالج الشر بالخير .

---

(١) سورة النور آية ٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير وسورة النور .

من أجل ذلك كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشوار دعوته الطويل لايدعو على أعدائه بل يدعولهم ويقول : «رب اغفر لقومى فإنهم لايعلمون» [1].

إذا كان ديننا الإسلام يحثنا على الصفح والتسامح فليس معنى هذا أن يستمرئ أهل الشر شرهم، وليس معنى هذا أن تظل النفوس الشريرة حاملة الشر لإخوانهم ، ولاقاذفة بالعدوان على غيرهم، بل لابد أن تكون الحسنة التى يواجهون بها والصفح الذى نتعامل به مع إخواننا دعوة لهم أن يقابل بمثله وأن يعيش الناس على ظهر الأرض أحبة ودعاء وأن تصفو القلوب ، وأن نتسامح ، وأن نصلح ذات بيننا ، وألا يحمل أحدنا على أخيه حقدا ولاحسدا، وأن نؤمن بأن كل شئ بقضاء الله وقدره، فحيث آمنا بأن كل شئ بقضاء الله وقدره فلا تحقد على أخيك لخير نزل به، بل عليك أن تطلب مثله من ربك وأن تشكر الله على النعمة التى أنت فيها ، وأن تحمل الخير لإخوانك «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب استتابة المرتدين وأخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير باب أشتداد غضب الله على من قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم ، وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والأداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم .

(٣٧)

الجود والكرم

الحمد لله رب العالمين ، نحمده سبحانه وتعالى حمد الشاكرين الصادقين ، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ، ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره ، سبحانه وتعالى هو المعطى الوهاب وهو الرزاق ذو القوة المتين .

ونشهد أن لاإله الله وحده لاشريك له بيده مقاليد السماوات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء ويعطى من يشاء ويحرم من يشاء .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وهدى إلى صراط ربه المستقيم.

اللــهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين صلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله يا من دعوت إلى الخير وأمرت بالمعروف وكنت أسخى الأسخياء وأكرم البشر جميعا.

صلوات الله وسلامه عليك وعلى آلك وأصحابك ومن اتبع هديك إلى يوم الدين.

أما بعد ... فيا معشر المسلمين:

نرى من عبادات الإسلام التى أمرنا الله سبحانه وتعالى بها عبادات قولية تتمثل فى أقوالنا حين نتلو القرآن أونذكر الله سبحانه وتعالى.

ونرى من بين العبادات عبادات بدنية تتمثل فى الصلاة وفى غيرها مما تقوم به الأبدان، ونرى من بين العبادات عبادات مالية تتمثل فى الزكاة والصدقات والإنفاق ووجوه

البر والخير والتعاون ، وفى كل صنائع المعروف التى حثنا عليها ربنا سبحانه ودعانا إليها سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإذا كانت العبادات المالية منها ما أوجبه الله تعالى وفرضه وجعله فريضة أوركنا من أركان الإسلام كالزكاة فإن من بين هذه العبادات المالية ما ندبنا إليها الشارع وما فتح بها أمامنا أبواب التطوع والتنافس . وإن وجوه الصدقات والإنفاق وصنائع المعروف والسخاء والكرم لمن أبرز سمات الإنسان المسلم الصادق فى إيمانه، ومن أبرز سمات الإنسان التقى الصادق فى تقواه.

ولذلك ورد فى سمات المتقين الصادقين ﴿الذين ينفقون فى السراء والضراء﴾ ووضح النبى صلى الله عليه وسلم أن علامة المؤمن الصادق فى إيمانه : الإنفاق، والصدقة فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «والصدقة برهان» [١] أى دليل على صدق إيمان صاحبها، وتكون علامة الإنسان الذى هو قريب من ربه سبحانه ، ومعنى كونه قريبا من ربه أنه إذا دعاه لبّاه، وإذا استغاث به أغاثه. إن الذى يكون قريبا من ربه هو الإنسان السخى، الذى يكون قريبا من الناس لأنهم يعرفونه ويألفونه ويكون قريبا من الجنة أما الذى يكون بعيدا عن ربه وعن الناس وعن الجنة فهو الذى يبخل بما آتاه الله سبحانه وتعالى على عباده.

ولذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «السخى قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار، ولجاهل سخى أحب إلى الله عز وجل من عابد بخيل» [٢] .

إذن فالإسلام يرفع منزلة الكرماء والأسخياء الذين يبذلون المعروف، ويجعل الإسلام هذه الصنائع وهذا البذل يقى صاحبه من كل شر وسوء قال صلى الله عليه وسلم «صنائع المعروف تقى مصارع السوء وصدقة السر تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر» [٣] ويقول سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى موضحا أن الذى يزعم أنه إذا أنفق

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة باب فضل الوضوء .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب البر والصلة باب ماجاء فى السخاء .

(٣) أخرجه البيهقي فى السنن عن أنس بن مالك ، وأخرجه الطبراني فى المعجم الكبير عن أبى أمامة وأخرجه فى المعجم الأوسط عن أم سلمة .

من ماله أو بذل ينقص المال . هذا خطأ، بل بالعكس كلما أنفقت من مالك زاده الله . فيقول الله فى الحديث القدسي: «يا ابن أدم أنفق أنفق عليك» [1] .

أى كلما أنفقت ولم تخش من ذى العرش إقلالا فإن الذى سيتولى زيادة رزقك هو الرزاق ذو القوة المتين.

ومن هنا ندرك فضيلة السخاء فى أبهى صورها وفى أسمى معانيها وآثارها على نفس الإنسان المتصدق والمنفق والسخي والكريم.

فمن آثارها على الإنسان السخى الكريم أنه بسخائه يكون قريبا من ربه ومن الناس ومن الجنة، ويكون بعيدا عن النار، لماذا يكون بعيدا عن النار؟ لأن الله تعالى بإنفاقه وسخائه يغفر له ما سلف من الذنوب، ولأن كرمه وسخاءه يكفر الله تعالى به ماسبق من خطاياه ، وفيما رواه أبو ذر رضى الله تعالى عنه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى نبأ واحد من بنى إسرائيل فى الأمم السابقة، اعتكف فى صومعته ستين سنة يعبد الله سبحانه وتعالى وبعد ستين سنة أرخت السماء وأرسلت ماءها مدرارا و أمطرت مطرا غزيرا فأنبت الزرع وحسن الجو فرأى هذا العابد بعد هذا العمر المديد الذى قضاه فى عبادة ربه أن يخرج ليرى آثار رحمة الله وآيات الله فى كونه ، فلعله بذلك يزداد ذكراً لله رب العالمين، لقد كان معتكفا عن الدنيا وعن شهواتها التى تغرى العابد فضلا عن غيره ، ولكنه ما إن خرج إلاووقع فيما يقع فيه كثير من الناس من شهوات الدنيا ، لقد راودته امرأة حين خرج من صومعته تكلمه ويكلمها حتى غشيها وارتكب معها الفاحشة فغشيه ماغشيه ونزل غديرا ليستحم وكان معه حين خرج رغيف أورغيفان كما تروي رواية الحديث فجاءه فقير سائل فأشار إليه أن يأخد الرغيفين اللذين كانا معه فلما جاءه أجله وزنت عبادة الستين سنة بالفاحشة والزنية التى ارتكبها فرجحت الزنية والفاحشة على عبادة ستين سنة ، فكان من فضل الكريم الذى يكرم الكرماء، والرحيم الذى يرحم الرحماء من عباده أن وضعت حسنة

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب النفقات وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف .

الرغيفين اللذين أشار للسائل بهما إلى كفة حسناته فرجحت كفة الحسنات فغفر الله له ونصّ الحديث كما أخرجه ابن حبان :

عن أبى ذرّ رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «تعبد عابد من بنى إسرائيل فعبد الله فى صومعة ستين عاما، فأمطرت الأرض، فاخضرت فأشرف الراهب من صومعته، فقال : لو نزلت فذكرت الله فازددت خيرا، فنزل ومعه رغيف أورغيفان فبينما هو فى الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه، حتى غشيها ثم أغمى عليه فنزل الغدير يستحم، فجاءه سائل، فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين، ثم مات.. فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية، فرجحت الزنية بحسناته ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفرله» [1].

إن هذا الحديث الذى ترويه لنا كتب السنة ، ويرويه لنا سيدنا أبو ذر رضى الله عنه حاكيا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا النبأ الذى يطلعنا على مدى أثر النفقة والسخاء والبذل والكرم فى غفران الذنوب حين ينفق الإنسان من أعز ما يملك ، بل يبذل الرجل كل مايملك لأنه ما كان يملك حينئذ سوى هذين الرغيفين.

فإذا كان الأمر كذلك فى مثل هذه النفقة وفى مثل هذه الصورة التى قد يُعدُّها بعضنا شيئا بسيطا أو تافها فإنها حين تغيث ملهوفا وحين تلبى حاجة جائع أو محتاج فإنها تقع عند رب العزة موقعا عظيما لايستكثر أن يغفر للعبد ذنوبه بسببها. وهذا يعطينا درساً مهما فى فضيلة السخاء والكرم والبذل والعطاء، وأن للإنفاق أثره فى غفران الذنوب وفى تقريب العبد من الله علام الغيوب ، سبحانه وتعالى.

وإذا كان الأمر كذلك فى أثر الإنفاق والسخاء فى غفران الذنوب فإن كثيرين من الناس يغفلون عن هذه الفضيلة بدافع دنيوى . يقول أحد الناس إنه يريد أن يدخر لولده، ويقول البعض إنه لايريد أن يترك أولاده عالة من بعده والإسلام يدعونا ألانترك أولادنا عالة يتكففون الناس، وهذا صحيح.

---

(١) رواه ابن حبان .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» [1] .

ولكن لايكون هذا على حساب المروءات وعلى حساب البذل والإنفاق فى سبيل الله، وألايكون كل همك أن تدخر لنفسك ولأولادك فحسب، فتكون الأثرة والأنانية ، وأن تدع المحتاجين والفقراء وألا تعطى أصحاب الحقوق حقوقهم، إنك إن فعلت خسرت الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، فالذى يمنع حقوق الفقراء والأرحام والذى يحرم المحتاجين والبائسين ويريد أن يدخر لنفسه وأولاده من بعده ما يدخره ما دام فى غير حله سوف لايبقى له ؛ ولذلك ورد عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «نشر الله عبدين ممن أكثر لهما من المال والولد، فقال لأحدهما : أى فلان بن فلان قال لبيك رب وسعديك ، قال : ألم أكثر لك من المال والولد؟ قال بلى أى رب ، قال : وكيف صنعت فيما آتيتك؟

قال تركته لولدى مخافة العيلة، قال : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت قليلا ولبكيت كثيرا، أما إن الذى تخوفت عليهم قد أنزلتُ بهم، ويقول للآخر : أى فلان بن فلان، فيقول: لبيك أى رب وسعديك، قال له : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال: بلى أى رب، قال : فكيف صنعت فيما آتيتك ؟ قال أنفقتُ فى طاعتك، ووثقتُ لولدى من بعدى بحسن طولك، قال : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيرا ولبكيت قليلا، أما إن الذى وثقتَ به قد أنزلتُ بهم» [2].

وهذا الحديث يوضح لنا حقيقة إسلامية مهمة تقول لأولئك المتكالبين على المادة الكانزين للأموال المانعين لزكاة أموالهم الذين يحرمون أرحامهم وجيرانهم وفقراءهم مما آتاهم الله . إن كنتم تجمعونه لأبنائكم فستقع بأبنائكم الواقعة التى تخالف مرادكم، وإن كنتم

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الوصابا باب أن يترك ورثته أغنياء خير أن يتكففوا الناس ، وأخرجه مسلم فى كتاب الوصية باب الوصية بالثلث .

(٢) رواه الطبرانى .

تؤتون الفقراء حقهم وتخرجون زكاة أموالكم وتبذلون عن سخاء فأيقنوا أن ماعند الله خير وأبقى وأنه سبحانه وتعالى هو خير الرازقين.

من أجل ذلك كان علينا أن نوقن بأن ما عندنا ينفد ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [1] لقد سأل سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها عن شاة كانت قد ذبحتها فسألها وقال لها: يا عائشة ماذا بقى من الشاة؟ فقالت له : ما بقى إلا كتفها ، أى أنها تصدقت وأنفقت الشاة كلها ولم يبق منها إلا الكتف . فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم: كله قدبقى إلا كتفها [2] . وهذا مصداق قول الله سبحانه ﴿ ماعندكم ينفد وما عند الله باق﴾ فالذى أنفقته هو الباقى فى صفحاتك يوم تلقى الله أما الذى أبقيته فهو الذى ينفد ويذهب ويزول ﴿ماعندكم ينفد وما عند الله باق﴾ يقول ابن آدم: مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت» [3] .

فالذى أنفقته هو الذى أبقيته فى صفحاتك وما سوى ذلك فهو ذاهب وزائل من أجل ذلك كان علينا أن نعنى بحسن التصرف فى أموالنا ، فالمال عصب الحياة وشقيق الروح، والنفس به تضن. وحين يبذل الإنسان عن سخاء ، وحين يؤدى ما أوجبه الله تعالى فى ماله. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «والصدقة برهان» .

إن السخاء والكرم فضيلة من فضائل الإسلام التى تسمو بالمجتمع الإسلامى فى تعاون وتضامن ، ولو تعاون الناس بسخاء وبذل ما وجد بينهم فقير ولا محتاج ولا جائع ولاضائع ولاعار.

---

(١) سورة النحل آية ٩٦ .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة ، وأخرجه أحمد بن حنبل ٥٠/٦ .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الزهد .

إن الإسلام حين يشرع من صنائع المعروف للعباد ما يشرع إنما يريد منهم أن يتعاونوا فى كل وجوه البر قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (١)

إذا كانت سمة الكرم والبذل والسخاء يتسم بها المؤمنون ويتنافس عليها الأسخياء الذين آتاهم الله من ماله ومن رزقه فإن الذى آتاه الله علما عليه أن يكون سخيا بعلمه والذى آتاه الله جاها عليه أن يكون سخيا بجاهه ، والذى آتاه الله العافية والصحة عليه أن يكون سخيا بعافيته وصحته . ووجوه صنائع المعروف لاتنحصر فى المال وحسب. فيمكنك أن تكون سخيا بعملك، سخيا بجاهك سخيا بصحتك، سخيا بعافيتك ، سخيا بنصيحتك لأخيك المسلم.

إن وجوه التعاون وصنائع المعروف لاتقع تحت حصر. إنها تجمع المسلمين ليكونوا أسرة واحدة متضامنة متساندة متعاونة يحب كل منهم أخاه ويبذل له من الخير أقصى ما يمكن أن يبذله. وهو حين يكون كذلك مع إخوانه يحقق ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (٢) .

ولا يقتصر أمر السخاء والجود على الأفراد أو الجماعات أو الأسر، بل إنه يشمل الدول والأمم، فواجب الدولة الغنية أن تعطى الدولة الفقيرة ، وواجب الدولة القوية أن تساند الدولة الضعيفة وواجب الدولة التى تعيش فى أمن وبحبوحة من الحياة أن تنظر إلى أختها التى تتعرض لأقسى ما يتعرض له الأقليات الإسلامية اليوم من الإبادة والتجويع والتنكيل . وواجب الأمة جميعا دولا وشعوبا وحكومات وأفرادا وجماعات أن يخفوا فى سخاء لايعرف البخل، وفى إقدام لايعرف الإحجام للأخذ بيد المستضعفين فى الأرض ، والله الموفق إلى سواء السبيل .

---

(١) سورة المائدة آية ٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم ، وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم .

(٣٨)

مقاومة الإسلام لرذيلة الاحتكار

الحمد رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلاَّ على الظالمين، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، بعثه الله سبحانه وتعالى لهداية البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور فدعاهم إلى أن يعيشوا متعاونين متضامنين متساندين .

اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الصادقين الأمناء المخلصين الذين تعاملوا فى حياتهم بالأمانة وعاشوا مجتمعهم المثالى بعيدا عن الأثرة والجشع والغش والأنانية ، فاتسموا بالصدق والأمانة والفضيلة فرضى الله تعالى عنهم أجمعين .

أما بعـد ...

فحديثنا اليوم معكم عن مقاومة الإسلام لرذيلة الاحتكار .

والاحتكار رذيلة من أبشع الرذائل ، تستبد بنفوس بعض الناس الذين يستولى عليهم الجشع ، وتستهويهم الأنانية والأثرة وحب المال الذى يدفعهم لأن يحتكروا السلعة من السوق ويخفوا أقوات الناس إلى وقت الضرورة حتى إذا غلا السعر أظهروها وباعوها بأسعار مضاعفة نظير أن يستحوذوا على جزء كبير من المال ، ولما كانت هذه الظاهرة يبررها بعض الناس لأنفسهم ويقولون فى زعمهم إننا لا نقهر أحدا على السعر الذى نبيع به ، ونحن إنما نبيع السلعة عن تراض يريدون أن يبرروا لأنفسهم ظاهرة الاحتكار التى يحتكرون بها أشياء الناس فنرى القرآن الكريم حذر ونهى وقال﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾[1].ودعاهم إلى أن يتعاونوا

---

(١) سورة الشعراء آية ١٨٣ .

فيما بينهم وأن يتساندوا وأن يكونوا إخوة أحبة لايفرقهم جشع ، ولايشرذمهم فى دنياهم طمع، ولاتدفعهم شهوة حب المال إلى أن يغالوا على الناس فى الأسعار ، وإلى أن يحتكروا أقوات العباد أو الأشياء الضرورية ، فقد يكون الاحتكار فى الأقوات ، وقد يكون فى سائر السلع الضرورية التى لاغنى للإنسان عنها ، بل ترتبط حياة الناس بها ، ومن هنا نرى الحكمة فى تحريم ظاهرة الاحتكار وفى مقاومة الإسلام لها وفى قول سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم «لايحتكر إلا خاطئ» [1] أى إلا الآثم المذنب العاصى، لأنه يحتكر مايحتاجه الناس من الأقوات ، أو يحتكر ما يحتاجون إليه من أمور أخرى ترتبط حياتهم الضرورية بها ، فكما أن حياة الناس مرتبطة بالقوت ، فإن حياة المريض مرتبطة أيضا بالدواء والعلاج . وقد يحتكر بعض بائعى الأدوية بعض الدواء بغية أن يباع بثمن أكثر أو أن يعلموا أنه سيرتفع السعر بعد حين فلا يبيعون السلعة اليوم بل يتنظرون فإذا غلا السعر باعوها .

وقد حرم الإسلام هذه الظاهرة التى تبدو فى الأشياء الضرورية التى ترتبط حياة الناس بها . لأنه إذا كانت التجارة مشروعة ودعا الإسلام إليها وأباح فيها الربح الحلال ولم يحدد السعر فيها فليس معنى هذا أن يكون هناك غبن بين البشر بعضهم مع بعض ، وليس معنى هذا أن يبرر المستغل استغلاله بأنه يبيع عن تراض لأنه رأى المشترى فى حاجة ماسة ؛ لأن حياته ترتبط بالدواء أو أن حياته ترتبط بالشيء الفلانى أو القوت الفلانى .

ومن هنا كان التحذير الشديد لمن يحتكر أو يصل فى احتكاره لهذا القوت الضرورى أو مايحتاجه الناس إلى أربعين يوما ، فإذا وصل إلى هذه المدة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برئ من الله وبرئ الله منه [2] » انظروا إلى أى مدى تكون خطورة هذه الظاهرة ، وكيف يبرأ رب العزة سبحانه وتعالى من هذا المحتكر لأنه احتكر قوت الناس ومابه حياتهم ولايمكن لهم أن يستغنوا عنه ، واستغل

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب المساقاة باب تحريم الاحتكار فى الأقوات وأخرجه ابن ماجة فى كتاب التجارات باب الحكرة والجلب ٢ /٧٢٨ (٢١٥٤) .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب البيوع ٢/ ١١ عن ابن عمر رضى الله عنهما .

حاجتهم من أجل ربح مادى دنيوى . ولكن الوجه الآخر من وجوه المعاملة التى نادى بها الإسلام أن يكون الإنسان صادقا بارا ، وأن يتقى الله فيمن يتعامل معهم من البشر ، وأن يتقى الله فيما أودعه فى يديه من أقوات البشر أو سلعهم أو ضروريات حياتهم ، ومن هنا كانت تعاليم الإسلام تلاحق أولئك الذين يعبثون ، وكان نداء سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم مرتين إلى التجار وهو يناديهم قائلا : يامعشر التجار : بنفسه وفى السوق ، ثم يناديهم مرة ثانية ويقول : يامعشر التجار ، فتشرئب الأعناق وتصغى الأذان ، ويلقون الفؤاد والقلب لما سيوجههم فيقول لهم صلوات الله وسلامه عليه بعد أن ناداهم مرتين «يامعشر التجار يامعشر التجار ، إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبرّ وصدق [1] » إلا من اتقى الله فى السعر واتقى الله ألا يحتكر واتقى الله فى معاملته للناس ، وكان صادقا فلم يكذبهم ولم يغش ولم يحلف الأيمان الكاذبة ليروج سلعته أو يأخذ ربحا مضاعفا .

إلا من اتقى الله وبر وصدق ، فمن اتقى الله من التجار وكان بارا فى معاملته للناس وكان صادقا فيما يقوله لهم وفيما يبلغهم من السعر ، لأن الكثيرين من الناس قد لايجادلون فى السعر ، وقد يأخذون بقوله من أول وهلة ، والبعض قد يجادل حتى يصل إلى حقيقة السعر ، وهنا يقع الظلم ، وهنا يكون الكيل بكيلين وثلاثة وأربعة ، لكنه حين يكون صادقا بكلمة واحدة يقولها للناس ويطمئنون إليه ، حين يكون متقيا لله بارا فى معاملته صادقا مع العباد ولاينسحب عليه ماقاله الحديث «إنكم تحشرون فجارا...» أى أن الذين يحشرون من التجار فجارا هم الكاذبون والمغالون والمحتكرون والغشاشون . هؤلاء يحشرون فجارا .

أما الذين يتقون الله ويكونون بارين وصادقين فانظروا المقابل كيف تكون منزلتهم ، يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب البيوع باب ماجاء فى التجارة وتسمية النبى صلى الله عليه وسلم إياهم ٥٠٦/٣ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح وأخرجه أيضا ابن ماجه فى كتاب التجارات باب التوقى فى التجارة ٢١٤٦/٧٢٦/٢)

«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء [1]»

المقابل عظيم يحشر مع الشهداء ومع الصديقين ، نعم : لأنه تولى أمانة ترتبط بحياة الناس وحاجات الناس وضرورياتهم التى بها معاشهم ، فحين يصدقهم فى المعاملة وحين يكون أمينا ويبتعد عن الغش والأثرة والأنانية فمكافأة الله تعالى له عظيمة لأنه تولى أمرا أشبه مايكون بالرسالة الكبرى التى يتولاها الذين بعثوا أنبياء ورسلا وأولئك الذين نافحوا عن الإسلام فاستشهدوا ووقعوا شهداء فى معركة فيكافؤهم الله تعالى بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وهؤلاء التجار الصادقون الأمناء البارون يحشرون لصدقهم وتقواهم مع الشهداء يوم القيامة .

وهذا يدفعنا إلى أن نحرص على إشاعة الأمانة والبعد عن الاحتكار وعن الظلم وهذا واجب التجار ومن ولاهم الله أمور العباد من جهة ، وواجب المسئولين والدولة من جهة أخرى ، وواجب المسئولين والدولة أقولها مرة ثانية وأؤكد عليها . كل موظف ولاه الله أمرا عليه أن يراقب الأسعار وأن يمنع عبث العابثين وغش الغشاشين فكم من تجار غشوا فى مواد البناء فتساقطت عمارات ومات أناس ظلما وعدوانا ، وكم من أناس غشوا فى الأدوية فبدل أن يشفى المريض مات وكم من أناس غشوا فى الأطعمة والأقوات فبدل أن يكون فيها حياة الناس وغذاؤهم كان فيها سم لهم والعياذ بالله ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

من أجل ذلك كان على كل مسئول ولاه الله أمرا أن يراقب الأمانة فى الأرض وأن يحققها بين العباد ، فحملات التفتيش التموينية الصحيحة النقية التى لاتتدخل فيها الوساطة وتعمل على ، إقامة العدالة فى الأرض دون تزاحم من الوسطاء ومن حاملى الرشوة واجبة على كل مسئول وولى الأمر ليقوم بهذا بين العباد لمراقبة الأسعار .

لقد كان سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم يقوم بمثل هذه الحملات التفتيشية

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب البيوع باب ماجاء فى التجارة وتسمية النبى صلى الله عليه وسلم إياهم ٥٠٦/٣ . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب التجارات باب الحث على المكاسب ٧٢٤/٢ (٢١٣٩) وأخرجه الحاكم فى كتاب البيوع ٦/٢ وجميعهم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

على مواد التموين بنفسه ، انظروا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه يقوم بهذا ، وفى عصر قال عنه : خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم [1] » .

فى عصر الصحابة فى عصر الوحى يقوم الرسول بنفسه ليراقب الأسعار ويُواجه الظالمين ليكبح جماح ظلمهم ، ويُواجه الغشاشين والظالمين ليقاوم احتكارهم وغشهم ، حيث كان ذات مرة وأعجب بسلعة عظيمة وبكومة طعام منظرها جميل وبراق كما يفعل كثير من الباعة حين يجعلون الأشياء الصحيحة السليمة على السطح ويخفون الردىء فى أسفل حتى لايراه المشترى ، فرأى مثل هذا المنظر فلما أعجب به ألهمه الله أن يدخل يده داخل الكومة وما أن أدخل يده داخل هذه الكومة إلا وأصابت يده بللا فقال ماهذا البلل ياصاحب الطعام ،كما يفعل كثير من الناس ، فبعض الناس يحاولون الغش فى الميزان بوضع ماء أو بحقن بعض الدجاج أو بعض الحيوانات لتزداد فى السعر إلى غير ذلك من الأشياء الى يفتعلها أصحاب هذا الشأن ،

فلما أصابت يده بللا قال : ماهذا ياصاحب الطعام ؟ لماذا مابأسفله به ماء ومابأعلاه ليس به ماء فقال : أصابته السماءيارسول الله . أى أمطرت السماء فكان هذا الذى أصاب يدك ، فقال : لماذا لم يكن الماء والمطر فى أعلى ؟ ألا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس : «من غشنا فليس منا [2] » انظروا يقول من غشنا فليس منا ، يتبرأ من الغش وفى أى شىء يتبرأ من الغش من غشنا قالها فى ماذا ؟ فى كومة طعام بسيطة ، إنها ليست سلع غذاء كثيرة ، ليست سلع أدوية ، ليست سلع مبان ، ليست من الأشياء الخطيرة فما بالكم بالذين يغشون فيما فيه حياة الناس وعلاجهم وأقواتهم .

إذا كان قد قال فى شىء بسيط من غشنا فليس منا فما بالكم فيمن غش فيما هو أكثر ، لاشك أن جرمهم عظيم وأن عذابهم عند الله أكبر .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة ٢٨٨/٤ عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .
(٢) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب قول النبى صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا .

أمـا عـلم الإنسـان أنه حين يكون فى تجارته بـارا صادقا أنه يحشر مع الشـهداء ، ألا يحرص على هذه المكانة التى أحله الله سبحانه وتعالى إياها فلا يغش ولايحتكر ، وليعلم أن هذا المال الذى سيجمعه من حرام سوف يذهب ويتركه لغيره ، والحرام لاينفع صاحبه ، بل يكون وبالا عليـه دنيـا وأخرى؛ من أجل ذلك وعى سلفنا الصـالح خطورة رذيلة الغش والاحتكار وأدركوا أهمـية الأمانة والمحافظة على أن يتعاملوا مع الناس بالصدق وعلى أن يتعاملوا مع تلبية حاجاتهم وضرورياتهم دون احتكار أو ظلم .

وفى عهد الخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه أصاب الناس قحط شديد وحاجة إلى الأقوات شديدة ، حتى كانوا يذهبون إلى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ويقولون له ياخليفـة رسول الله أصابنا قحط شديد والناس فى فاقة شديدة فادع الله لنا أن يرسل السماء علينـا مدرارا و أن يأتينا رزقنا ، فما كان من سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلا أن قال لهم : أبشروا واطمئنوا فإنكم لن تمسوا حتى يفرج الله كربكم .

انظروا إلى عظمة الرجل الواثق مما هو عند ربه الرزاق ذى القوة المتين .كيف يطمئن إلى أن الرزاق موجود ومادام الرزاق موجودا لايغيب فلا تخافوا ولاتحزنوا فلن يبيت أحـد جائعا أبدا .

لن تمسوا حتى يأتى الله بالفرج ، وفعلا ماإن جاء المساء حتى دوت الأصوات بعير تشتمل على ألف بعير تحمل البرّ والزيت والزبيب والأقوات الضرورية للعباد ، ألف بعير محملة بكل مايحتاجون جاءت لسيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه وأنزلها بيته وتنافس التجار ،كل جاء إلى هذه العير ليأخذ منها مايشاء وليسد حاجة الناس فقالوا له لقد علمت لما جئنا ، الناس فى حاجة ضرورية للأقوات ، قال لهم : نعم كم تربحوننى ؟ قالوا له : نربحك الدرهم درهمين يعنى بالثمن الذى اشتريت به ندفعه لك مضاعفا . قال لهم : لقد أعطيت أكثر من ذلك ، قالوا له: نربحك الدهم أربعة أى تربح أربعة أمثال سعر السلعة ، قال لهم : لقد أعطيت أكثر من ذلك ، قالوا له : نربحك الدرهم خمسة ، أى تأخذ خمسة أمثال السعر . فقال لهم : أعطيت أكثر من ذلك فقالوا : عجبا ياعثمان من الذى أربحك

أكثر من ذلك وليس فى المدينة تجار سوانا ؟ فقال لهم : لقد أربحنى الله الدرهم بعشرة أمثاله فأشهد الله أنها صدقة للمحتاجين من المسلمين .

نعم لا احتكار فى الإسلام ، والتعاون أولا وسد الحاجة الضرورية قبل الربح ومن هنا ندرك عظمة سلفنا الصالح الذين أيقنوا بما فى يد الله سبحانه أكثر مما فى أيديهم ، والذين علموا أن مايبذلونه فى سبيل حاجة المحتاجين هو مدخر عند الله رب العالمين ، ولن يذهب أبدا وأن الذى يستحوذون عليه فى الدنيا هو إلى الورثة من بعدهم أو هو ذاهب زائل .

ومن أجل ذلك كانت خصالهم فى التعاون وفى التضامن فيما بينهم ، وكان بعدهم عن الجشع والاحتكار أمرا ضروريا تطبيقا لقول رسولهم صلى الله عليه وسلم «لايحتكر إلى خاطىء»

ولقوله صلى الله عليه وسلم «من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برئ من الله وبرئ الله منه » .

(٣٩)

قـالة السـوء

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين المؤمنين الصادقين ، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره على ما أولانا به من نعمة الإيمان .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة نقر فيها بربوبيته ووحدانيته وقدرته وعظمته .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله بعثه الله سبحانه وتعالى برسالة الحق فأخرج الناس من الظلمات إلى النور ودعاهم أن يكونوا أمة واحدة متحابة تشيع فيهم الألفة والمودة ولاتشيع فيه شائعات السوء .

اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الذين أقاموا مجتمعهم على الإخاء والألفة والمحبة والمودة والفضائل ، ونظفوه من الرذائل ، ومن الفتن ماظهر منها ومابطن .

أما بعد فياأيها الإخوة المؤمنون :

إن مجتمع الإيمان هو المجتمع النقى الطاهر، وهو المجتمع الصافى الذى يجب على أهله أن يحافظوا على صفائه ونقائه ، وأن يكونوا فى محافظتهم على صفاء مجتمعهم ونقائه واعين يأخذون حذرهم ، مستجيبين لأمر ربهم سبحانه وتعالى وهو يناديهم بوصف الإيمان الذى يقتضيهم أن يستجيبوا على الفور .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾[1] .

---

(١) سورة النساء آية ٧١ .

ومن هنا كان على المؤمنين ألا يصيخوا السمع لكل شائعة تتردد ، ولكل قالة سوء ينفثها بعض الناس فى الداخل أو فى الخارج .

ولقد ضرب لنا القرآن الكريم أروع الأمثلة وأعطانا درسا عظيما فى أن قالة السوء لاتفرق بين عظيم أو حقير ولابين كبير أوصغير .

فقد أطلقت فى القديم شائعات على بيت النبوة نفسه وشاء الله تعالى أن تنزل البراءة من فوق سبع سماوات، والقرآن الكريم يوضح للمؤمنين أنه يجب عليهم إذا ترددت شائعة فى محيطهم أن لايأخذوا بها على الفور وأن لا يستجيبوا إليها بمجرد سماعها بل عليهم إذا جاءهم مثل ذلك أن يرجعوا وأن يسألوا وأن يستفسروا ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]. ويروى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع شائعة تتردد بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق نساءه فذهب على الفور إلى المسجد فسمع الناس يقولون ذلك فاستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن صحة الخبر ورجع إلى صاحب الأمر فقال له النبى صلى الله عليه وسلم، لا، لم يحدث شىء من ذلك ، فوقف سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على باب المسجد يرد الشائعة ويكذبها ويقول : كذب من قال أن محمدا صلى الله عليه وسلم طلق نساءه، فنزلت الآية الكريمة : «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما نزلت الآية الكريمة : أنا ممن يستنبطونه لأنه رضى الله عنه ماصدق هذه الشائعة، ولاأخذها حين سمعها مأخذ الصدق حتى رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلم الحقيقة وراح يرد الشائعة وذلك واجب على كل إنسان مسلم أن لايصدق مايقال ، ففى الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كفى بالمرء كذبا

---

(١) سورة النساء آية ٨٣ .

أن يحدث بكل ماسمع» (١) أى كفاه أن يوصف برذيلة الكذب ، أن يحدث بكل ماسمع» ولاشك أن الذى يسمعه الإنسان أخبار متعددة فيها الصدق وفيها الكذب فلو حدثت بكل ماسمعت كفاك بهذا أن تكون كاذبا .

ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، بأن تسأل كل إنسان أو أن تتحدث إلى كل إنسان أو تنقل كلمة إلى غيرك أو أن ينقل غيرك كلمة إليك أو أن تتردد الشائعات هنا وهناك ، نهى عن ذلك لأن فى إطلاق الشائعات فى وقت السلم أو فى وقت الحرب ، وفى وقت الشدة أو فى وقت الرخاء ، لأن فى إطلاق هذه الشائعات ضعفا للأمة وقضاء على الروابط التى بينها وإهدارا لقيم كان من الواجب أن يحافظ عليها المسلمون .

ومن هنا كانت وصية سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف الرحيم بأمته حيث وضح لهم مايحبه الله ومايكرهه لهم فيقول «إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال» (٢) .

فقد وضح لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث مايحبه الله تعالى لعباده ومايرضاه لهم بأن يوحدوه سبحانه وتعالى ، وأن لايشركوا به شيئا ، وأن يكونوا يدا واحدة ، وأن يناصحوا من ولاه الله أمرهم، وأنه يكره لهم قيل وقال أى أن ينقل الناس أو أن يطلق الناس الشائعات فيما بينهم .

بل عليهم أن يستوثقوا وعليهم أن يتبينوا ، ولقد ناداهم رب العزة سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بوصف الإيمان أيضا وهو الوصف الذى ينادى الله به عباده للأمر المهم الذى

---

(١) أخرجه مسلم فى المقدمة باب النهى عن الحديث بكل ماسمع .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الأقضية باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة ، وأخرجه مالك فى كتاب الكلام باب ماجاء فى إضاعة المال وذى الوجهين .

يريد منهم أن يستجيبوا له فورا وأن لايسوفوا أو يؤجلوا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ (١) . أى إن نقل إليكم إنسان فاسق أو كمايقول المفسرون: أوكان هذا الإنسان مجهول الحال أى أنك لاتعرفه إن كان فاسقا أو غير فاسق ، وإن كان صادقا أو غير صادق وحاله مجهول لك فلا تأخذ كلامه ولامايطلقه من شائعة لأنك مادمت تجهل حاله فمن الممكن أن يكون صادقا ومن الممكن أن يكون كاذبا، وأن يكون عدلا أو أن يكون فاسقا «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين» وقد أورد الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده سبب نزول هذه الآية الكريمة : وهو أن الحارث بن أبى ضرار وهو والد السيدة ميمونة أم المؤمنين زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم – لما جاء الحارث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض عليه الإسلام والعبادات والشرائع فآمن واستجاب وأطاع فلما عرض عليه أمر الزكاة وافق سريعا وعقد وعدا وزمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليه رسولا من عنده ليأخذ الصدقات بعد أن يجمعها من قومه وذهب الحارث إلى قومه بهذا النور وبهذا الهدى الذى قبسه من سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم فاستجاب القوم لدعوته وخفَّ القوم لطاعته وأطاعوه ودخلوا فى دين الله أفواجا وتنافسوا فى دفع صدقاتهم على الفور ، والصدقة برهان الإيمان كما جاء فى الحديث الشريف « والصدقة والبرهان»(٢) إنها دليل على صدق إيمان صاحبها ، فلما جمع الصدقات وانتظر الموعد الذى يأتيه فيه رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يأته خـــاف الرجل انظروا خاف الرجل أن يكون سخط من الله أو سخط من رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمع قومه وقال لهم : لقد بلغتكم مادعانى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وناديتكم إلى الزكاة فدفعتموها ، ولقد واعدت رسول الله صلى الله عليه وسلم موعدا فلم يأتنى رسوله فأنا أخشى أن يكون هناك سخط من الله أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، ياالعظمة الإيمان حين يحرص الإنسان على أن يدفع زكاة ماله ، وعلى أن يحرص الإنسان على أن يلبى أوامر الله وتوجيهات نبيه

---

(١) سورة الحجرات آية ٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة باب فضل الوضوء .

صلى الله عليه وسلم، خاف الرجل وجمع قومه وحين تأخر من يأخذ الزكاة ذهب هو وإذا به فى الطريق يجد قوما ، هؤلاء بعث بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم: إلى أين ؟ قالوا ذهبنا إليك، قال لهم: ولم ؟ قالوا : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة ليأخذ منك الزكاة فزعم أنك رفضت أن تعطيه الزكاة وأنك هددته بالقتل وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة إلى الرجل ولكنه فى الطريق فرق أى خاف وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: لقد منعنى الحارث الزكاة وهددنى بالقتل . وهو فى هذا كاذب وليس صادقا ، فلما جاء الحارث وقومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له النبى صلى الله عليه وسلم : ياحارث أمنعت زكاة مالك ؟ قال الحارث : والذى بعثك بالحق يارسول الله ما أتانى رسولك ولا طلب منى شيئا ألبتة وهنا نزل قول الحق تبارك وتعالى : «يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين» كان التوجيه الربانى يتنزل من فوق سبع سماوات حتى إذا ما سمعنا شائعة أو نبأ يحمله غير الصادقين أو بعض الفسقة علينا أن نتبين وأن نتثبت حتى لا ننخدع بالشائعات، وحتى لانقع مع الذين وقعوا فيها فهلكوا ولنعلم أنه لاذنب أخطر من شائعة تتردد أو من قالة سوء يبهت بها المسلم أخاه المسلم ، لاخطر على المجتمع أقوى من تلك الشائعات التى تقضى على معنويات الناس وعلى قوتهم الروحية .

إن رسولنا صلى الله عليه وسلم قاوم هذه الشائعات وناهض قالة السوء التى يرددها الناس حتى ولو كانت على إنسان فاسق ، حتى ولو كانت على إنسان عاص .

لذلك وجدنا رسولنا صلى الله عليه وسلم عندما جاء الرجل الأسلمى يريد أن يتطهر فى الدنيا قبل أن يلقى العقوبة فى الآخرة بعد أن وقع فى جريمة الفاحشة فجاء يقول يارسول الله : طهرنى . قال : م أطهرك ؟ قال : من الفاحشة وظل النبى صلى الله عليه وسلم يرد الرجل ويمعن الرجل فى أن يقيم الرسول صلى الله عليه وسلم الحد عليه ، انظروا إلى سلفكم الصالح ، انظروا إلى من زلت بهم الأقدام فيما مضى ، انظروا إلى الذين كانوا إذا عصوا رب العزة سبحانه وتعالى علموا أن فى الآخرة عذابا أشد ، وأن جهنم عذابها عظيم فكانوا يريدون أن يأخذوا عقوبتهم فى الدنيا، وأن يقام عليهم الحد فى الدنيا بدل أن يفضحوا

فى الآخرة على رؤوس الأشهاد ، فيأتى الرجل الأسـلمى ويقول : أقم على الحد يارسول الله، فيرده الرسول صلى الله عليه وسلم حتى إذا ماوجد من الرجل إمعانا أقام عليه الحد ورجمه حتى مات، فإذا برجلين من الأنصار يقول أحدهما للآخر : انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِم رَجم الكلب ،فسكت عنهما النبى صلى الله عليه وسلم ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله أى رافع رجله فقال : أين فلان وفلان؟ فقالا : نحن ذان يارسول الله ، قال : انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا: يانبى الله من يأكل من هذا ؟ قال : فما نلتما من عرض أخيكما آنفا أشد من الأكل منه، والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها (١) .

إنه لفى أنهار الجنة لأنه تقدم ليأخذ عقوبته فى الدنيا ، تقدم ليتطهر من ذنبه فى الدنيا فما كان لك أن تتحدث بقالة سوء عليه ، وماكان لك أن تشيع الفاحشة عليه. ورأينا أيضا أمر المرأة الغامدية عندما جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : يارسول الله إنى قد زنيت فطهرنى فردها النبى صلى الله عليه وسلم فلما كان الغد قالت : يارسول الله لم تردنى ؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزا فوالله إنى لحبلى . قال : إما لا فاذهبى حتى تلدى فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة قالت : هذا قد ولدته ،قال اذهبى فارضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت : هذا يانبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام. فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال : مهلا ياخالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

وفى رواية أخرى للحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم عندما قام ليصلى عليها قال له عمر : تصلى عليها يانبى الله وقد زنت ؟ فقـــال : لقد تابت توبة لوقسمت بين سبعين

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الطلاق باب الطلاق فى الإغلاق والكره ، وأخرجه مسلم فى كتاب الحدود باب حد الزنا ، وأخرجه أبو داود فى كتاب الحدود رجم ماعز بن مالك ، واللفظ لأبى داود .

من أهل المدينة لوسعتهم. وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى [1] .

تلك هى رحمة الله لعباده العصاة فلا يصح لأحد أن يفتات عليهم ولا أن ينقل قالة السوء ولا كلمة الفاحشة لأنك حين تشيع الفاحشة تساعد على انتشارها وحين تشيع الفاحشة على إنسان أو حين تكشف عورة أخيك المسلم إنما تعين الشيطان عليه ، ولاتعينوا الشيطان على أخيكم .

نعم ورد أن بعض العصاة والفسقة لاغيبة لهم حتى يتحاشاهم الناس، لكن هذا ضرب آخر غير مانريده من مجتمع يستر أخاه المسلم من أجل أن يصلحه ومن أجل أن يرشده ومن أجل أن يقومه ، لا أن تتركه نهبا للشيطان ولا أن تتركه يقع فى بؤرة من الردى والخنا ، ولكن على المجتمع أن يصلح ، وعلى المجتمع أن يقوّم ، وعلى المجتمع أن تتضافر جهود جميع أفراده فى رد قالة السوء والشائعات المغرضة التى تفت فى عضد المسلمين والتى تقضى على الروابط الأخوية فيما بينهم .

إن سيدنا أبا أيوب الأنصارى رحل من المدينة المنورة إلى مصر من أجل حديث واحد سمع أن عقبة بن عامر سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاف أن يموت عقبة قبل أن يسمع منه ماسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ستر المؤمن، فرحل الرجل من المدينة إلى مصر حتى التقى بعقبة بن عامر وقال له : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق أحد سمعه غيرى وغيرك فى ستر المؤمن قال : نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من ستر مسلما على خزية ستره الله يوم القيامة»[2]. وفى رواية «من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة» [3] .

وإن الإسلام الذى أقام هذا المجتمع الأول ، وهذه الدولة الإسلامية الكبرى، هذا الدين بقيمه وفضائله التى تنتشر فى ربوع العالم كفيل أن يصلح مااعوج فيها، إن هذا الدين

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الحدود باب حد الزنا.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ٤ / ١٥٣، ١٥٩، وأخرجه الحميدى فى مسنده ١/ ١٨٩.

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب فى الستر عن المسلم.

حين يمكن له فى الأرض جدير بأن يصلح كل انحراف على أرض الله لأن الذى أنزله ولأن الذى شرعه هو علام الغيوب سبحانه وتعالى. هو الذى يعلم من خلق ، هو الذى لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

وهذا الدين حين يحذرنا من إطلاق الشائعات فى الأمن أو الخوف ، وحين يدعونا إلى التثبت من الأخبار يريد منا أن نكون أقوياء فى عقيدتنا ، يريد منا أن تقوى الروابط الإسلامية التى تجمع بين المسلمين، فلا يمكن لمجتمع أن تقوى الروابط فيه والشائعات تتردد وقالات السوء تنتقل من مكان إلى مكان ، وهناك بعض الناس هوايتهم أن ينقلوا الكلام وأن يستمعوا إلى الغير ، وأن يملوا عليه ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «من نمّ لك نمّ عليك» أى من نقل لك كلاما عن الغير سينقل إلى الغير كلاما عنك أيضا، ومن هنا أغلق صلى الله عليه وسلم هذا الباب فى وجوه الذين ينقلون الكلام عن غيرهم وقال: «لايبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» [1] رسولنا صلى الله عليه وسلم يوجهنا إلى خطورة نقل الشائعات، وكم من شائعة وكلمة سوء انتقلت من بيت إلى بيت فقوّضت بناء أسرة، وشردت أطفالا، وكم من كلمة سوء حرّشت قلوبا على قلوب، ونصبت الشباك والعدوان. أوكما قال: «التائب من الذنب كمن لاذنب له» ادعوا الله يستجب لكم.

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب فى رفع الحديث من المجلس.

(٤٠)

فضل فاتحة الكتاب

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، الموقنين بما عنده من فضل عميم.

سبحانه وتعالى دعانا إلى صراطه المستقيم فى كتابه الكريم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له بيده مقاليد السماوات والأرض وهو على كل شئ قدير .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، بعثه الله سبحانه وتعالى بكتاب أخرج به الناس من الظلمات إلى النور وهداهم من الضلالة العمياء إلى الهداية، والمحجة البيضاء.

اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أيها الإخوة المؤمنون : كم فى كتاب ربنا سبحانه وتعالى من هدايات تأخذ بأيدينا إلى مراقى الفلاح وتسلمنا إلى شاطئ الأمن والنجاح !

وكم فى كتاب ربنا من آيات تهدى إلى أقوم السبل وترشد إلى الطريق الآمن! وكم فى القرآن الكريم من سُور فيها من الأسرار الإلهية بحيث لو عرفنا بعضها لاستطعنا أن نأمن على أنفسنا فى الدنيا والآخرة، وأن نفوز برضا ربنا، وذلك هو الفوز العظيم.

ومن بين سور القرآن الكريم التى يرتبط بها فوز المؤمنين وسعادتهم «أمّ الكتاب»، «الواقية» «الشفاء»، «الصلاة» «السبع المثانى». إنها سورة الفاتحة. وهذه بعض أسمائها. فمن أسمائها أم الكتاب فقد اشتملت على كل ما فى الكتاب العزيز على سبيل الإجمال من عقيدة وعبادة ومثوبة وأنواع الناس والجزاء ويوم الجزاء والوعد والوعيد. وهى الواقية تقى قارئها وصاحبها السوء، وهى الكافية تكفيه من كل شر، وهى الشفاء يستشفى بها كل

عليل عجز طب الأرض عن علاجه، ولايعجز عنه رب الأرض والسماء، وهى الصلاة لأنه لاصلاة بدونها ولأنها تقرأ فى كل صلاة، وهى السبع المثانى لأنها تُثنّى وتكرر فى الصلاة.

وحسبنا قبل أن ندلف إلى أسرار هذه السورة الكريمة التى نكررها فى كل صلاة، ونقرؤها فى كل يوم عدة مرات. قبل أن نتعرف على أسرارها نريد أن نقف وقفة يسيرة مع دعوتها للمجتمع المؤمن على سبيل الإجمال أن يؤمن بأن لهذا الكون إلها واحدا لاشريك له.

وهو حده المستحق للحمد لأنه ربُّ العالمين، وهو وحده المستحق للشكر والثناء لأنه الرحمن الرحيم، وهو وحده المستحق للعبادة لأنه مالك يوم الدين، وهو وحده الذى نخصُّه بالعبادة والاستعانة فلا نعبد سواه ولانستعين بأحد غيره «إياك نعبد وإياك نستعين» .

وهو وحده الذى نطلب منه الهداية إلى صراطه المستقيم «اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» وهى بدعوتها إلى توحيد الله وإلى عبادته وإلى الإيمان باليوم الآخر تطلعنا أننا سنلتقى فيه مع صفحاتنا ومع ما قدمته أيدينا فى الدنيا وجها لوجه لايملك محام ولامدافع ولارئيس ولازعيم ولاقائد ولاغنى ولاذوجاه لايملك فى هذا اليوم أحد لأحد شيئا لأن مالك يوم الدين هو الله الواحد القهار.

من أجل ذلك اختارها رب العزة سبحانه وتعالى تقرأ فى كل صلاة، وفى كل ركعة لتنبه القلوب الغافلة، ولتنبه العروش المتسلطة، وأصحاب القلوب التى أصبحت فى قسوتها كالأحجار فلا تمديد العون لإخوانها من أجل ذلك كانت بتنبيهاتها وتوجيهاتها ترشدنا فى كل وقت نقرؤها إلى أقوم السبل لو تدبَّرنا معانيها أو وقفنا على أسرارها، وعرفنا أن توجيهاتها العظيمة تأخذ بأيدينا إلى أن نعيش عباد الله إخوانا فى الأرض ونتقى الله فيما نأتى وفيما ندع ونعلم أن مالك يوم الدين هو الله وحده ليس لك فى هذا اليوم من جاه ولاسلطان، يا صاحب الجاه والسلطان فى الدنيا، إنما يقف كل إنسان أمام كتابه وجها لوجه ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1]

---

(١) سورة الإسراء آية «١٤»

ومن أجل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من إصلاح للنفس الإنسانية، ومن إصلاح للمجتمع البشرى ومن إرساء لأسس الأمن والاستقرار والسعادة فى الأرض، ولأنها اشتملت على ماجاء به القرآن على سبيل الإجمال اختارها الله تعالى لنتلوها فى كل ركعة نقف فيها بين يدى رب العالمين سبحانه وتعالى.

وإن سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم قد وضح أن هذه السورة هى خيرما أنزل ففيما رواه الإمام البخارى فى صحيحه [1] بسنده عن أبى سعيدبن المُعلّى قال: كنت أصلى فدعانى النبى صلى الله عليه وسلم فلم أجبه . قلت : يارسول الله إنى كنت أصلى ، قال : ألم يقُل الله ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [2] ثم قال : ألا أُعلّمك أعظمَ سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد فأخذ بيدى فلما أردنا أن نخرج قلت يارسول الله قلت لأعلمنك أعظم سورة من القرآن قال : الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيتُه.

وهناك روايه أخرى لهذا الحديث أوردها الإمام أحمد فى مسنده بالسند الصحيح عن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ناداه فانتظر حتى انتهى من صلاته ثم أجابه، فلما سأله وقال: كنتُ أصلى . قال : ألم تقرأ قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم». قال : نعم يارسول الله. فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: لأعلمنك سورة ما أنزل فى التوارة ولافى الإنجيل ولافى الفرقان سورة كانت خيرا منها. يقول فلما كاد أن يخرج وأنا أحاول أن أستوقفه وأن أستأخره حتى يقول: فقال لى فاتحة الكتاب هى السبع المثانى والقرآن الذى أوتيته.

وكأنه صلوات الله وسلامه عليه حين ينبه أصحابه وأحبابه وأمته إلى فضل هذه السورة التى اشتملت على ماجاء به القرآن الكريم على سبيل الإجمال يريد عليه الصلاةُ والسلام أن يعرفوا وأن يبحثوا عن أسرارها. وأن يتقربوا إلى الله سبحانه وتعالى بها لأنها خير ما أنزل، ولأن بها يستجاب دعاء العبد كما ورد فى الحديث الصحيح عن ابن عباس رضى

(١) كتاب تفسير القرآن باب فاتحة الكتاب ٣ / ٢٢٨ صحيح البخارى.

(٢) سورة الأنفال آية «٢٤»

الله عنهما قال: « بينما جبريل قاعد عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل عليه السلام بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء مافتح قط ، قال : فنزل منه ملك ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أبشر بنورين أو تيتهما لم يؤتهما نبى قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقر أحرفا منهما إلا أعطيته »(1)

وهنا نقف أيضا على واحد من أسرار هذه السورة الكريمة التى لفت أنظارنا إليها توجيه نبينا عليه أفضل الصلاة وأتم السلام حتى إن بعض العلماء والصالحين يقولون بالتجربة وليس ذلك فى القرآن ولا فى الحديث أن من قرأها سبع مرات بإخلاص قلب وخشوع نفس وصلة وثيقة بالله استجاب الله له دعاءه.

وهنا نقف أيضا على سر آخر من أسرارها وهو أن القارئ لها لابد أن يكون مدركا لأسرارها، عارفا بمعانيها، موثقا صلته بالله، عاملا بما تتطلبه من صلاح النفس ومن صلاح القلب. ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(2)

وهذا هو الفارق بين من يدعو بها فيستجيب الله له وبين من يدعو بها فلا يستجيب الله له.

من أجل ذلك روى البخارى فى صحيحه من حديث اللديغ سيد الحى.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ناساً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أتوا على حىّ من أحياء العرب فلم يَقْرُوهم فبينما هم كذلك إذ لُدغ سيد أولئك فقالوا هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا إنكم لم تَقْرُونا ولانفعل حتى تجعلوا لنا جُعلا فجعلوا لهم قطيعا من الشاء فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بُزَاقه ويتْفل فبرأ فأتوا بالشاء فقالوا لانأخذه حتى نسأل النبى صلى الله عليه وسلم فسألوه فضحك وقال: وماأدراك أنها رقية، خذوها واضربوا لى بسهم»(3).

---

(1) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة وأخرجه النسائى فى كتاب الافتتاح باب فضل فاتحة الكتاب ٢ / ١٢٨.

(2) سورة المائدة آية ٢٧

(3) الحديث أخرجه فى كتاب الطب باب الرُّقى بفاتحة الكتاب ١٦/٤

وفى رواية قال لهم : إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله [1] .

وهذا معناه أنه أراد مؤانستهم وأخذ ما اصطلحوا عليه من جهة، ومن جهة أخرى أراد عليه الصلاة والسلام أن يقرر أن فاتحة الكتاب رقية يسترقى بها المريض ليشفى.

ولكن يقول بعض الناس: كم كنا نقرؤها على مريض فلايشفى، وكم كنا نقرؤها لندعو فلايستجاب لنا. وقد جرَّب ذلك بعض سلفنا حين قرأوها على مريض فلم يشف فقال قائلهم لقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا قرأها على مريض شفاه الله تعالى بإذنه. فقال قائلهم هذه هى الفاتحة ولكن أين عمر رضى الله تعالى عنه؟

أى أن المسألة مسألة القلب الذى تخرج من شفتى صاحبه هذه الفاتحة. وبمدى الصلاح الذى تمتع به والقرب من الله والصلة الوثيقة بالله سبحانه وتعالى.

ومن أجل ذلك نرى أيضا أن هؤلاء كتب الله لهم رزقا عند أهل هذا الحى وهذه القرية، ولكن لما كان أهل هذا الحى بُخَلاء منعوهم فى أول الأمر ورفضوا حتى أن يعطوهم قرى الضيف الواجب، ولكن لما كان رب العزة كتب لهم فى الأزل وفى علمه أن لهم رزقا مقداره كذا فى أيدى هؤلاء البخلاء سخر الله لهم من الحال ما ألجأهم واضطرهم إلى أن يدفعوا لهم الرزق الذى كتبه الله لهم ، وهذا دليل على أنك إذا كان لك رزق فى مكان لابد أن يسخر الله لك الأسباب لتأخذ هذا الرزق، وإذا لم يكن لك رزق فى مكان مهما فعلت من الوسائل فلا يمكن أن تصل إليه إلا ما قدره العزيز الوهاب سبحانه وتعالى.

إن القرآن الكريم بما اشتمل عليه وما اشتملت عليه سوره الكريمة

وهذه السورة بالذات من معان وأسرار ومن هداية ورشد ليَسْتَوْجب علينا أن نعيش آياته الكريمة وسوره العظيمة، ولاغرو أن تسمى الفاتحة بالصلاة لأنه لاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب ولأن رب العزة سبحانه وتعالى سماها بالصلاة فى الحديث القدسى حين قال سبحانه فى الحديث القدسى:

---

(١) أخرجها البخارى فى كتاب الطب أيضا باب الشرط فى الرقية بقطيع من الغنم ٤/ ١٦

«قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى: حمدنى عبدى، وإذا قال الرحمن الرحيم قال الله تعالى : أثنى علّى عبدى، وإذا قال مالك يوم الدين قال: مجّدنى عبدى، فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»[1]

وبهذا نقف على عظمة هذه السورة التى نقرؤها ونرددها، وعلينا أن ندرك مالها من عظمة وجلال ، وأن نقف على أسرارها، وأن نهتدى بهداها ، وأن نوثق صلتنا بالله سبحانه وتعالى، وأن نوقن ونحن نقول «إياك نعبد وإياك نستعين» بكاف الخطاب إننا نخاطب رب العزة سبحانه وتعالى. حينئذ تستريح القلوب، وتطمئن الأرواح، ولانعيش فى دنيانا فى عراك وفى ظلام، ولانعيش فى اضطراب، ولا نعيش فى فتن هوج، ولو اهتدينا بهداية سورة واحدة كلنا يحفظها وكلنا يقرؤها لواهتدينا بهداها وعرفنا أن أمامنا يوما جاء وصفه فى هذه السورة أنه لاملك فيه لأحد وإنما هو لله رب العالمين مالك يوم الدين المتصرف وحده لو اهتدينا لعملنا لهذه اليوم ألف حساب وحساب.

إن السورة الكريمة السبع المثانى التى نرددها ونقرؤها فى كل صلواتنا بما اشتملت عليه من حمد لله ومن ثناء عليه ومن إيمان بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ، وأن الله وحده هو مالك الدنيا والآخرة، وأننا حين نتجه إليه نخصُّه بالعبادة ولايتحدث الواحد منا باسم نفسه ولابذاتيته ولابفرديته ولكن باسم الجماعة نخاطب الله فيها ونقول : إياك نعبد ، ولا نقول : إياك أعبد

إياك نعبد روح الجماعة المسلمة، روح المجتمع، روح الأمة.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الصلاة باب قراءة الفاتحة فى كل ركعة، وأخرجه النسائى فى كتاب الافتتاح باب ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم فى فاتحة الكتاب ٢/ ١٣٦، وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الأدب باب ثواب القرآن ٢/ ٢٤٣ (٣٧٨٤) وأخرجه أحمد ٢/٢٤١.

أين روح الأمة ؟ أين تماسك الأمة؟ أين تضامن الأمة؟

أين تعاوننا على البر والتقوى ؟ هذا ما تدعونا إليه السورة من وحدة فى الصف ومن تعاون على البر والتقوى كما قال رب العزة.

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [1]

إن سورة واحدة من كتاب ربنا تحمل منهاج الإصلاح فى هذه الدنيا، وتحمل منهاج الإصلاح لنا دنيا وأخرى ، وتحمل منهاج الإصلاح لنا فردا وجماعة وأمما وشعوبا ، وتنشر السلام فى الأرض، وتنشر الأمن بين ربوعها، وتنشر الإيمان الصادق الذى إذا أحل بقلب المؤمن أصبح من عباد الله المخلصين.

(١) سورة المائدة آية «٢»

(٤١)

سماحة المنهج الإسلامى للدعوة

الحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجلاله وكماله. سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شئ قدير. نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره . فهو وحده غفّار الذنوب وستار العيوب وعلاّم الغيوب.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، بيده مقاليد السماوات والأرض يعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء بيده الخير وهو على كل شئ قدير.

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله. بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. فبلغ رسالة ربه أعظم ما يكون التبليغ وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه.

اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فيا جماعة المؤمنين ، إن المنهج الربانى الذى خاطب الله تعالى به سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم فى الدعوة إلى الله والذى رسم فيه رب العزة لرسوله ومصطفاه كيفية الدعوة إلى هذا الدين يتلخص فى قول الحق تبارك وتعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (١)

ففى هذه الآية الكريمة وضح الحق منهاج هذه الدعوة التى ختم الله بها دعوات السماء ، وختم بشريعتها الشرائع الإلهية وختم بدستورها السماوى – وهو القرآن – جميع الكتب المنزلة ، وختم برسولها جميع الأنبياء والمرسلين.

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥

وجعل هذه الدعوة عامة فى الزمان والمكان خالدة إلى أن يقوم الناس لرب العالمين. فلم تقتصر على جماعة دون جماعة ، ولاعلى زمن دون زمن ، ولا على مكان دون مكان كغيرها من الدعوات السابقة.

فقد كان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة . وبين القرآن الكريم نماذج من الرسل السابقين الذين أرسلوا إلى قومهم خاصة. فبين سبحانه وتعالى أن كل رسول بعث إلى قوم معينين ، قال سبحانه ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (١)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ (٢)

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ (٣)

وهكذا لكل جماعة ولكل زمان ، ولكل قوم كان يُرسل رسول ، أما خاتمهم فرسالته عامة لم يُرسل إلي قوم معينين ولم يرسل إلى العرب فقط ، ولا إلى العجم فقط ولا إلى عصر واحد وإنما أُرسل إلى الناس كافة وبعثه ربه رحمة للعالمين كما قال سبحانه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٤)

فقد أرسل صلى الله عليه وسلم إلى جميع العالمين على خلاف الرسل السابقين جميعا الذين كان يُرسل كل نبى منهم إلى قومه خاصة. أما هو فقد تحدث عن ذلك وقال فيما اختصه الله تعالى به من خصوصيات . « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة » (٥) ولأنه أرسل إلى الناس كافة لابد أن يكون الدستور السماوى الذى

---

(١) سورة الأعراف آية ٦٥

(٢) سورة الأعراف آية ٧٣

(٣) سورة الأعراف آية ٨٥

(٤) سورة الأنبياء آية ١٠٧

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة باب قول النبى صلى الله عليه وسلم: جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا.

سيدعو الناس به ويهديهم فى ضوء تعاليمه له سمة العموم فمن أجل ذلك كان القرآن تبيانا لكل شئ وكان كما بيّن الله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١)

فكما أن دعوته عامة وهو رحمة للعالمين فيقتضى ذلك أن يكون الدستور السماوى الذى أرسل به ذكراً للعالمين ، له سمة العموم ولضمان عموم الدعوة وخلودها كان الرسول رحمة للعالمين ، وكان كتابه تبيانا لكل شيء وكان دستوره ذخرا للعالمين، وكانت محافظة الله تعالى وصيانته لهذا الدستور الخالد أمرا ضروريا أين جميع الكتب السابقة ؟ ما الذى اعتراها من التغيير ؟ لكن هذا الكتاب تكفل الخالق القادر بأن يحفظه فى الصدور وفى السطور مهما تجمع أُعداؤه حوله ليدسوا أو يحرفوا أو يزيفوا فلن يستطيعوا أن يغيروا شيئا فيه لأن الذى تكفل بحفظه هو الخالق القادر على كل شيء القائل فى كتابه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (٢) .

ولضمان الدعوة وضمان عمومها وخلودها تكفل الله بحفظ دستورها ، وهل من الممكن أن يحفظ هذا القرآن فى الصدور وفى السطور دون أن تتبين لنا حكمه ومواعظه وهدايته ؟ لايمكن أن يأخذ مكانه فى الهداية إلا إذا عرفنا معانيه وهدايته وتفاصيل الأحكام التى جاء بها. فأين ذلك ؟ إنه فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أنزل الله عليه القرآن كما قال ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾(٣). أنزل الله عليه هذا الذكر ليبين للناس وليرشدهم فلابد أيضا أن يحفظ ماصح من الحديث ليكون بيانا لهذا القرآن ولذلك يقول ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (٤) بيان القرآن على الله فقد تكفل بحفظ هذا البيان بما صح من أحاديث سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ولضمان عموم هذه الدعوة وخلودها كان منهاجها الربانى لاتعقيد فيه، ولاغموض فيه ولافلسفة حائرة فيه ؛ إنه واضح كل الوضوح : «ادع إلى سبيل ربك

---

(١) سورة ص آية ٨٧

(٢) سورة الحجر آية ٩

(٣) سورة النحل آية ٤٤

(٤) سورة القيامة آية ١٧ ، ١٨ ، ١٩

بالحكمة» من يستوعبها ممن لهم خبرة أو علم فلنخاطبه بالحكمة والبرهان والذين يحتاجون إلى الموعظة الحسنة فلندعهم بالموعظة الحسنة وليس بالتشدد ولابالتزمت ولابتعقيد الأمور .

والذين يعارضون نجادلهم بالتي هي أحسن . فهذا الدين لايقر الإكراه ولايقر التشدد ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (١) .

ومن أجل ذلك أفسح المنهج الإسلامى صدره لتعدد الآراء حين تكون صحيحة وحين لاتصادم وحيا أو آية أو حديثا ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقر تصرف بعض أصحابه حين يجتهدون ، ومع هذا الإقرار فإنه يعتبر حديثا ، ولذلك لما قال «لايصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة (٢) » وفهم البعض أنه لابد من أدائها فى هذا الموقع ففات وقت العصر وماصلاها البعض إلا بعد الغروب فى بنى قريظة ، وفهم الآخرون أن المراد أن يستعجلهم وأن يسرعوا فحيث خافوا أن يفوتهم وقت العصر صلوا العصر قبل أن يصلوا إلى بنى قريظة فريقان اختلفا فى فهم النص فعندما جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعنف أحدا من الفريقين ولم يقل لأحد منهم أنت على خطأ وإنما قبل اجتهاد كل طرف منهم ومثال آخر : رجلان تيمما حيث لم يجدا الماء وبعد الصلاة ، وجدا الماء أما أحدهما فأعاد الوضوء وأعاد الصلاة وأما الثانى فلم يعد الوضوء ولم يعد الصلاة فلما ذهبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للذى لم يعد الوضوء ولم يعد الصلاة : أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للذى أعاد الوضوء وأعاد الصلاة : لك الأجر مرتين (٣).

انظروا إلى سماحة الإسلام وإلى يسر تشريعه وإلى رحمة هذا النبى العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، مارد اجتهاد واحد منهم وهاهو سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه يخبر أنه كان فى ليلة باردة شديدة الشتاء والبرد فأصبح محتلما ولم يستطع أن يمس الماء البارد وخاف على نفسه فتيمم صعيدا طيبا وصلى بإخوانه إماما فلما علم النبى صلى الله

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى باب مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومحاصرته إياهم.

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الطهارة باب المتيمم يجد الماء بعدما يصلى فى الوقت

عليه وسلم بخبره قال له : ياعمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فقال : يارسول الله كانت الليلة شديدة الشتاء وخفت على نفسى أن أهلك أو أن أموت ، وذكرت قول الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(١) .

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا ، وأقره على اجتهاده(٢) .

أفرأيتم دينا سمحا كهذه السماحة . أفرأيتم تعاليم فى يسرها وفى فتح نوافذ الرحمة على عباد الله كهذه الرحمة التى بعث بها خاتم الأنبياء والمرسلين وليس معنى هذا أن لكل إنسان أن يجتهد، لا وألف لا ، فالاجتهاد له أربابه ، وفهم النصوص لابد له من المتخصصين ومن أجل ذلك يقول الله تعالى ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٣) .

فكما أقر من هم أهل للفهم والاجتهاد فإنه رفض الفهم الخاطىء فى دين الله ورد بعض الذين حاولوا أن يخالفوا ماأمر الله ونهى عن اتباع الذين يضلون الناس وقال صلى الله عليه وسلم موضحا مكانة العلماء ومبينا أن قبض العلم يكون بقبض العلماء فقال فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما : «إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم على ظهر الأرض أو إذا لم يبق عالما كما فى الرواية الأخرى للحديث اتخذ الناس رءوسا جهالافسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا(٤) » أى أن الله تعالى لايقبض هذا العلم انتزاعا يأخذه من صدور العلماء ولكن يقبض العلم بقبض العلماء أى بموت العلماء حتى إذا لم يبق عالم على ظهر الأرض أو إذا لم يبق الله عالما كما فى الرواية الأخرى للحديث اتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير عليم فضلوا وأضلوا ، ولذلك لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شأن

---

(١) سورة النساء آية ٢٩ .

(٢) أخرجه أبو دواد فى كتاب الطهارة باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم ؟

(٣) سورة النحل آية ٤٣

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب العلم باب كيف يقبض العلم، وأخرجه مسلم فى كتاب العلم باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن فى آخر الزمان.

واحد من المسلمين أصابه حجر فى رأسه فشجه وفتح رأسه ونزل منه الدم فلما كان على جنابة سأل بعض الناس : هل يجب على أن أغتسل ؟ قالوا : نعم لابد من الاغتسال بالماء حتى تتطهر ولانجد لك رخصة فاغتسل الرجل فمات بسبب الغسل وبسبب الماء الذى دخل جوفه فلما علم النبى صلى الله عليه وسلم بذلك قال : قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء العيّ السؤال (١) . أى أن هؤلاء الذين أفتوه خطأ تسببوا فى قتله وكان لهم سعة وفسحة أن يسألوا غيرهم حتى ينبئهم بالحق إذا كانوا لايعرفون .

ولذلك يروى عن الإمام مالك رضى الله تعالى عنه - وهو صاحب المذهب المعروف- وهو إمام دار الهجرة ، أنه سئل فى أكثر من أربعين مسألة فأجاب فى ست عشرة مسألة فقط، وقال فى جميع المسائل الباقية : لاأدرى ، ويقول بعض الصحابة : لاأدرى نصف العلم ، ويقول : لقد أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون وكل يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى يحدثون بالأحاديث عند هذه الأساطين أى الأعمدة التى فى المسجد النبوى عند الروضة الشريفة ، علماء كثيرون والإمام مالك يقول : كلهم يروى الحديث ثم يقول : وكلهم مأمون أى رجل أمين وأهل ثقة ، ومع هذا ماأخذت العلم عن واحد منهم لأنه ليس من أهل هذا الشأن ، أى ليس متخصصا فى هذا العلم بالذات ويقول محمد بن سيرين إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون عنه دينكم (٢) .

من أجل هذا يوضح لنا الإسلام المنهاج الربانى الذى رسمه لرسوله «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » لمن الحكمة ؟ لمن يجيد معرفة البرهان والدليل ، ولمن الموعظة الحسنة ؟ لمن يهتدون بالموعظة الحسنة التى فيها لين فى القول لاشدة ولاحدة .

ما أروع قول هذا الخليفة عندما شدد عليه أحد الدعاة وأغلظ له فى القول فقال له :

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الطهارة باب فى المجروح يتيمم.
(٢) أخرجه مسلم فى المقدمة باب بيان أن الإسناد من الدين.

رفقا ياشيخ لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر منى فقال لهما «فقولا له قولا لينا لينا » **أرسل من هو خير منك وهوموسى عليه السلام وأخوه هارون إلى من هو شر منى إلى فرعون الذى ادعى الألوهية فأمرهما فقال لهما فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى، وعندما خاف موسى وهارون أن يبطش بهما فرعون وقالا لله تعالى** : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [(1)] أجـاب الله عـلى تخوفهمـا بقـوله ﴿ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [(2)] . لاتخف فالله معك ، سر بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، ولاتتشددوا يسروا ولاتعسروا وبشروا ولاتنفروا ، ماانتشر دين الله بالإكراه ، ما انتشرت الدعوة الإسلامية بالقهر ولابالسيف لافى العهد المكى ولافى العهد المدنى ، وإنما انتشرت بسماحة تشريعها ويسر تكاليفها ورحمة رسولها صلى الله عليه وسلم حتى مع أُعدائه ، حتى مع الذين ناصبوه العداء ، إن ثمامة بن أثال الذى أسره المسلمون وحين طالبه النبى صلى الله عليه وسلم بالإسـلام ثلاث مرات كان الرجـل يرفض ويقول يا محمد : إن تقتل تقتل ذا دم ، أو تنعم تنعم على شاكر أو تسأل ما لا تعطه فقال : أطلقوا سراحه وعفا عنه النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكرهه على الدخول فى الإسلام فراجع الرجل نفسه وقال : ما هذا الدين ؟ ما هذا الرسول ؟ ماهذه الدعوة ؟ هؤلاء الذين التى كنت عدوا لهم من قبل وأحاربهم منذ قريب ومع هذا حين قدروا علىّ عفوا عنى والله ماهى إلا تعاليم حق وتعاليم سماوية. وراح ليشهر إسلامه على ملأ قومه وبين يدى المصطفى صلى الله عليه وسلم ويعلنها صريحة مدوية ويقول : أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . يامحمد والله ماكان على الأرض أبغض إلىّ من وجهك فأصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىّ . والله ماكان من دين أبغض إلىّ من دينك فأصبح دينك أحب الـدين كله إلىّ . والله ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلىّ [(3)] .

(١, ٢) سورة طه آية ٤٤، ٤٥

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الأحكام باب محاسبة الإمام عماله، وأخرجه مسلم فى كتاب الإمارة باب تحريم هدايا العمال.

وهكذا انتشر الإسلام وهكذا ندعو لديننا وهكذا يجب أن نوحد صفوفنا أمام تلك التحديات التى تحدق بنا من كل جانب ، وأمام تلك التحديات التى تتضاعف فى مخطط مظلم خطير للدعوة وللمسلمين وللأقليات بصفة خاصة ، أفيتجمع أهل الباطل حول باطلهم ويتفرق المسلمون من حول الحق ، أفهذا يليق بأمة أمرها دينها وقال : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[1] .

أيليق بالمسلمين أن تناصب دولة مسلمة دولة مسلمة الحرب . أيليق بالمسلمين أن يتفرقوا فى الحياة شيعا وبددا أمام قطعة من الأرض تتنازعها دولة ودولة أخرى . أيليق بالمسلمين فى الأرض أن يستحل بعضهم دماء الآخرين ، أيحل للمسلمين فى الأرض أن يروا مذابح البوسنة والهرسك فلا يتقدموا وإنما يبعثون بوسائل الشجب أو بقليل من المال . أين دينكم أيها المسلمون فى كل الأرض ، إن مصر التى قامت بدور فى هذا المضمار لاتكفى وحدها ، لابد أن تتقدم الدول والبلاد الغنية وكل مسلم يستطيع أن يبذل لابد أن يبذل لإنقاذ الأقليات الإسلامية وإلا فإنه محاسب فى يوم لايغنى فيه عن الإنسان إلا ماقدمته يداه فى دنياه ، إن خيرا فخير وإن شـــرا فشر ، أو كما قال : التائب من الذنب كمن لاذنب له .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣

(٤٢)

الإخـلاص

الحمد لله رب العالمين هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . هو وحده الإله المعبود وهو وحده الرب المقصود .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله بلغ عن ربه أمانة السماء ، ودعا الناس أن يكونوا مخلصين فى دينهم وفى عباداتهم وفى معاملاتهم وفى أخلاقهم ، اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين أخلصوا دينهم لله فرضى الله عنهم ورضوا عنه ، وفازوا بسعادتى الدنيا والآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم .

أما بعد ، فياجماعة المؤمنين :

إن ديننا الإسلام يأمرنا أن نكون مخلصين فى كل أقوالنا وفى كل أفعالنا وفى كل عباداتنا وفى كل معاملاتنا وفى كل علاقاتنا الإنسانية والاجتماعية والدولية، وماأصيبت أمتنا الإسلامية بنكسات أو ردود أفعال ولاتعثرت فى خطاها إلا بسبب عدم الإخلاص من بعض أفرادها ، فـلو أخلصـوا دينهم لله وأخلص الجميـع فى قوله وفعـله وظـاهره وباطنه لما حدث فى هذه الأمة نكبات ولا كوارث ولاصدمات ولاردود أفعال يندى لها جبين هذه الأمة لأن الإخلاص يورث القلب نقاءً ، ويورث الجوارح سلوكا صادقا مع الله سبحانه وتعالى ومع رسوله عليه أفضل الصلاة وأتم السلام .

ومن أجل ذلك رأينا القرآن الكريم وهو يدعو إلى تأسيس أعمالنا على الإخلاص يوضح للذين يرجون لقاء ربهم هذه الحقيقة﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١) .

ومعنى ولايشرك بعباده أحدا : أنه إذا أدى العبادة لايرائى فيها ، وإذا أدى عملا لايقصد به ثناء الناس عليه ، وإنما يرجو بعمله ربه، ويبتغى به وجه الله سبحانه وتعالى وحده.

أما الذين يفعلون بعض الأعمال أو بعض العبادات ويضعون فى أذهانهم وخواطرهم غير الله سبحانه وتعالى يتخلى الله عنهم .

ولذلك يروى لنا سيدنا رسول صلى الله عليه وسلم حديثا قدسيا عن رب العزة سبحانه وتعالى أنه قال : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه (٢) »

أى إذا عملت عملا أدخلت شيئا آخر أو إنسانا آخر تبتغى زلفى إليه أو تقربا إليه أو تبتغى بعملك هذا أن يقال فلان فعل كذا وكذا فإن الله يتخلى عن هذا العمل ويقول : تركته وشركه : هذا الذى ابتغى به أحدا آخر غير الله لايخلص لله سبحانه وتعالى ولايتولى الله رعايته .

أما الذى يرجو لقاء ربه فهو الذى يبتغى بعمله وجه الله ، فالذى يبتغى بعمله وجه الله سبحانه وتعالى ويكون مخلصا فيه يحرسه الله ويظل فى عناية الله ، وتكون كل خطاه فى رعاية الله ، فيحفظه من كل سوء ، ويسدد خطاه ، ويوفقه فى دنياه ، ويرضى عنه فى أخراه ؛ لأنه أخلص عمله لله رب العالمين ، ومن أجل هذا كانت السورة التى نرددها فى كل صلاة تخص الله وحده بالعبادة وهى السبع المثانى نرددها فى كل صلاة﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٣)

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الزهد باب تحريم الرياء .

(٣) سورة الفاتحة آية ٥ .

أى لانعبد إلا الله ولانستعين إلا بالله ، فأعمالنا خالصة لله رب العالمين وحده ومن هنا أيضا كان التوجيه النبوى الحكيم الذى يرشد المخلصين إلى أنهم ماداموا قد أخلصوا قولهم وعملهم لله فلا يخافون أحدا، ولايتزلفون إلى أحد، وليعلموا أن الله قادر على تغيير كل شئ.

دع المقـــادير تجـــرى فى أعنتهـــا ... وَلا تبيتنّ إلا خـــالى البـــــالى

مـــا بـــين طـــــرفة عين وانتباهتـــها ... يغـــير الله من حـــال إلى حـــال

هو قادر على كل شئ، هوخالق الخلق. فهل نبتغى عند غير الخالق شيئا ؟

وهل نبتغى من غير الرزاق رزقا؟ وماذا يملك هذا الغير لنفسه؟

إنه لا يملك لنفسه موتا ولاحياة ولانشورا.

ومن أجل ذلك جاء التوجيه النبوى الحكيم فى تحذيرنا من سؤال الناس : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك» (١)

فلماذا لا نخلص للإله القادر على كل شىء ، إذا سألنا فنسأله وحده ، ولنعلم أنناحين نسأله ونستعين به ونخلص له فإنه قريب مجيب يحب أن تمتد إليه أكف الضراعة بالدعاء ، ويحب أن نسأله فى كل وقت وحين .

لكن بنى آدم يغضبون إذا سئلوا ، وبعضهم قد يأخذه الغرور والصلف حين يطلب منه مطلب ، أو حين يحتاج إليه إنسان فيتلوى ويتلون ويتمرد ، ولذلك ماأجمل هذا الدعاء: لاأطعمتك يد شبعت بعد جوع ، ولاجعل الله لك عند لئيم حاجة .

فاللئيم من بنى البشر حين يسأل منهم من يغضب ومنهم من يتلوى ومنهم من يتمرد ، وما أجمل قول هذا الحكيم :

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل ٣٠٧/١ ، والترمذى فى كتاب صفة القيامة .

لاتســــألن بُنَىّ آدم حـــــاجة وسـل الـذى أبـوابه لاتـُحْجَبُ

الله يغضــب إن تركـت ســـؤاله وبُنَىُّ آدمَ حـين يُسـأل يغضــبُ

فالذى لاتحجب أبوابه ولاتغلق جدير أن نخلص له وأن ندعوه وحده وأن نستعين به ، وليس الإخلاص إلا سرا من أسرار الله يقذفه فى قلوب من أحب من عباده فإذا بالإنسان المخلص لاترى له ظاهرا وباطنا فما فى باطنه فى ظاهره . ولايتلون ولاينافق ولايرائى فهو فى سمته وفى وقاره وفى ظاهره كما هو أيضا فى باطنه .

ومن أجل هذا نرى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرر حقيقة الإخلاص وأنه يتركز في النية فيقول صلى الله عليه وسلم :«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى فمن كانت هجـرته إلى الله ورسوله فهجـرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجـرته إلى دنيا يصيبها أو أمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه [1] »

إنما الأعمال بالنيات : أي صلاح العمل وسلامة العمل وقبوله على حسب نية صاحبه ، إن كان صادقا مخلصا قبله الله ، وإن كان مرائيا رده الله عليه ، ثم يبين الرسول صلى الله عليه وسلم جزاء كل إنسان على حسب نيته فيقول : وإنما لكل امرئ مانوى : أي لكل امرئ من الثواب مانواه ، ولكل امرئ من العقاب مانواه من الشر فلكل إنسان مانواه ، فكل إنسان ينظر إلى نيته لأن الصـادق المصدوق صلى الله عليـه وسـلم يقول : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امـرىء مـانوى . فإذا كنت نويت خيرا فثق أن الخير سيأتيك ، وإذا كنت قد نويت شرا فثق بأن المكر السيء لايحيق إلا بأهله ، وثوابك على حسب مانويت فإن نويت بعملك عبادة سيثيبك الله، وإن نويت به الإخلاص والطاعة لله سيثيبك الله ، ولذلك يفرع الحديث بعذ ذلك ويقول «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه» .

---

(١) أخرجه البخارى بدء الوحى ، وأخرجه مسلم فى كتاب الإمارة باب إنما الأعمال بالنية .

لقد طلب رجل الهجرة ولم يكن يريد بهجرته ذات الهجرة ولكنه يبتغى بها أن يتزوج امرأة خطبها فقالت له : لاحتى تهاجر ولذلك سمى بمهاجر أم قيس وقال فى شأنه هذا «ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو أمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فكل إنسان على حسب نيته إن كانت خالصة لله فهى لله ، وإن كانت لدنيا أو للشهوة فهى للدنيا أو الشهوة .

ومن هنا نرى أعمالنا ثلاثة أقسام : القسم الأول ، طاعة نعبد الله بها، والقسم الثانى: معصـية يعصى أحدنا ربه بها ، والقسم الثالث : أعمال مباحة ليست طاعة وليست معصية.

فالقسم الأول وهى أعمال الطاعات حين تخلص فيها لله يثيبك الله ويعطيك الحسنة بعشر أمثالها ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى إضعاف كثيرة والطاعة نفسها إذا راءيت فيها ونافقت ولم تخلص لله فيها انقلبت الطاعة إلى معصية .

فالصلاة مثلا عبادة لكن يقول الله لمن يرائى أو ينافق فى صلاته ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [1] فهذه طاعة بل أقرب العبادات وأعظمها إلى الله لكن حين نافق فيها وراءى قال «فويل للمصلين» .

فمن هناكانت الطاعة لابد فيها من الإخلاص حتى يثاب العبد عليها وحتى تكون صحيحة .

وأما القسم الثانى وهى أعمال المعاصى : فالمعصية هى المعصية ، لاتقل إن نيتى كانت خيرا أو إننى أبتغى بذلك الخير ، لا ، النية ومحاولة تبرير المعصية لايخرجها عن كونها خطيئة ولايمكن أن تكون طاعة بحال من الأحوال .

فمثلا : الذى يجمـع ماله من حرام أو غش أو نصب أو رشوة أو ربا أو اختلاس أو ما إلى ذلك من وجوه أكل المال بالباطل ، إذا قال أنا جمعت هذا المال ولكننى سأبنى به مسجدا لأطهره ، أو سأتبرع به إلى الجهة الخيرية، أوسأنفقه على الفقراء نقول له لا . مادام

---

(١) سورة الماعز من آية (٤) إلى آخر السورة .

المال من حرام فلن يقبله الله لأن الله تعالى طيب كما قال صلى الله عليه وسلم :« إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا [(١)] »

فالمعصية هى المعصية لاتغيرها نيتك إلى طاعة أبدا ،

أما القسم الثالث وهى الأعمال المباحة التى ليست طاعة وليست معصية فالأكل من الأعمال المباحة ، والشرب من المباح ، والنوم من الأعمال المباحة ، ومعاشرة الزوجة الحلال من الأعمال المباحة . هذه الأعمال ليست صلاة ولاصياما ولازكاة ولاطاعة ، وليست معصية أيضا ، ولكن إخلاصك فيها وتمحض نيتك لله وللطاعة فيها تحول هذه الأعمال المباحة من كونها أعمالا دنيوية لك فيها حظ دنيوى تتحول إلى طاعة لك عليها ثواب ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله تعالى إلا أجرت عليها حتى اللقمة ترفعها إلى فم زوجتك لك بها صدقة [(٢)]» . فإنفاق الإنسان على زوجته أمر واجب لكن حين تخلص فيه يصبح طاعة ، وأكثر من هذا المعاشرة الزوجية التى فى الحلال ليعف نفسه وأهله ، وليبتغى الولد مادامت النية صالحة تصبح طاعة ويأخذ الإنسان ثوابا عليها .

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه «وفى بضع أحدكم صدقة ،قالوا يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر[(٣)] » .

انظروا إلى الدين الإسلامى فى عظمته وفى سموه ، وانظروا إلى أعمالكم من طاعة أو معصية أو أعمال مباحة ، الأكل والشرب والنوم لو ابتغى الإنسان بهذه الأعمال المباحة التقوّى على طاعة الله وماإلى ذلك يكون له عليها ثواب وطاعة .

---

(١) أخرجه الدارمى فى كتاب الرقاق باب أكل الطيب وأخرجه أيضا فى كتاب الوصية .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب المرضى باب مارخص للمريض أن يقول : إنى وجع ، وأخرجه أيضا فى كتاب الوصايا باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس ، وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب اسم الصدقة يقع على نوع من المعروف .

ومن أجل هـذا نـرى أن للإخلاص أثـرا ، وأن للنيـة أثرا فى كل عمـل نأتيه ، وربما ينوى الإنسان أن يفعل طاعة من الطاعات مثلا ثم يحول حائل دون أن يفعلها فالله تعالى من كرمه يثيبه على نيته .

ولذلك جاء فى الحديث : «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة [(١)] » .

من هم بحسنة فلم يعملها لأنه لم يفعلها لحائل حال عن إرادته ، كأن يريد أن ينوى الحج فبدأ يتقدم ويهم ولـكن أقعده المرض أو تـوفى أو حال حـائل ما ، يعطيه الله ثوابا كما لو كان قد حج .

وكَمنْ يريد أن ينفق نفقة فضاع المال من يده عن غير قصد منه يعطيه الله ثواب ذلك، لأن من هم بحسنة فلم يفعلها كتبها الله له حسنة كاملة فإن فعلها أىْ أدّى الطاعة بالفعل ، كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، هذا فيمن هم أن يفعل طاعة . وفى المقابل من هم ليفعل سيئة ثم تذكر قدرة الله ومؤاخذة الله وعقوبة الله، وبدأت خطاه تتقدم لارتكاب الذنب ، فلمـا تذكر قدرة الله عليه رجع دون أن يفعل هذا الذنب . ما جزاؤه ؟

يقول الحديث القدسى : وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة .

انظروا إلى الرحمة الإلَهية ، هَمّ بسيئة وذهب ليرتكبها وخاف مؤاخذة الله وعقوبة الله فعاد دون أن يفعل المعصية ، يكتب الله له هذا الهَمّ حسنةً ، فإن فعلها – أى فعل السيئة – يقول الله : كتبتها له سيئة واحدة ، وهذا من رحمة الله أرحم الراحمين سبحانه وتعالى .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب من هم بحسنة أو سيئة ، وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس .

فالنية تدخل فى كل عمل ، طاعة كان هذا العمل أو غير طاعة .

وأحيانا يأتى بعض الناس أعمالا تعتبر من أعظم القربات عند الله سبحانه ولكنها تخلو من الإخلاص لله فيصبح هذا العمل لاقيمة له ، ولا أثر له ، ولاوزن له عند رب العالمين سبحانه وتعالى ، حتى ولو كان هذا العمل تلاوة للقرآن أو علما من العلوم ، حتى ولو كان هذا العمل بذلا للمال وسخاء وإنفاقا ، حتى ولو وصل هذا العمل إلى درجة الاستشهاد والموت فى سبيل الله ، فإنه إذا خلا من الإخلاص يكون لاوزن له ولاقيمة .

وقد روى الإمام مسلم فى صحيحه بالسند المتصل عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت، قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرأن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار [1] »

إن الإخلاص أيها الإخوة المؤمنون فى العبادة وفى العمل وإن إخلاص قلوب بعضنا لبعض يتأتى بأن يخلص كل منا فيما يأتى وفيما يدع ، وأن يخلص كل إنسان منا لأخيه الإنسان ، فيوم أن يكون الإخلاص بيننا فى كل طاعاتنا وعباداتنا ، وفى كل معاملاتنا وعلاقاتنا ، يوم أن نخلص لله ويوم أن نعلم أن الله رقيب علينا ومحاسب لنا ومطلع علينا

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

لاتخفى عليه خافية ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) يوم أن نتذكر بطش الجبار وقوة العلى القهار واطلاعه علينا ، يوم أن نراقبه فى السر وفى العلن ، وفى الفتن ماظهر منها ومابطن ، يوم أن يفتح علينا بركات من السماء والأرض ، فلنتب إلى الله ولنخلص إليه فإن رب العزة يقول فى الحديث القدسى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه (٢) » .

أيها الإخوة المؤمنون : إن أمتنا فى حاجة لأن نخلص لها فى عقيدتنا وانتمائنا لهذه العقيدة وارتباطنا بالله رب العالمين ، وفى إخلاصنا أيضا بعضنا لبعض ومحبة كل منا لأخيه فهى عنصر أساسى من عناصر هذا الدين .

إن الولاء الذى يربط المؤمن بأخيه يستوجب عليه أن يعيش الناس على ظهر الأرض أحبة ودعاء مخلصين أنقياء أصفياء ، لاغل ولاحقد لاأثرة ولابغضاء ولاكراهية. ماذا على الناس لو عاشوا أحبة ومخلصين وودعاء ، إننا فى أمس الحاجة إلى أن نترابط وأن نتواصى بالحق وأن نتواصى بالصبر ، فالمؤمنون هم يد على من سواهم .

ومن أجل ذلك كان علينا أن نخلص لله رب العالمين حتى يمن الله علينا بفتح ونصر من عنده .

---

(١) سورة المجادلة آية ٧ .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد.

(٤٣)

وسطية الإسلام

الحمد لله رب العالمين ، أنعم علينا بنعمة الإسلام وكفى بها نعمة .

وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، الذين آمنوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، وعرفوا حقيقة دينهم ، وأنه الدين الحق الوسط ، الذى لاإفراط فيه ولاتفريط ، ولاغلو فيه ولا تقصير ... وعرفوا حقيقة أمتهم وهى أنها أمة وسط كما قال سبحانه : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» وكان زمان هذه الأمة وسطا ، وكان مكانها وسطا ، وكانت دعوتها وسطا فى العقيدة والعبادة والأخلاق والمنهج ، فلذا كانت بحق خير أمة أخرجت للناس .

أيها الإخوة المؤمنون

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [١] ، والوسط : الخيار والأجود ، ولما أنعم الله على هذه الأمة بنعمة الوسطية فكانت خير الأمم ، خصها سبحانه وتعالى بأكمل الشرائع وأوضح المناهج وأيسر التكاليف وأوضحها ، كما قال سبحانه :

﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [٢] .

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢) سورة الحج آية ٧٨ .

وفيما رواه الإمام أحمد -- بسنده -- عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه ، فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : مَا أَتَانَا من نذير ، وماأتانا من أحد . فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، قال : فذلك قوله : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ قال : والوسط العدول فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم [(١)] » .

وفيما رواه الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم هذا، فيقولون: لا، فيقال له هل بلغت قومك ؟ فيقول: نعم، فيقال من يشهدُ لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جـاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسـل قد بلغوا فذلك قـوله عز وجل ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾. والآية الكريمة تشير إلى أن الله تعالى حين حوّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة قبلة إبراهيم عليه السلام واختارها لهم ليجعلهم خيار الأمم،ليكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم ، لأن الجميع معترفون لهذه الأمة بالفضل. وواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهل المدينة اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا، وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان يتوجه بالدعاء إلى ربه سبحانه وتعالى وينظر إلى السماء، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [(٢)] .

---

(١) رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه من طريق الأعمش

(٢) سورة البقرة آية ١٤٤ .

وكان عليه الصلاة والسلام قبل هجرته قد أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذّر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس.

وكان الأمر باتجاهه إلى بيت المقدس من الله تعالى، وكان التحويل إلى الكعبة من الله ووافق رغبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد شرع الله التوجه إلى بيت المقدس ثم شرع التحول إلى الكعبة، ليظهر من يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ممن ينقلب على عقبيه، قال تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ ﴾(1)

عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أوسبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت وكان الذى قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ (2).

والكعبة المشرفة، التى هى قبلة المسلمين، هى فى البقعة المباركة، والمكان الوسط، فهى فى وسط الكوكب الأرضى، تتوسط دنيا الناس، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا..

وهكذا اختار الله تعالى مكان رسالته، وموقع قبلة الصلاة، ومهبط الوحى، هذا المكان الوسط، الذى يتسق مع وسطية الدعوة السمحة، ويتناسب مع الرسالة العامة الخالدة لترسل أشعة النور والهداية إلى مَنْ حولها من جميع بقاع العالم.

---

(1) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(2) رواه البخارى .

وهكذا اقتضت الحكمة الربانية، أن يكون المكان وسطا فى جغرافية الأرض؛ لتتمكن الدعوة أن تنتشر فى ربوع الأرض، وتؤدى أمة الإسلام أمانة التبليغ التى حملها الله تعالى إياها، حيث نزل الوحى - قرآنا وسنة - بلسان عربى مبين، وفى أمة عربية، وفى مكان وسط من العالم، كل هذا يؤكد وجوب تبليغ الأمانة التى كلف الله تعالى هذه الأمة بها، وشرفها بإنزال الوحى على أرضها ، وإرسال رسول من أنفسهم، وقيام القبلة - الكعبة المشرفة - فى هذا المكان الطاهر والحرم الآمن فى قلب العالم ...

وهكذا تتكشف حقيقة نزول الوحى الإلهى فى البلد الحرام، والقبلة المشرفة داخل المسجد الحرام، فمكة المكرمة هى مركز الكرة الأرضية ووسط العالم بأسره.

وإن قوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾

يحدد لهذه الأمة دورها فى النهوض بالبشرية، ورسالتها فى قيادة القافلة الإنسانية، فبذلك تتبوأ مكانتها كخير أمة أخرجت للناس، شاء الله أن تكون أمينة على رسالة السماء وشاهدة على الناس.

وحين تتخلى عن هذه الرسالة، أوتخل بواجبها تكون قد حرمت نفسها من خيريتها، ومن كونها الأمة الوسط، وفقدت كيانها المعنوى ودورها الريادى بين الأمم.

ويستوجب القرآن على هذه الأمة عبادة الله، والجهاد فى سبيل الله حق جهاده؛ لأنه اختارهم واصطفاهم على سائر الأمم، وكلفهم بشريعة لاحرج فيها ولامشقة، ولاضيق ولاعسر، إنها الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام، وقد سماهم الله المسلمين من قبل فى الكتب المتقدمة، وفى هذا قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[1]

(١) سورة الحج (٧٧ ، ٧٨) .

أى أن الله تعالى جعل هذه الأمة وسطا عدولا خيارا؛ ليكونوا شهداء على الناس وعلى جميع الأمم؛ لأن جميع الأمم معترفة بفضل هذه الأمة على كل أمة سواها، ولذلك تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة فى أن كل رسول بلغ قومه، ويشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الأمة أنه بلغها ذلك..

وفى مقابل هذه المنزلة التى بوأها الله تعالى لهذه الأمة، وفى مقابل النعمة على الأمة أن تقوم بشكر ربها سبحانه وتعالى، وما أوجبه الله عليها من عبادة وطاعة ومن أهمها الصلاة والزكاة، وعليهم أن يعتصموا بالله، وأن يعتضدوا به ويتوكلوا عليه ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾

وكذلك كانت أمة وسطا فى الزمان ، فلم تأت رسالة الإسلام الخاتمة فى أول تاريخ البشرية ولا فى آخره بل جاءت فى الوسط لتكون مصدقة ومهيمنة وحارسة لماجاءت به الرسالات السماوية السالفة.

كما كانت وسطا فى العقيدة .

ووسطية العقيدة تعنى أنها عقيدة عادلة خيرة، يؤمن العباد فيها بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا.. إيمانا لاتمثيل فيه ولاتعطيل؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير.

ويؤمن العباد بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وسلم بأنه رسول الله وأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهدى الأمة وأخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويؤمنون بأنه ليس فى درجة فوق النبوة والرسالة كما يزعم بعض الضالين فى أنبيائهم أنهم وصلوا إلى درجة الألوهية وليس فى درجة سائر البشر فهو بشر ولكنه يوحى إليه ومرسل من ربه ؛ ولذا ورد عنه صلوات الله وسلامه عليه النهى عن الغلو فى إطرائه حيث قال : «لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» ويؤمنون أنه خاتم الأنبياء والمرسلين.

وكما تتجلى وسطية العقيدة فى عدم التمثيل والتعطيل فى الصفات، فإنها تتجلى

أيضا فى الإيمان بالقدر، فنرى أهل السنة يرفضون رأى الجبرية، الذين يقولون إن الإنسان مجبور على عمله، كما يرفضون رأى القدرية الذين يقولون بإنكار القدر، ووقف أهل السنة والجماعة موقفا وسطا، فيثبتون أن الله خالق كل شئ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ويؤمنون أيضا بأن للعباد قدرةً واختياراً، أى أنهم يقفون موقفا وسطا بين الذين ينفون اختيار العبد والذين ينفون القدر، فيؤمنون بأن الله على كل شئ قدير، وأنه لايكون فى ملكه إلاما يريد، ويؤمنون بأن للعبد قدرة واختياراً.

وسطية العبادة : لقدجاءت عبادات الإسلام ميسرة ووسطا فلاهى صعبة يشق على العباد أن يأتوا بها ، ولاهى بسيطة جـدا. بحيث لاتترك فى النفس كبير أثر ، وإنما جاءت وسـطا ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١)

فما كلف الله تعالى عباده إلا بماكان فى استطاعتهم أن يفعلوه، قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (٢)

فالصلاة لم يفرضها الله فى كل ساعة، ولم تكن ركعاتها كثيرة وشاقة ولم تكن أيضا قليلة أو فى وقت واحد أو اثنين فحسب، بل كانت وسطا تجمع بين الليل والنهار وهى خمس صلوات فى اليوم والليلة .

والصوم لم يكن للعام ولالعدة شهور، ولكن فرض الله تعالى صيام شهر واحد فى السنة كلها وهو شهر رمضان ولم يكن صوم اليوم شاملا لليلته بل كان الصوم من الفجر إلى غروب الشمس.

ولم تكن الزكاة ضارة بحال الفقير ولابحال صاحب المال، بل فاوتَ الله فى مقادير الزكاة حسب الجهد الذى يبذله صاحب المال ، فما كان من جهود كثيرة كالنقد وعروض التجارة قلّ مقدار ما يخرجه صاحب المال من الزكاة، وما كان أقل جهدا كالركاز يزيد

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٢) سورة التغابن آية ١٦ .

مقدار ما يخرجه للزكاة، ففي زكاة النقدين وعروض التجارة يخرج ربع العشر وفي زكاة الركاز يخرج الخمس.

وأيضا في زكاة الزروع والثمار : فما كان منها يسقى بالآلة يخرج منه نصف العشر وما كان منها يَسقى بغير آله ففيه العشر .. وهكذا كلما كان الجهد المبذول أكثر كان مقدار الزكاة أقل، وكلما كان الجهد المبذول أقل كان مقدار الزكاة أكثر.

وعبادة الحج لم يفرضها الله ولم يوجبها إلاعلى المستطيع ولم يفرضها مرتين أو أكثر بل فرضها على المستطيع مرة واحدة في العمر كله.

وهكذا كانت جميع التكاليف الشرعية، لا إفراط فيها ولاتفريط، ولا غلو فيها ولاتقصير، بل جاءت وسطا يستطيع كل مكلف أن يأتي بها.

وسطية الأخلاق: وإذا نظرنا إلى الأخلاق في الإسلام وجدنا أنها جاءت وسطاً، فكل فضيلة من الفضائل وسط بين رذيلتين، ففضيلة «الكرم» وسط بين «التبذير» إذا كان هناك إفراط، وبين « البخل» إذا كان هناك تفريط.

وفضيلة «الشجاعة» وسط بين «التهوّر» إذا كان الإفراط، وبين «الجُبْن» إذا كان التفريط .. وهكذا.

وسطية الروح والجسد: لقد عني الإسلام برعاية الجسد ورعاية الروح ولم تتركز عنايته لجانب دون الآخر، فدعا الإسلام إلى متطلبات الجسد في الحلال بعيدا عما حرم الله، ففي الحديث: « وإن لجسدك عليك حقا » [1] . ولم يحرم الزينة الحلال ولاالطيبات من الرزق ، قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [2] ودعا إلى وسائل القوة كالرماية والسباحة وركوب الخيل والرياضة البدنية.

كما عني بالجانب الروحي بالعبادات والالتجاء إلى الله والتوجّه إليه بالدعاء، وتوثيق الصلة الدائمة بالله تعالى ومراقبته في السر والعلانية، وتواصل الرعاية بالبدن والروح والتوازن

---

(١) رواه البخاري .

(٢) سورة الأعراف آية ٣٢ .

بينهما بحيث لايطغى جانب الجسد والمادة على الروح، ولايطغى جانب الروح على الجسد بل يكون الاثنان فى الوسط وهو الاعتدال بين متطلبات الجانبين، ولقد وجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه «الوسطية» والاعتدال بين متطلبات الروح والجسد فعندما علم انهماك عبدالله بن عمرو بن العاص فى العبادة، قال له: «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال عبدالله : فقلت : بلى يارسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : «فلا تفعل، صم وأفطر وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزَوْرِكَ عليك حقا» [1] «زورك» : أى ضيفك.

وسطية المنهج فى الدعوة : وجاء منهج الدعوة الاسلامية وسطا، لاإكراه فيه ولاتشديد، ولاتهاون فيه ولاتفريط ، وإنما هو دعوة تتناسب مع معادن الناس وأحوالهم، وتقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [2].

كما يقوم منهج الدعوة على اللين فى القول، وعدم التشدّد أو التزمت، فقد قال تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [3]

ولقد وعظ أحد الواعظين المأمون وأغلظ له فى القول، فقال: يا رجل ارفق، فقد بعث الله من هو خير منك – يريد موسى وهارون عليهما السلام – إلى من هو شر منى – يريد فرعون – فأمرهما بالرفق واللين ، فقال سبحانه «فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» .

وتقتضى وسطية المنهج الدعوة باللين والتدرج والتؤدة، وعدم التفريط والطفرة والعجلة.

دَاوَيْتَ متئداً وداووا طفرة   وأخفُّ من بعض الدواء الداءُ

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٣) سورة طه آية ٤٤ .

فالتدرج في الدعوة وعدم الطفرة هو سمة المنهج الإسلامى فى الدعوة . وقد روى عن عمر بن العزيز أن ابنه عبد الملك قال له : مالك لا تنفذ الأمور ؟ فو الله ما أبالى لو أن القدور غلت بى وبك فى الحق، فقال له عمر : «لاتعجل يا بُنى، فإن الله ذمّ الخمر فى القرآن مرتين وحرمها فى الثالثة، وإنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جُملة فيدفعوه جملة ويكون من ذا فتنة».

(٤٤)

مقاومة الإسلام لرذيلة الغش

الحمد لله رب العالمين نحمده سبحانه وتعالى ونشكره، ونتوب اليه من كل ذنب ونستغفره فهو وحده غفار الذنوب وستار العيوب وعلام الغيوب. ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له بيده مقاليد السموات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شى قدير. ونشهد أن سيدنا محمدا عبده رسوله وصفيه وخليله إمام المتقين وخاتم النبيين الصادق الوعد الأمين ، اللـهم صل وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

أما بعد فيا معشر المسلمين .

إن ديننا الإسلام لايرضى الغش ولايرضى من عباد الله أن يغشوا وقاوم الإسلام رذيلة الغش فى كل مجالاتها وناهض هذه الرذيلة فى كل مناحيها لأن الغش إذا سرى فى أمة من الأمم أوردها موارد الهلاك والدمار ، والخسران والبوار . و وذلك هو الخسران المبين . ولقد ناهض الإسلام الغش فى كل المجالات فلم يقره ولم يمهل أهله ولاأصحابه لأنه رذيلة خطيرة ... تدمر الأمم تدميرا فى كل المجالات . فلو كان الغش فيما يظهره الإنسان من اعتقاد بأن يظهر بأنه مؤمن ، أو صالح أو أمين أو تقى وباطنه يخالف ظاهره ، فأظهر الإيمان وأبطن خلاف ذلك ، كان من المنافقين والعياذ بالله ، لأن المنافق وهو الذى يظهر خلاف مايبطن وهذا غش فى الاعتقاد، والغش كما يكون فى العقيدة ... يكون أيضا فى العبادة بأن يظهر الإنسان عبادته ويخفى فجوره عنهم ، وكما يكون فى الاعتقاد وفى العبادة يكون الغش أيضا فى المعاملات وفى السلوك وهذا أوسع مجالات الغش ، ويكون فى البيع والشراء والقضاء والسلوك والحديث وفى سائر المعاملات التي يتعامل بها الناس . وقد قاوم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الرذيلة من أول وهلة وقاوم مقدماتها وماعساه يجر أصحابها إليها

قاومها فى مهدها وفى عهده صلى الله عليه وسلم حيث كلف أحد الناس أن يجمع الصدقات وكان رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية ، استعمله على مال الصدقة فجمعها وكان الناس يهدون إليه الهدايا وكانت هذه الهدايا سوى ما كان يجمعه من الصدقات والزكوات ، فلما جاء بالمال قسمه إلى قسمين ، وقال هذا القسم الأول هو ماجمعته من الصدقات ، وهذا القسم الثانى هدايا أهديت لى . فماذا كان جواب سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، كان جوابه وهو جوابه فى كل حال يرى فيها مقاومة أمر يستوجب النصح والتوجيه خاطب الناس وحمد الله وأثنى عليه وماكان ليذكر اسم الرجل وهذه عادته صلى الله عليه وسلم إذا نهى أقواما عن منكر أو رذيلة لايذكر أسماءهم سترا عليهم بل كان يقول : مابال أقوام يقولون كذا أو يفعلون كذا وهذا من رفقه ومن رحمته صلى الله عليه وسلم ، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال : «مابال الواحد منكم أستعمله على المال مما ولانى الله فيأتى فيقول : هذا لكم وهذا هدية أهديت لى ... أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا» أى أنه لو لم يكن فى منصبه الذى هو فيه، ولو لم يكن فى موقعه الذى هو فيه ، هل كان الناس يهدون إليه هذه الهدايا ، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه فيرى إن كان يهدى إليه أم لا ، والذى نفسى بيده لايأخذ أحد منكم هذا المال بغير حقه إلا جاء يوم القيامة ، يحمله على رقبته أى إعلانا أمام الملأ أن الذى كان يأخذه سرا وخفية يفتضح **به على الملأ أمام الخلائق يوم القيامة ، يحمله على رقبته حتى ولوكان بعيرا يقول إن كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار – يعنى صوت الجمل وصوت البقرة – أو شاة ، من الضأن تيعر وهو صوت الغنم – حتى ولو كان ذلك ثقيلا وله صوت عجيب ، هكذا يقول ،** «والذى نفسى بيده لايأخذ أحد منكم هذا المال بغير حقه إلا جاء يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه فقال «ألا هل بلغت اللـهم فاشهد» [1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأحكام باب محاسبة الإمام عماله ، وأخرجه مسلم فى كتاب الإمارة باب تحريم هدايا العمال .

ولقد قاوم مقدمات الغش لأنه رذيلة من أخطر الرذائل لاتبقى على أمة تريد أن تبني حياتها وتنشد الأمان فى الأرض . ومن أجل ذلك كان عليه الصلاة والسلام لا يكتفى بأن يوجه المسلمين إلى الأمانة ويحذرهم من الغش فحسب بل كان عليه الصلاة والسلام يسير بنفسه ويختبر الناس وينظر هل فيهم من يغش فى البيع والشراء .. وذات يوم مر على رجل أمامه كومة طعام ومن عادة التجار كما نلاحظ فى بعض البائعين أنهم يجعلون ماهو حسن وجيد على سطح الشيء الذى نشتريه وماهو سيء ورديء يخفونه فى أسفل .. فلما مر على كومة طعام ألهمه الله أن يضع يده فى داخل هذه الكومة فأدخل يده فأخرج بللا وماءً فيها فحمل الشيء المبلول وقال : ماهذا ياصاحب الطعام ؟ يعنى ماهذا البلل وهذا الماء ؟ أتريد أن تزيد بهذا الماء فى سعرها وفى الميزان ليثقل على المشترى «ماهذا ياصاحب الطعام» فأجاب الرجل وقال : أصابته السماء أى أمطرت السماء ماء فكان هذا البلل ، فقال له : «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا » [1] ، وهكذا يتبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى واقعة ربما نعدها الآن شيئا هينا ويسيرا ، وربما نراها الآن كثيرة متعددة لدى كثير من التجار ، لكن هذا الأمر الذى نراه هينا ويسيرا يبرأ الرسول صلى الله عليه وسلم منه «من غشنا فليس منا» وفى رواية «من غش أمتى فليس منى» إنه صلى الله عليه وسلم يقاوم هذه الرذيلة فى مهدها ولأنها فى ميدان التجارة وكسب المال أكثر شيوعا ، وفى هذا المجال ينادى الرسول صلى الله عليه وسلم التجار قائلا : يامعشر التجار ، يامعشر التجار .. فألقوا السمع والقلب واشرأبت له الأعناق وتطلعت العيون واستمعت الآذان فقال : « إنّ التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبر وصدق [2] » إلا من اتقى الله وكان بارا وصادقا أما من لم يكن متقيا لله فى تجارته ومن لم يكن بارا فكان غشاشا ، ولم يكن صادقا ، فكان كاذبا فإنه مع الفجار أما الصادق البارأما الذى لا يغش فى معاملته فإنه يحشر مع النبيين والصديقين . فإذا كان الغشاشون يحشرون يوم القيامة لامع الفجار فحسب بل

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب قول النبى صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب البيوع باب ماجاء فى التجارة وتسمية النبى صلى الله عليه وسلم إياهم وأخرجه ابن ماجه فى كتاب التجارات باب التوقى فى التجارة .

يحشرون هم أنفسهم فجاراً يوم القيامة، فإن فى المقابل أن التجار الأمناء الذين لايغشون ماذا يحشرون ؟ يقول عليه الصلاة والسلام «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء [(١)] » هذان نوعان من التجار فاختر أيهما شئت يامن تتاجر فى أقوات الناس ويامن تتاجر فى مواد البناء ويامن تتاجر فى عملية المقاولات ، يامن تتسبب فى ضياع الأرواح وفى إزهاق الأنفس ، ويامن تغشون اختاروا لأنفسكم إما أن تحشروا يوم القيامة فجارا ، وإما أن تحشروا أبرارا ، وفى وسعك أن تختار وأنت على ظهر الأرض ماشئت ، ومن أجل ذلك كانت مقاومة سلفنا الصالح والصحابة رضوان الله تعالى عليهم لظاهرة الغش ، يقتدون فى ذلك بما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا لا يكتفون بدعوة الأمة إلى البر والأمانة بل كانوا يتتبعون رعيتهم فى معاملاتهم وفى مناهضة رذيلة الغش، فها هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقاوم هذه الرذيلة فى كل أوكارها ويتتبعها بنفسه لتعيش الأمة أحسن مايكون ، وحين أراد البعض بعد أن لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى أن يغش فى الدين وأن يمتنع عن دفع الزكاة قاومهم الصديق رضى الله عنه مقاومة لاهوادة فيها بل حاربهم حربا لا هوادة فيها ، وهاهو سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لايكتفى بالتحذير من الغش فى البيع والشراء وفى سائر المعاملات بل يقاوم بنفسه رذيلة الغش ويتتبع الرعية فى ذلك ويمر بالنهار ويمر بالليل ويسمع ذات ليلة امرأة تقول لابنتها ياابنتى قومى إلى اللبن فامزجيه بالماء ، تأمر ابنتها أن تغش فى اللبن حتى إذا مامزجته بالماء زاد ، وزاد وزنه ولايشعر المشترى بذلك فيسمع عمر ابنتها الصغيرة وهى تقول لأمها : يأأماه ألم تسمعى منادى عمر وهو ينادى فى شوارع المدينة يقول : لا تخلطوا اللبن بالماء ، فقالت الأم : سمعت ولكن أين نحن منه الآن ؟ نحن فى جنح الليل نحن بعيدون عن عمر ، فتقول الفتاة المؤمنة : يأأماه إذا كان عمر لايرانا فإن رب عمر يرانا ، وترفض الفتاة المؤمنة الأمينة أن تغش اللبن ويتعرف عمر على البيت ويعلمه حتى يختار هذه الفتاة زوجة لأحد أبنائه ، رضى الله تعالى عنه ... تشجيعا للأمانة وتشجيعا للأمناء ، ووساما يقلد به كل رجل

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب البيوع ماجاء فى التجارة وتسمية النبى صلى الله عليه وسلم إياهم ، وأخرجه ابن ماجة فى كتاب التجارات باب الحث على المكاسب ، وأخرجه الحاكم فى كتاب البيوع .

أمـين وكل امرأة أمينة لأن الغش خطر على الأمة كلها إنه ليس خطرا على من يقع عليه الغش فقط ، ولكن فى إشاعته خطر على الأمة بأسرها فكان رضى الله تعالى عنه يتتبع الرعية ليأمن من هذه الرذيلة حتى لا تنتشر فى أوساط التجار ، وكبار الناس وأصحاب الأعمال الكبيرة ، وكان أيضا يناهضها بين أصحاب الأعمال الصغيرة ، فليس فى الغش كبير و صغير ولاعمل عظيم وعمل حقير فالغش فى العمل التافه كالغش فى العمل الكبير، والغش مع الرجل العظيم مثله مع الرجل البسيط ، فيمر أيضا فيرى راعيا من رعاة الغنم فيريد أن يختبره فيقول له : ياغلام بعنى واحدة من هذه الأغنام ، فيقول الغلام على الفور: وكيف أبيعك منها وأنا لا أملكها إنما أنا غلام أقوم عليها بالرعى فقط ، وسيدى ومالكى ومالكها هو فلان .. فلا أملك أن أبيع شيئا منها فقال له سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه : يريد أن يختبره ويرى هل من الممكن أن يقع هذا الغلام فى رذيلة الغش ؟ وهو من المملوكين فيقول له : سأشتريها منك وحين يسألك سيدك فقل له أكلها الذئب ، فقال الغلام الأمين : إذا قلت ذلك وصدقنى سيدى فماذا أقول لرب العالمين يوم القيامة؟ فقال سيدنا عمر للرجل وقد فرح بأمانته وببغضه لرذيلة الغش إنى سأشتريك وسأطلق سراحك، وحرره وأعتقه لوجه الله وقال له ياغلام كلمه أعتق الله بها رقبتك فى الدنيا وأرجو أن يعتق الله بها رقبتك يوم القيامة من عذاب النار ، إن رذيلة الغش أيها الإخوة المؤمنون من أخطر الرذائل ، تصوروا لو كان الغش فى الدواء أو فى أعمال الصيدلة فبدل أن يكون الدواء ناجعا وشافيا للمريض يمد فترة المرض أو يزيد المريض على مرضه أو أن يتحول من علاج إلى سم يقتل المريض ، ماذا تتصورون لوكان الغش كما رأينا وشهدنا وسمعنا فى مواد البناء فيترتب على ذلك إزهاق الأرواح وموت الأنفس وضياع الناس والأموال ، ماذا تتصورون لو كان الغش من بعض القائمين على إعطاء الرخصة ومن المهندسين أو غيرهم ممن يقررون ذلك ، ماذا تتصورون حين يخول لهم غشهم لقاء شىء من المال أن يعطى من استبد بهم الجشع والطمع أن يبنى وأن يتطاول فى البنيان دون أسس ودون قواعد ضاربا بالقوانين وبالتعاليم والأمانة عرض الحائط ، مستعجلا مالا كثيرا وسريعا فيترتب على ذلك هدم العمارة وضياع المنزل ، وضياع من فيه من أنفس بريئة وقعت صريعة الغش والمال الذى أغرى أصحابه فى الدنيا ،

ولكنه نار عليهم يوم تقوم القيامة ، نار عليهم فى قبورهم لن ينفعهم الكسب العاجل أولئك الغشاشون، الذين يغشون فى مواد البناء ويستبد بهم الغش والجشع ويتطاولون فى البنيان ويستعجلون كسبا سريعا ولايأبهون بعد أن يبيعوا الشقة أو العقار أن يشتريه الناس وأن يخلوا أيديهم وأن ينهدم على رؤوسهم ، لايعنيهم شىء بعد ذلك مادامو قد كسبوا المال الحرام الذى لن ينفعهم فى الدنيا ولن ينفعهم يوم لقاء الله سبحانه وتعالى . طهروا أنفسكم من ظاهرة الغش طهروها من رذيلة الغش أيها الإخوة ، طهروا أنفسكم من الغش مع الله فلا تغشوا فى عقيدتكم ولاتغشوا فى عبادتكم ولاتغشوا فى بيعكم ، ولاتغشوا فى شرائكم ، ولا فى بنائكم ولا فى معاملاتكم ولافيماً ولاّكم الله إياه من أعمال الدنيا ... فإن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله سائل وقال له : متى الساعة ؟ قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : وكيف إضاعتها يارسول الله ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة [1] ، يوسد الأمر إلى غير أهله فتعصف الشفاعات الظالمة ، والأهواء الظالمة بأصحاب الجدارة والكفاءات وليكون الغش فى تولى المناصب ، ويكون الغش فى البيع ، ويكون الغش فى البناء فإذا برذيلة الغش تصبح نارا يتلظى أوارها أولئك المظلومون الذين يعيشون على الأرض . قال عليه الصلاة والسلام «من غشنا فليس منا» [2] أو كما قال : التائب من الذنب كمن لاذنب له .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب العلم باب من سئل علما وهو مشتغل فى حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

(٤٥)

الوحدة فى ضوء الإسراء والمعراج

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شىء قدير .

نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ونتوب إليه من كل ذنب ونستغفره . سبحانه جعل أمتنا أمة واحدة ، ودعانا إلى وحدة الصف وجمع الكلمة ، لأن فى الوحدة قوة .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك بيده مقاليد السماوات والأرض يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وهدى إلى صراط ربه المستقيم .

اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد ، فيأأيها الإخوة المؤمنون :

إن قوة المسلمين فى وحدتهم إن فيها قوة فى جانب العقيدة فقد دعانا الله سبحانه لأن نعبده وحده ، وألا نشرك به شيئا ، ودعانا لأن نولى وجوهنا شطر قبلة واحدة ، ودعانا لأن نعتصم بحبله جميعا ونتمسك بكتابه .

وفى الحديث يقول سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم : «إن الله تـعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله

جميعا ولاتفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال [1] »

فمما يرضاه الله تعالى لنا أن نجتمع على عقيدة واحدة نؤمن فيها بالله ربا ، وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، ونعتصم فيها بحبل الله جميعا فلا نتفرق ، مستجيبين لدعوة القرآن الكريم «واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا » وماجعل الله تعالى فى عقيدة التوحيد أمرا غامضا ولاشيئا غريبا يفرق الجماعة ، وإنما هى دعوة واضحة لاغموض فيها ، لاتعقيد فى شيء منها ، فهى تجمع المسلمين وتوحدهم فلا يصح لهم أن يتفرقوا فى الأرض بددا .

وإذا انتقلنا إلى العبادة التى كلفنا الله تعالى بها نجد إلى جانب كونها صلة بالله قيوم السماوات والأرض ففيها دعوة إلى وحدة الصف .

ألم تنظروا إلى اجتماعكم فى صلاتكم ، وكيف تلتقون صفوفا متراصة ، كل يأخذ بحجز أخيه ، ونلتقى صفوفا واحدة ويجعل الله تعالى لصلاة الجماعة فضلا على صلاة المنفرد ، ولذا يقول صلى الله عليه وسلم : «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة» وفى رواية «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة [2]» .

وما ذلك إلا لأن فى التفاف المسلمين ، ولأن فى اجتماعهم فى صلاة الجماعة وفى صلاة الجمعة وفى صلاة الأعياد إلى غير ذلك ، قوة ووحدة وألفة يريدها منا الله سبحانه وتعالى ، ويريدها منا رسولنا عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، حتى أنه يكافىء على هذه الوحدة وهذه الجماعة ويغفر بسببها من الذنوب مايغفر فهو ينظر أول مانظر إلى الإمام

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الأقضية باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة ، وأخرجه مالك فى كتاب الكلام باب ماجاء فى إضاعة المال وذى الوجهين .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة باب فضل صلاة الجماعة وأخرجه مسلم فى كتاب المساجد باب فضل صلاة الجماعة والتشديد فى التخلف عنها .

فإن وجده صالحا قبله وقبل المأمومين معه ، وإلا نظر إلى المأمومين فإن وجدهم صالحين قبلهم وقبل الإمام وقبل المأمومين ، وإلا فإن لم يكن فيهم أحد نظر إلى وقوفهم واجتماعهم والتفافهم من أجله فغفر لهم جميعا .

هنا تتبدى قيمة الوحدة ، وكيف أن الله يكافىء أولئك الذين اجتمعوا على كلمته ويغفر لهم من الذنوب ما يشاء .

ثم فى الصيام كذلك وحدة ، فى وقت واحد نصوم ، وفى وقت واحد نفطر . ثم فى الحج وحدة فكلنا فى وقت واحد وفى صعيد واحد وبزى واحد نلبى إلها واحدا لا شريك له .

إذاً عقيدة الإسلام وعباداته إلى جانب كونها صلة بين العبد وخالقه ففيها تقوية للروابط والوشائج ، ولايمكن بأى حال من الأحوال أن يتخذ الناس من العبادات أو من دين الله أسبابا لفرقتهم واختلافهم والذين يحاولون تمزيق الأمة باسم الإسلام ، أو يحاولون تفريق كلمتها تحت راية الإسلام ، أولئك الذين يسيئون إلى الإسلام قبل أن يسيئوا إلى أنفسهم وإلى غيرهم ، فإن رفع شعار الإسلام والتلون تحت هذه الراية إساءة إليها ، من أجل ذلك حذر الإسلام من الفرقة فى الدين أولا وفى العلم حتى لايختلف المؤمنون بعضهم على بعض ، وحتى لاتختلف أمة الإسلام .

وأذكر فى هذا الصدد ماوعاه تاريخنا المعاصر من موقف ذلكم الشيخ الذى اختلف الناس فى صلاة التراويح وحاول البعض أن يقول إنها لاتصح إلا عشرين ركعة والبعض يقول لاتصح إلا ثمانى ركعات ، فاختلفوا واشتجروا وكادت تقع فتنة ووقف الشيخ يخطبهم حين طلبوا منه أن يقول كلمة الفصل قال : كلمتى فيكم أن يغلق المسجد الآن ، وألاتصلى التراويح لأنها مهما عظمت لاتعدو أن تكون سنة من السنن ووحدة المسلمين فريضة ، ولاقامت سنة تصد عن فريضة الله .

إن وحدة المسلمين أمر واجب ، فالذين يحاولون تمزيق هذه الأمة باسم الدعوة إلى الإسلام ، أولئك الذين يسيئون إلى الإسلام نفسه، لأنهم يخالفون أمر الله الذى قال :

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا﴾ وإذا نظرنا إلى تلك المناسبة الكريمة التى تظلل الأمة الإسلامية وهى معجزة الإسراء والمعراج لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لوجدنا فيها دعوة صريحة إلى وحدة الأمة ومنذ الأزل ومنذ القدم وحين أبرم رب العزة سبحانه وتعالى العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين إذا ماجاءهم هذا النبى أن يلتفوا حوله وأن يجتمعوا على كلمته ، وأن لايختلفوا عليه ، وأن يؤمنوا به ، وأن ينصروه .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (١)

منذ ذلك العهد الذى أبرمه رب العزة سبحانه وتعالى على النبيين فى الأزل وشهد معهم ، والله تعالى يدعو إلى وحدة الأمة وعدم فرقتها فيطبق هذا العهد والميثاق الذى أبرمه منذ الأزل وعهود متباعدة ممعنة فى البعد بين كل نبى ونبى ، وبين كل رسول ورسول من لدن آدم إلى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كيف يلتقون به ؟ كيف يؤمنون به ؟وكيف ينصرونه؟ كيف يطبق الله هذا العهد الذى أبرمه الرسل منذ الحقب المتطاولة والدهور الممعنة فى البعد؟ يطبق الله هذا العهد والميثاق عمليا فى ليلة الإسراء والمعراج حين يحشر جميع النبيين والمرسلين أيقاظا بأجسادهم وأرواحهم ويجمعهم فى المسجد الأقصى ليصلى بهم إماما سيد الخلق وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتكون صلاته بهم إشارة إلى هذه الوحدة ، وإشارة إلى وجوب اتباعه والاقتداء به ، وإشارة إلى عدم الفرقة والاختلاف بين بنى الأرض على ظهرها إلى أن تقوم الساعة ، وتكون صلاته صلى الله عليه وسلم إذنا أيضا وإشارة إلى أن الإسلام كلمة السماء الأخيرة ، وأن سيدنا محمدا هو خاتم الأنبياء والمرسلين كما قال تعالى :﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٢) . وكما قال صلى الله عليه وسلم «أنا العاقب الذى ليس بعده نبى (٣) »

---

(١) سورة آل عمران آية ٨٠ . (٢) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل باب : أسماؤه صلى الله عليه وسلم .

طبق الله هذا عمليا فى هذه الليلة المباركة ليلة الإسراء والمعراج ، كما طبق هذه الوحدة العملية حين جمع له النبيين والمرسلين فى الأرض ، وحين جمعهم له فى كل سماء يرتقى إليها حيث يلتقى بإخوانه من النبيين والمرسلين ويرحبون به وتتفتح له أبواب السماء، ويشاء الله تعالى من أجل أن يجمع وحدة هذه الأمة أن ينقيها وأن يصفيها حتى لايظهر فيها شاذ أو منافق يعبث بوحدة الأمة وبمقدراتها ، فيكون حادث الإسراء والمعراج تنقية للأمة ليظهر المنافق فيبتعد ، ويظهر المحق والمؤمن الصادق فيتقدم لجمع الصف ووحدة الكلمة، ولذلك يقول الله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ (١) .

إنها كانت فتنة واختبارا وابتلاءً ليظهر المحق من المبطل والمنافق من المخلص ، ومن أجل أن يرى الحبيب حبيبه مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢) .

كانت دعوة إلى الوحدة ليربط بين المسجد الأقصى وبين المسجد الحرام ، وكانت دعوة للوحدة حين يربط بين دعوات الرسل والنبيين جميعا فى مكان واحد ويؤمهم خاتمهم سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

وكانت اختبارا للفئة التى ستتبعه وستقدم على مخاطرة شديدة ، بعد ذلك فتقدم على الهجرة حيث يفارقون الوطن والأبناء والأموال ، ولايمكن أن يضحى بأبنائه ووطنه وماله إلا من كان صادقا مخلصا لله ولرسوله .

فكان امتحان القلوب واختبارها بالإسراء والمعراج حتى إذا ماحدثهم أنه أسرى به وعرج فى جزء من الليل كان منهم المنافق الذى كذب ، ومنهم من ارتد ، ومنهم من ظهر على نفاقه وأنه لم يكن مخلصا فى عقيدته ، فارتد من ارتد ، وكفر من كفر ، وكذب من

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٠ .

(٢) سورة الإسراء آية ١ .

كذب ، فظهر المنافقون الذين كذبوا ، وظهر الذين صدقوا ، وكان يمثل الذين صدقوا وأخلصوا سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فحين قيل له : أتصدقه أنه أسري به وعرج فى جزء من الليل ونحن نقطع هذه المسافة فى أكثر من شهر ؟ ماذا كان جوابه؟ هل كان جوابه :أنظرونى حتى أسمع منه إن كان أسرى أم لا ؟ لم يقل ذلك أبو بكر. أكان جوابه أنظرونى حتى أتأكد وأتحقق ؟ لم يقل ذلك أبو بكر ، وإنما قال لهم : إن كان قال فقد صدق ، إنى أصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة ، فلذلك سمى أبو بكر الصديق [1] .

فكان فيها إظهار للذين يخلصون وكانوا صادقين فى إيمانهم لأنهم سيقبلون بعد ذلك على مرحلة الهجرة التى سيتركون فيها الأهل والمال والوطن والولد، ويقبلون على مرحلة الغزوات والجهاد فى سبيل الله ليضحوا بأغلى مايملكون وهى أنفسهم التى بين جنوبهم .

كانت الإسراء والمعراج معلما من معالم الإسلام تقوى ركيزة الإيمان والعقيدة فى أرض الله ، وتظهر حقيقة الإيمان فى قلوب الناس، فكانت بحق جديرة كلما أشرقت أيامها علينا ، أن نستعيد وحدتنا ، وأن نناشد أمتنا أفرادا وجماعات وأمما وشعوبا وحكومات أن يكونوا يدا واحدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولاشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكـم قيل وقال وكثرة السـؤال وإضاعة المال [2] » .

وهكذا نبصر تعاليم ديننا الإسلام بدءا بالعقيدة فالعبادة فالمعاملات فالمعجزات فالآيات التى أيد الله بها خاتم الأنبياء والمرسلين ، فنرى وكأن ديننا دعوة صريحة إلى وحدة الأمة ، وإلى ترابطها وإلى قوتها ، وإلى تحقيق خيريتها على ظهر الأرض أمرا بالمعروف ونهيا عن

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنة الكبرى عن عائشة رض الله عنها .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الأقضية باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة وأخرجه مالك فى كتاب الكلام باب ماجاء فى إضاعة المال .

المنكر وحملا لبقية الإيمـان فما أوتيت هـذه الأمـة خيريتها ومكانتها على ظهـر الأرض إلا لأنها ستحمل بقية الإيمان على ظهر الأرض أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [1] .

وبوحدة هذه الأمة بالدستور السماوى الذى أنزل على رسولها صلى الله عليه وسلم رجا عليه الصلاة والسلام أن يكون أكثر الأمم تابعا وأكثرهم وحدة وقوة ، حيث قال عليه الصلاة والسلام : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيـات مامثله آمـن عليـه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة [2] » .

إذا كانت دعوة الإسلام فى صراحتها وفى بيانها الواضح تدعونا أن نكون وحدة واحدة، فإن الذى يجب على كل منا هو أن ألا يختلف مع أخيه ، وألاتختلف الأمة بعضـها على بعض، بل علينا أن نتوحد وأن ننبذ الخلافات التى تكون عقبة فى طريق الأمة نحو الصلاح ونحو مرضاة الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن باب كيف نزل الوحى وأول مانزل وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

(٤٦)

شهر الإنتصارات

غزوة بدر الكبرى

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلاله وكماله، له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شيء قدير ، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره على نعمه التى لاتحصى ولاتستقصى .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، بيده مقاليد السموات والأرض ، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، وصفيه وخليله بعثه الله سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فبلغ رسالة ربه أعظم مايكون التبليغ وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد ، فيا جماعة المسلمين :

إن هذا الشهر المبارك العظيم شهر رمضان هو شهر الانتصارات ، وشهر النصر والفتح ، الشهر الذى منّ الله فيه على الأمة الإسلامية بانتصارها على أعدائها فى كل معركة خاضتها أمتنا الإسلامية قديما وحديثا منذ عصر النبوة وإلى عصرنا الحاضر . ونلاحظ أنه ما من معركة من المعارك ، ومامن غزوة من الغزوات خاضها المسلمون فى هذا الشهر المبارك إلا ونصرهم الله على أعدائهم ، ولعل فى هذا بيانا لأمتنا الإسلامية لقيمة هذا الشهر ومنزلته العظيمة عند الله سبحانه وتعالى حتى تعرف له قدره ومكانته ، وحتى تعد له عدته .

وإذا نظرنا إلى انتصارات المسلمين فيما سلف فحسبنا أن نلقى نظرة على أول لقاء مسلح بين جند الحق وجند الباطل فى شهر رمضان فى يوم الفرقان اليوم الذى التقى فيه الجمعان فى غزوة بدر الكبرى ، وإذا نظرنا إلى تخطيط النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلى استشارته لأصحابه ، وإلى استغاثته بربه ، ونظرنا إلى وحدة المسلمين والتفافهم حوله وصدقهم فيما عاهدوا الله عليه ، نرى دروسا باهرة ، يأخذها كل مؤمن صادق ، وكل قائد يريد النصر ، وكل أمة تجاهد من أجل إحقاق الحق ، ويبهرنا فى هذا اليوم العظيم مبدأ الشورى ، ذلكم المبدأ العظيم الذى أخذ به سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، مع أنه نبى ورسول ومع أنه ملهم ويوحى إليه ، ولكنه يأخذ رأى أصحابه ، ولايكرههم على الحرب إكراها ، ولكن يستشيرهم ويستطلع آراءهم ، فيسمع من أبى بكر القول الحسن ، ويسمع من عمرالقول الحسن ،ويسمع من المهاجرين مايريدون أن يشيروا به عليه ، فيقول له المقداد ابن عمرو : يارسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، لكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون [1]. وحين يقول لهم : أشيروا على أيها الناس فيلتفت الأنصار ويقول قائلهم : لو خضت بنا البحر لخضناه معك ماتخلف منا أحد ، إنا لصدق فى الحرب صبر عند اللقاء، لعل الله يريك منا ماتقر به عينك فسر على بركة الله يارسول الله .

ويقول الآخر : يارسول الله حارب من شئت وسالم من شئت وخذ من أموالنا ماشئت واترك لنا ماشئت، فوالذى نفسك بيده ماتأخذه منا أحب إلينا مما تبقيه لنا . فاطمأن صلى الله عليه وسلم باستشارته لأصحابه على سلامة الجبهة الداخلية ، اطمأن على محبة أصحابه واقتناعهم بالخروج بهذا اللقاء وعندما نزل فى ذلك المكان جاء الحباب بن المنذر ليقول له : يارسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ؟ أهذا عن الوحى ؟ إن كان كذلك فلا كلام لنا ، ولانتقدم ولانتأخر عنه ، أم هو الحرب والرأى والمكيدة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : بل الحرب والرأى والمكيدة ، فقال الحباب : أرى أن لاننزل فى هذا المكان ولكن انزل إلى أقرب

---

(١) أخرجه البخاري فى كتاب التفسير سورة المائدة باب قوله تعالى : « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » .

ماء إلى القوم حتى نغوّر الآبار عنه ونشرب ولايشربون . فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأى الحباب بن المنذر .

وهنا ندرك الحكمة العالية والأدب الرفيع لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما كان أحد منهم ليقول برأيه فى أمر نزل فيه الوحى لأنه لااجتهاد مع النص ، ولذلك قال الحباب بن المنذر أهذا منزل أنزلكه الله ، إن كان الله الذى أنزلك هنا ، إن كان هذا عن وحى، حتى ولو كان يرى أن الأفضل أن ينزل فى غيره فلا كلام له ، لا اجتهاد مع النص، أما إذاكان للرأى فيه مجال فإننا نبدى آراءنا الصائبة ومانراه أفضل ، ونراه عليه الصلاة والسلام ينزل عن رأيه ويأخذ برأى الحباب، أى احترام لمبدأ الشورى كهذا الاحترام؟ أى احترام لأهل التخصص فى كل علم وفى كل فن وفى كل خبرة كما احترمها النبى الموحى إليه صلى الله عليه وسلم ، على هذا النحو من الأخذ بمبدأ الشورى والأخذ بالأسباب وتجهيز الجيش وتوحيد الصفوف أعد للأمر عدته ، ومع كل هذا ما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليتكل على الأسباب ، ولا على الأخذ بهذه المبادىء التى اجتهد فيها واجتهد أصحابه معه ، وإنما راح يجمع إلى جانب الأخذ بالأسباب : التوجه بالدعاء إلى الله رب العالمين ، راح يستغيث ربّه ويرفع أكف الضراعة إلى خالقه ويقول : اللـهم أنجز لى ماوعدتنى ، اللـهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد فى الأرض ، اللـهم وعدك الذى وعدتنى . حتى سقط رداؤه وناوله أبوبكر الرداء وسواه وقال له : يارسول الله : كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ماوعدك [1] . ولكنه عليه الصلاة والسلام يدعو الله سبحانه وتعالى كما قال القرآن الكريم ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [2] .

وظل عليه الصلاة والسلام يدعو ويستغيث إلى أن رأى ملائكة السماء تتنزل وقال لأبى بكر : أبشر باأبا بكر هأنذا أرى جبريل عليه السلام آخذا بعنان فرسه عليه أداة الحرب

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى باب قول الله : «إذا تستغيثون ربكم ، وأخرجه مسلم فى كتاب الجهاد باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر .

(٢) سورة الأنفال آية ٩ .

ليحارب في صفوف المسلمين [1] ، أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين، وهنا يجمع بين الأخذ في الأسباب وبين التوجه إلى الله تعالى بالدعاء ، وبين الأخذ بمبدأ الشورى واستطلاع آراء أهل الخبرة وتجهيز الجيش وتوحيد الصفوف وبين الدعاء والاستغاثة .

والله سبحانه وتعالى يقوى الفئة المؤمنة التي بلغت في خشوعها لله ، وفي إخباتها وإنابتها وصدقها في التوكل على الله حتى بلغت درجة الذلة لله كما عبر القرآن الكريم ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [2]

لقد بلغوا في خشوعهم وخضوعهم وهم قلة وأعداؤهم أكثر من ثلاثة أمثالهم ولكن الله سبحانه يريد أن تقع هذه الواقعة ، يريد أن تحدث هذه الغزوة الأولى في الإسلام ، يريد أن يتجرأ كل فريق على الآخر ، ويرى رب العزة سبحانه وتعالى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وهو نائم هذه الرؤيا أن أعداءهم الذين هم أكثر من ثلاثة أمثال المؤمنين أصبحوا عددا قليلا ، لماذا ؟ حتى يقذف في قلبه اليقين والطمأنينة والأمل في الله تعالى .

يقول تعالى ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [3] . ويرى سبحانه وتعالى المؤمنين أن عدد أعدائهم أصبح قليلا ليتجرأ المؤمنون كما يُرى الكافرين أن أعداد المؤمنين أصبحت قليله ، لماذا ؟ حتى لا يفر المشركون وتكون الواقعة ، إنه يريد أن تحدث المعركة ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، فأطلع كل فريق وأراه أن عدد الآخر قليل حتى يتجرأ الفريقان وتكون الواقعة ويتم النصر من عند الله ، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [4].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب شهود الملائكة بدرا .

(٢) سورة آل عمران آية ١٢٣

(٣) سورة الأنفال آية ٤٣ .

(٤) سورة الأنفال آية ٤٤ .

أما حين تبدأ المعركة ، وحين يلتقى الجمعان ، وحين استجاب الله استغاثة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وحين تنزلت ملائكة الله فى صفوف المؤمنين فإن الكافرين ينظرون إلى عدد المؤمنين فيرون العدد الذى كان أقل من ثلث عددهم أصبح أكثر منهم ، بل أصبح عدد المؤمنين مثلى عدد أعدائهم ، كما يقول جل شأنه : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (1).

يرونهم مثليهم رأى العين ، ليس وهما وإنما يرونهم مثليهم رأى العين ، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى على المؤمنين ، ومن استجابة الله تعالى لاستغاثة نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، والذى ضرب أروع الأمثلة للقيادة الماهرة التى تأخذ بآراء الناس وتستشيرهم وتأخذ برأى أهل الخبرة ، ويجعل من نفسه قدوة لهم ، يتعب حين يتعبون ، ويكون أقربهم إلى العدو ، حتى إنهم كانوا وليس معهم سوى سبعين بعيرا يتناوب كل ثلاثة بعيرا واحدا ، فكان أبو لبابة وعلى بن أبى طالب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتناوبون هم الثلاثة على بعير واحد ، فلما جاءت نوبة النبى صلى الله عليه وسلم ليأخذ حصته من المشى، قال أبو لبابة وعلىّ : لايارسول الله ، واستشارا أن يبقى راكبا وأن يمشيا هما ، فرفض النبى صلى الله عليه وسلم وقال لهما : ماأنتما بأقوى على المشى منى ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما (2) .

انظروا إلى الأدب العالى والتواضع الجم والذوق الرفيع ومعاملة القائد والنبى الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضى الله عنهم .

تبهرنا دروس يوم الفرقان ، يبهرنا عطاؤه وهو يمد الحياة بدروس باهرة فى وحدة الصف وفى محبة الجند لقائدهم ، وفى محبة المؤمنين لحبيبهم وشفيعهم صلى الله عليه وسلم حتى إنه صلى الله عليه وسلم وهو يوحد الصفوف وينظمها ليجعلها كالبنيان

---

(1) سورة آل عمران آية ١٣ .

(2) أخرجه أحمد بن حنبل ٤١١/١ .

المرصوص يشد بعضه بعضا ، حين برز سواد بن غزية عن الصف سواه بقضيب فى يده وضربه فى صدره ليعتدل ، وحين بدأت ساعة المعركة ونادى فيهم النبى صلى الله عليه وسلم ، من كان له حق فليتحلل صاحبه منه قبل أن يلقى أحدنا ربه وفى عنقه حق لأخيه المسلم ، حتى فى الشهادة يارسول الله ، نعم : الشهيد يغفر له كل ذنب إلا الدين ، الشهيد إذا كان عليه حق لأخيه لايغفر له وماعدا ذلك يغفره الله كما جاء فى الحديث الصحيح : «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين [1] » فقال : من كان له حق عند أخيه إما أن يأخذه الآن ، وإما أن يسامحه فوقف سواد بن غزية وقال : لى حق عندك يارسول الله . قال : وماحقك ؟ قال وأنت تنظم الصفوف ضربتنى فأوجعتنى ، وقد بعثك الله رؤوفا رحيما . فقال النبى صلى الله عليه وسلم تقدم وخذ حقك قبل أن نلقى الله . قال الرجل : كنت كاشفا عن صدرى ، فكشف النبى صلى الله عليه وسلم عن صدره ، فاستقبل الرجل صدره الشريف ويضع جبهته عليه ويقبله فيقول له الرسول صلى الله عليه وسلم ماالذى دعاك إلى هذا ؟ قال يارسول الله نحن مقبلون على الموت والشهادة فى سبيل الله أردت أن يكون آخر عهدى بالدنيا أن يمس جسدى جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا له بخير .

إنه الحب الصادق لسيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، إنه الإيمان الأكيد الذى ربط هذه القلوب المؤمنة ، إنه الإيمان الصادق والحب الأكيد والإنابة والصلة القوية بالله التى كانت من أكبر الأسباب ليجرى الله تعالى لهم الخوارق فى هذه الغزوة ، ويجرى الله تعالى المعجزات لرسوله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة فحين كانوا قد نزلوا فى أرض سبخة تسوخ فيها الأقدام ، لاتصلح للحرب ولاللجرى ، وحين أصاب أحدهم جنابة ويريد أن يتطهر فلا يجد الماء أوكاد الظمأ يقتل بعضهم ويبحث عن الماء ، وراح الشيطان يعبث بقلوب البعض ويقول : أيعدكم محمد النصر وأحدكم أحدث فلا يجد الماء الذى يتطهر به والآخر كاد يقتله الظمأ فلا يجد مايروى ظمأه ، وكاد الشيطان يلعب برجزه فى صدورهم فإذا بالسماء يرسلها الله مطرا مدرارا فتتجمد الأرض التى كانت سبخة وتثبت وتجمدت

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة باب من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين .

تحت أقدامهم بينما تصبح وحلا تحت أقدام أعدائهم ، فإذا بالماء يتكوم أكواما أكواما فيتطهر من كان محدثا ويشرب من كان ظامئا وإذا بالنعاس يغشى الله به الفئة المؤمنة ليذهب من صدورهم الفزع وليلقى فى قلوبهم الأمان ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (1)

صنع الله لهم الخوارق ، لماذا ؟ لأنهم وثقوا صلتهم بالله ، واصطلحوا على الله ، وصفت قلوبهم لله ، وكانوا إخوة متحابين متعاونين ، نبذوا الفرقة والاختلاف من صدورهم، ونبذوا الشحناء والبغضاء من قلوبهم ، وتوحدوا خلف قيادة مؤمنة ، توحدوا خلف رسولهم وشفيعهم صلى الله عليه وسلم ، فصنع الله له الخوارق بأن أجرى الله من كراماته للصالحين فيهم حتى رأينا واحدا كعكاشة بن محصن حين انكسر سيفه ، يروى ابن هشام فى سيرته يقول : قاتل عكاشة بن محصن يوم بدر بسيفه حتى انقطع فى يده فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه جذلا من حطب ، فقال : قاتل بهذا ياعكاشة، فلما أخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم هزه ، فعاد سيفا فى يده طويل القامة ، شديد المتن ، أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى : العون ، لأنه كان عونا من الله تعالى للفئة المؤمنة التى أجرى الله لها خوارق العادات وأجرى لرسولها المعجزات ، وأجرى لأصحابه الكرامات ، لماذا ؟ لأنهم وثقوا صلتهم بالله قيوم السماوات والأرض .

وقد يقول قائل : وأين نحن من أهل بدر الذين قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأنهم : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفر الله لكم (2) . أين نحن من أصحابه صلى الله عليه وسلم ؟ وقد يقول قائل : أين عصرنا من عصرهم ؟ وأجيب على الفور قائلا : إنه المنهج الربانى إذا طبقناه فى أى زمان وفى أى مكان يحققه الله ، فإن المبدأ القرآنى الذى لانشك فيه يقول : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ (3) المبدأ

---

(1) سورة الأنفال آية ١١ .

(2) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى باب فضل من شهد بدرا .

(3) سورة الحج آية ٤٠ .

القرآني يقول : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [١] .

وقد رأيتم بأعينكم ورأينا جميعا وكل من حضر معركة العاشر من رمضان رأى خوارق العادات التى أجراها الله فى هذه الحرب حين خضناها ونحن واثقون أنها حرب فى سبيل الله ، وأنها كانت من أجل الحق والدفاع عن الوطن الإسلامى فأجرى الله تعالى فيها خوارق العادات وكرامات لأوليائه الصالحين ، فقد قرأنا فى وثائقها الأكيدة وحدثنا من قاداتها وأبنائها ورأينا كيف كان العون عندما انقطع الماء لدى الجيش الثالث ففجر الله عيونا من الأرض تسقى الجيش الظمآن فى ذلك الوقت ،رأينا إمام المسلمين وشيخ الأزهر السابق الدكتور عبد الحليم محمود - رحمه الله رحمة واسعة - كيف وقف على منبر الأزهر يومها غداة المعركة يعبىء الجيوش باسم الإسلام ويناشد الأمة الإسلامية عن بكرة أبيها ويحدثهم حديث الصادق الذى لايكذب أهله ويقول : حدثنى عالم من أولياء الله فأبشروا بما أحدثكم به ، رأى رؤيا صالحة «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة [٢]. وأخبرنى أن النبى صلى الله عليه وسلم عبر ووقف مع جنود المسلمين وأن النصر قادم بإذن الله، وقال : أخبر بذلك السيد الرئيس وأعلنها للناس ، وقد كان فعلا خوض المعركة ، وكان فعلا النصر والعون وخوارق العادات التى حدثت حين ثبنا إلى رشدنا وتبنا إلى ربنا وتجمعت صفوفنا وكان شعارنا الله أكبر الله أكبر .

وإنا نضرع إلى الله العلى الكبير أن يمن على أهل البوسنة بالنصر وعلى كل الأقليات الإسلامية فى كل مكان وأن ينصرها نصر عزيز مقتدر ، فإنهم مستضعفون ولاجاه ولانصرة إلا بك يارب العالمين .

وإذا كان رمضان بما يحمله لنا من عطاء ومن ذكريات للنصر فى بدر وفى غزوة الفتح وأخيرا فى العاشر من رمضان ، يعطينا دروسا باهرة إننا حين نخلص ونكون إخوة متحابين لايعادى بعضنا بعضا ، ولانتفرق ولانتشر ذم ، إذا أصبحنا مخلصين متحابين

---

(١) سورة محمد صلى الله عليه وسلم آية ٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التعبير باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وأخرجه مسلم فى كتاب الرؤيا .

وصفت قلوبنا سيمن الله علينا بفتح ونصر من عنده فما الذى بقى علينا ، كل منا يتساءل: ماذا نصنع للأقليات الإسلامية ومالذى فى أيدينا لنفعله ؟ وأجيبك ياأخى على الفور ، فى يدك شىء كثير ، لاأقول لك المال فحسب بل فى يدك شىء يسير جدا أن تدعو إلى وحدة الصف ، أن تنبذ الخلافات ، أن تناهض أى عدوان على أمن هذه الأمة واستقرارها ، فلو كنا فى أمن واستقرار ماتشاغلت أنظمة البلاد الإسلامية بداخلها وأمنها الداخلى ومايحدث فيها من انفجارات وإرهاب وترويع وخلافات ونزاعات ، لم هذا ؟ والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] نهانا عن التنازع ومن عجب أن أعداءنا يتوحدون ويتربصون بنا ونحن نعادى بعضنا بعضا ونتنازع فيما بيننا ، لم لا نتوحد ؟ لم لانتحاب ونتواد ؟

إننا حين نتوحد ونتحاب ونتواد ولاتحدث بيننا فرقة ولاخلاف ولاتنازع سوف تقوى الجبهة الداخلية فى كل بلد عربى وفى كل دولة إسلامية وحين تأمن وتقوى الجبهة الداخلية فى كل دولة عربية سوف تقوى البلاد وتتفرغ من جهة ثانية لتؤدى دورها فى الأمن القومى ورسالتها التى بوأها الله سبحانه وتعالى إياها لتناهض بها أعداء الله .

ولقد سمعت من بعض المتخصصين فى علوم الاقتصاد حديثا فى مؤتمر من المؤتمرات بالأرقام الحسابية بأن الدول العربية والإسلامية تملك أكبر قوة ضاربة من الموارد البشرية والبترولية والنقدية ومن كل شىء وأنهم لو توحدوا لكانوا أكبر قوة ضاربة على ظهر الأرض ، وماااحتجنا إلى شرق أو غرب ، لكن المخزى أن بعض الدول تتفرق وتتشرذم ويعادى بعضها بعضا وتلتهم دولة إسلامية دولة أخرى ، رتعادى دولة دولة ، ويتخاصم المسلمون فى الدولة الواحدة ويتفرقون ، وما هكذا يكون المسلمون وإنما قال الله تعالى ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾[2] . وقال ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ ﴾. فإلى وحدة صادقة فى هذا الشهر المبارك ، إلى صفاء للقلوب، إلى توحيد للصف ، إلى توبة وإنابة خالصة لله ، عله يفتح علينا بركات من السماء والأرض .

وعنه أنه قال التائب من الذنب كمن لاذنب له ، ادعوا الله يستجب لكم.

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٦ . (٢) سورة آل عمران ١٠١ .

(٤٧)

بين الخوف والرجاء

الحمد لله رب العالمين حمدا الخائفين الراجين ، الذين يعيشون حياتهم بين الخوف والرجاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن سيدنا محمدا رسول الله شهادة تنجينا من عذاب يوم الدين ، اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هديه بإحسان إلى يوم الدين أما بعد .

فإن الإنسان المسلم يعيش حياته فى طريق معتدل ، وتعيش نفسه معتدلة بين الخوف والرجاء ، لايظل فى خوف أبدا فتظل حياته قلقة ، ولا فى رجاء أبدا فيكون منه التفريط ، ولكنه بين الخوف والرجاء ، بين الرغبة والرهبة، والقرآن الكريم ينبئنا عن هذا الطريق المعتدل حين يقول الله تعالى ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [1] . يدعون رغبا ورهبا ، من الرغبة والرهبة ، بين الخوف والرجاء تمضى نفس الإنسان وليس على عينه عصابة وليس فى قلبه غشاوة .

إنه يمضى بهذه النفس التى تتجه إلى ربها سبحانه وتعالى الذى قال : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [2] .

فكما أن هناك عذابا فإن هناك رحمة فلابد أن يكون الإنسان راهبا من العذاب وراغبا فى رحمة العزيز الوهاب سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) سورة الحجر آية ٤٩ ، ٥٠ .

ومن أجل ذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى يبين لنا سعة مغفرته ورحمتـه وهو ينادى يا ابن آدم إنك مادعوتنى ورجـوتنى غفـرت لك على ماكان منـك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة [١]».

إذاً نحن أمام رحمة واسعة ، وهذا الإله الكريم ، وهذا الإله الغفور الرحيم كما أنه يرحم فإنه أيضا عند العصيان يغضب ولكن سبقت رحمته غضبه كما يقول فى الحديث القدسى : «سبقت رحمتى غضبى [٢] »

ومن أجل ذلك فـإن على الإنسـان المسلم أن يرعى ربه فى الحـالين وأن يعـمل للطريقين، فلا الرحمة تجعله دائما وأبدا يفرط ولا العذاب يجعله فى قنوط أو يأس ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [٣]

إن عليه أن يأخذ طريقه إلى الله وهو على يقين بأن الذى يغضب هو الذى يرحم ، وأن الله كما أنه يثيب فإنه يعاقب ، ومن أجل ذلك فهو يعمل لهذا ويعمل لذاك .

ولكن إذا كانت رحمة الله واسعة فإنه يجب على الإنسان أن يعلم مواطن هذه الرحمة فهو الذى قال ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٤].

ويكشف لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم كيف تتدارك هذه الرحمة عباد الله فى الدنيا فيقول صلى الله عليه وسلم «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الرقاق باب إذا تقرب العبد إلى الله .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق باب ماجاء فى قوله تعالى « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وأخرجه مسلم فى كتاب التوبة باب سعة رحمه الله تعالى وأنها تغلب غضبه .

(٣) سورة يوسف آية ٨٧ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٥٦ .

جزءا وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه [١] »

هذه الرحمة الواسعة التى تحدث القرآن عنها فقال : «ورحمتى وسعت كل شيء»

يتحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا أهل الأرض يرحمكم من فى السماء [٢] » .

إذاً رجاؤنا فى رحمة الله سبحانه وتعالى لايبعدنا عن مقام الخوف من الله سبحانه وتعالى، لأن مقام الخوف يجعل العبد واقفا عند الحدود ، لايفرط ولايغضب ربه سبحانه وتعالى فهو القائل : وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين فإن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة [٣] » .

إذا بين الخوف والرجاء يشرق هذا الأمل فى كـــــرم الله سبحانه وتعالى ، وفى سعة رحمة الله سبحانه وتعالى التى تتدارك العباد فى دنياهم .

وليس هذا داعيا لأحد أن يفرط ولا داعيا لأحد أن يقنط ، بل على الإنسان أن يمضى فى طريق الإيمان مؤمنا بأن الغفور الرحيم له عذاب أليم .

وأن رحمته سبقت غضبه ، وعليه أن يعمل للقائه، لأن الله سبحانه وتعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب جعل الله الرحمة فى مائة جزء ، وأخرجه مسلم فى كتاب التوبة باب سعة رحمه الله تعالى وأنها تغلب غضبه .

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب فى الرحمة .

(٣) رواه ابن خبان فى صحيحه والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٤٨)

فضـــل العـلـم

الحمد لله رب العالمين هو الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان.

نحمده سبحانه وتعالى على نعمة العلم والبيان، ونعمة الإسلام الإيمان ، ونشكره سبحانه وتعالى على ما أولانا به من هداية وتوفيق.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهد سبحانه وتعالى لنفسه على نفسه أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله هو خير من علم وتعلم ، والقائل:

« إنما بعثت معلما[١]» اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى ومصابيح التقوى، اللـهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين أما بعد .. فيا أيها الإخوة المؤمنون : قال الله تعالى فى كتابه العزيز:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ[٢]﴾ .

هذه الآية الكريمة تضع لنا حدا فاصلا بين أهل العلم الذين وهبهم الله من لدنه علما، والذين تعلموا فى حياتهم ما ينفعهم وما ينفع الناس، تضع الآية حداً فاصلا بين هؤلاء وبين الذين لا يعلمون، فالذين لا يعلمون يجهلون حقائق دينهم، والذين لايعلمون يجهلون حقائق دنياهم ، ويجهلون أيضا حقائق أخراهم، من الذي يقف على هذه الحقيقة؟

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة .

(٢) سورة الزمر آية ٩ .

من الذى يتذكر ويتدبر ويعتبر، « إنما يتذكر أولو الألباب» أصحاب العقول الذين لم يجمدوا عقولهم، وإنما انطلقوا يتعلمون بها ويستخدمونها كمنحة ربانية منحها الله تعالى إياهم، وليس المقصود بالعلم الشرعى فحسب – وإن كانت له الأولوية – وإنما المقصود العلم الشرعى وكل علم ينفع الحياة وينفع البشر، وكل علم ينفع الناس كالطب يعالج المرضى، فقد أمر النبىﷺ به وقال: تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد الهرم[1]»

وعلم الزراعة ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ[2]﴾

وعلم الصناعة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ[3]﴾

وعلم التجارة « تسعة أعشار الرزق من التجارة والعشر في المواشى[4] » « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء »[5]

وعلم الهندسة وعلم الفلك وكل علم فيه منفعة للبشرية ، فالعلماء به يدركون قدرة الخالق الذى خلق فسوى وقدر فهدى و علماء الطب وعلماء التشريح يقفون على دقة الصنع البشرى فى خلق الإنسان ، ويدركون الشعيرات الدموية الدقيقة والأشياء التى لاتدرك بحاسة البصر المجردة ، يدركون هذه الدقائق فى التشريح ، ويدرك علماء الفلك أسرارا لهذا الكون ، ويدرك هذه الحقائق والأسرار الإلهية كل باحث فى ميادين المعرفة الكونية ، فلا يسعه إلا أن يسجد لمن خلق فسوى وقدر فهدى ، إذن الذين يعلمون بالدرجة الأولى هم الذين يعلمون علوم الشريعة وهم أيضا الذين يعلمون العلوم النافعة فى الدنيا التى فيها صلاح البشرية وعمارة الحياة .

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب باب فى الرجل يتداوى .

(٢) سورة يس آية ٣٣ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٨٠ .

(٤) أخرجه سعيد بن منصور فى سننه مرسلا .

(٥) أخرجه الترمذى فى كتاب البيوع باب ما جاء فى التجارة وتسمية النبى صلى الله عليه وسلم إياهم ٥٠٦/٣ .

ومن هنا كانت شهادة الله تعالى فى الكتاب العزيز على وحدانيته سبحانه شهد بها وشهدت بها الملائكة وشهد بها أولو العلم : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (1) ﴾

فأولو العلم مع الملائكة ومع رب العزة سبحانه شهدوا لله بالوحدانية وأدركوا هذه الحقيقة التى من أجلها فرض الله علينا جميعا العلم فقال صلى الله عليه وسلم : «طلب العلم فريضة على كل مسلم » (2) . فريضة لأنك لايمكنك أن تعبد الله وأنت جاهل بالعبادة ، ولايمكن أن تتعامل مع الخلق وأنت جاهل بكيفية هذه المعاملة .

ومن أجل ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى وصيته لسيدنا أبى ذر رضى الله تعالى عنه : «ياأبا ذر لأن تغدو فتتعلم مسألة من العلم خير من صلاة مائة ركعة ولأن تغدو فتتعلم بابا من العلم فتعلمه الناس عمل به الناس أو لم يعمل به خير من صلاة ألف ركعه (3) . فصلوات السنن والنوافل ، مع مالها من مثوبة فإن العلم هو الأساس لها ولغيرها، ولذلك كان بعض الأئمة من المحدثين الكبار إذا نزل إمام بالبلد يعكف على تعلم العلم وعلى تلقى الحديث من هذا الإمام فيقول له ولده ياأبتاه كانت لك عبادات وأوراد كثيرة فلماذا تركتها ؟ يقول : لقد نزل الإمام الفلانى وإن تعلم العلم وتلقى الحديث خير من صلاة النافلة .

على هذا النحو أدرك سلفنا فضل العلم ومنزلته لأنهم علموا أن أول مخلوق فى الوجود ، وأن أول أنبياء الله وأن أبا البشر آدم عليه السلام حين أراد الله أن يفضله وأن يظهر مكانته أظهر ذلك بالعلم «وعلم آدم الأسماء كلها » وحين ناقش الملائكة وسألوا ربهم :
﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (4) .

(1) سورة آل عمران آية ١٨ .

(2) أخرجه ابن ماجة فى المقدمة وابن عدى فى الكامل والبيهقى فى شعب الإيمان والطبرانى فى الكبير والأوسط والخطيب البغدادى فى تاريخه .

(3) أخرجه ابن ماجة فى المقدمة . (4) سورة البقرة الآيات ٣٠ - ٣٢ .

إذن فضل الله آدم عليه السلام بالعلم ، وأول آية صافحت قلب حبيبنا وشفيعنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كانت دعوة إلى العلم والمعرفة والقراءة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [1] وماطلب الله من نبيه ولا أمره بشيء يطلب فيه الزيادة إلا من العلم فقال له . ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [2]

كل ذلك يجعلنا ندرك قيمة الحديث الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم :

«عالم ينتفع بعلمه خير من ألف عابد [3] »

ومن هنا ندرك فضل مجالس العلم وفضل بيوت الله وهى المساجد التى تلقى من فوق منابرها مسائل العلم وتلقى فى حلقاتها دروس العلم ، فإنه عليه الصلاة والسلام قال : «وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدراسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده [4] » ومجالس العلم مهبط ملائكة الله ، وموطن رحمة الله تعالى وسكينته ، ولايأوى إلي بيوت العلم ومجالس العلم ومحبة العلم والعلماء إلا من رضى الله عنه وأحبه ، ولايبغض العلم والعلماء ولايبغض مجالس العلم إلا من بغضه الله تعالى وكتب عليه الشقاوة ، ففى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس فى المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله وذهب واحد فقال رسول الله : أما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا فلما فرغ رسول الله قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة : أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الأخر فأعرض فأعرض الله عنه [5]» . فالذى يعرض عن مجالس العلم

---

(١) سورة القلم الآيات ١ – ٥ .

(٢) سورة طه آية ١١٤ .

(٣) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن على بن أبى طالب .

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب العلم باب من قعد حيث ينتهى به المجلس .

وأهل العلم يعرض الله عنه ، لماذا ؟ لأنه عليه الصلاة والسلام بعث معلما ، ولأن العلم فريضة ، ولأن العلم عبادة ، ولأن العلم بدونه لايمكن أن تؤدى فروض الله ولامايجب بينك وبين عباد الله .

ومن أجل ذلك نرى نبينا صلى الله عليه وسلم عندما دخل المسجد ووجد جماعتين وجد جماعة منكبين على العبادة والذكر والدعاء . ووجد جماعة آخرين يتدارسون العلم ويعلمون الناس فوقف عليه الصلاة والسلام مباهيا بالمجلسين مثنيا عليهما خيرا وقال : مامعناه كلا المجلسين على خير : أما أحدهما فيعبدون الله ويذكرونه ويسألونه إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيتعلمون العلم ويعلمونه الناس وإنما بعثت معلما ، وجلس مع أهل العلم[٦] .

ولأنه عليه الصلاة والسلام أمره الله تعالى أن يرشد أمته وأن يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم وأن يوجههم أن يورثوا أبناءهم العلم ، ولذلك يقول : «العلماء ورثة الأنبياء . فأعظم ميراث تورثه أبناءك هو العلم ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «بلغوا عن ولو آية » أى أن تعلم ولدك ولو آية من القرآن ، وليس بلازم أن يكون تعليمه دينيا أو فى الأزهر إذا كان تعليمه مدنيا أو فى غير الأزهر فلا تحرم ولدك من كتاب الله ولامن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن حق أبنائنا علينا ألا نحرمهم من هداية العلم فهو خير من ميراث الدنيا وأموالها العريضة لأن الأموال زائلة وعرض الدنيا إلى زوال ، أما العلم فهو النافع للأبناء والباقى وهو الميراث الحقيقى للأنبياء ، ولذلك لما لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى رؤى سيدنا أبو هريرة ، رضى الله تعالى عنه ينادى فى سوق المدينة ويقول :

يا أهل السوق ماأعجزكم ياأهل السوق ما أعجزكم ياأهل السوق ما أعجزكم ، فاجتمع الناس حول سيدنا أبى هريرة وقالوا : ماذا تعنى ياأبا هريرة ؟ قال لهم : أنتم هنا فى صفقكم فى الأسواق وانشغلتم بالتجارة وميراث محمد بن عبد الله يقسم فى المسجد فهرع الناس إلى المسجد ثم عادوا إليه وقالوا : لقد ذهبنا فما وجدنا شيئا يوزع ولايقسم : قال :

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة .

أما وجدتم شيئا يوزع ألبتة ؟ قالوا : بلى وجدنا قوما يتعلمون العلم ويعلمون الناس فقال : ويحكم هذا ميراث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

إنه الميراث الحقيقى الذى تركه لنا رسولنا صلوات الله وسلامه عليه والذى هو أثمن وأغلى شيء فى الوجود ، وأول مصدر لهذا الميراث ولهذا العلم هو كتاب رب العالمين . هو القرآن الكريم الذى يجب أن يعمر الإنسان بيته وقلبه بتلاوته وتدبر ما فيه ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «القلب الذى ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب» [1] البيت الخراب الذى لاشيء فيه هو هذا القلب الذى لايحفظ شيئا ولايعرف شيئا من كتاب الله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[2]

وفى كتاب الله وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الهداية كل الهداية ، وحسبنا إذ نعلم أبناء القرآن وأن نحفظهم إيـاه أن نعلم أن تحفيظنا لهم هو توريث من أعظم ما نورثه إياهم ، فهو نافع لهم ونافع لنا ، فى دنيانا وفى أخرانا .

علموا أبناءكم كتاب الله ، علموهم حديث رسول الله ، فهذا خير تراث فى الوجود ، وقد قال شفيعنا وحبيبنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[3]

أيها الإخوة المؤمنون : إذا كان الإسلام قد حث على علوم الشريعة كتابا وسنة وفقها وما إلى ذلك فإنه حث على العلوم النافعة لدنيانا وحياتنا ، حثنا عليها وأمرنا أن نسير فى الأرض ، وأن ننظر فى جوانبها وأن نتدبر أسرار القدرة الإلهية فيها ، وبين لنا سبحانه حين قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[4]

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر .

(٢) سورة الإسراء آية ٩ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه .

(٤) سورة فصلت آية ٥٣ .

بين بذلك أسرار قدرته ، وحثنا بهذا على أن نسير وأن ننظر وأن نتعرف على ما فى الأرض من الأسرار وعلى ما فى الوجود من علوم ، وهو حين يوجه المسلمين إلى مواكبة كل علم فى الدنيا وكل حضارة يقول : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [1] . وهذه تجعلنا نتسابق مع الثورة العلمية والتكنولوجية فى العالم المحيط بنا ، وألا نتجمد ونتوقف وأن نقول كانوا في عهد الرسول يفعلون كذا ، فلا نريد أن نزيد عليهم ، لانقول كانوا يركبون النوق والجمال ويحاربون بالسيف ونتجمد وعدونا يصعد القمر ويستخدم الصواريخ ، لا ، ليس هذا هدى الإسلام .

إن هدى الإسلام هو ما قاله رسول الله ﷺ : «حاربهم بما يحاربونك به» وكلمة بما يحاربونك به تستوجب على المسلمين فى كل الأرض أن يطوّروا علومهم وحضارتهم وأن يكونوا على يقين أن الحضارة التى تغمر أوربا الآن كانت في المسلمين وقبسوا أصولها من الأمة الإسلامية حين كانت حضارتها في القمة، وأخذ الغرب عنا حضارتنا وطورها. وأخذ المسلمون في عصور الضعف والجمود واقفين لا يحركون ساكنا.

إن واجب الأمة الإسلامية وأعداؤها يتربصون بها الدوائر – أن تتحرك وأن تتطور وأن تبحث عن العلوم التي أمرها الله أن تسير في الأرض وأن تنظر إليها.

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(٤٩)

دَعْوَةُ الإسلام إلى المحافظة على الوقت

الحمد لله حمدا يليق بعظمته وقدرته وجلاله، نحمده سبحانه وتعالي، وقت لكل نفس ميقات أجل، لا تستأخر عنه ساعة ولا تستقدم عنه أخرى ..

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يقّلب الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار.

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله خيرُ من هدى إلي الحق ودعا إلي الرشد وأمر بالاعتبار بالدنيا، وبالزمن يمر فيها.

اللهم صل وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلي آله وأصحابه الذين علموا أن الدنيا دار فناء وأن الآخرة دار بقاء فشدّوا إليها رحالهم، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. أما بعد فيا جماعة المسلمين :

لقد وضح لنا رب العزة سبحانه وتعالي دلائل قدرته« يقلب الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأول الألباب[١]» .

من دلائل قدرته سبحانه وتعالي أنه يقلب الليل والنهار ما بين الطول والقصر وما بين الحر والبرد، يقلب الليل والنهار، هذان المخلوقان اللذان لا يمكن أن يحيا الناس بدونهما، جعل الليل سكنا، وجعل النهار معاشا يمثلان الوقت الذى هو أغلى شيء والذى إذا مرّ من يد الإنسان لا يمكن له أن يعيده إنه الوقت، والزمن ، والعمر ، فكل لحظة تمر وكل ساعة تنتهي، وكل أسبوع ، وكل شهر وكل سنة، وكل ماض انتهى من أعمارنا لا يمكن أن نعيده أبدا، لأنه مضى وانتهى بكل ما يحمله من خير أو شر، أومن طاعة أو من معصية،

(١) سورة النور آية ٤٤ .

وما سُطر فيه من صفحاتنا من حسنات أو من سيئات، لا يمكن أن تستعيد أيام حياتك التي انتهت أبدا، ولا يمكن أن ترجعها.

ومن أجل ذلك كان الحرص على الوقت أمراً مؤكدا في الإسلام، وكان الحفاظ عليه من شعائر هذا الدين، حتى إن الله تعالى جعل أهم عبادة نتعبد بها إلي الله وهي الصلة التى بيننا وبين الخالق جعلها موقوتة محددة بالوقت وهي عبادة الصلاة، جعل لها مواقيت. ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ (١) ، فلها أول وقت ولها آخر ، لها ابتداء ولها انتهاء، فوقت صلاة الفجر يبدأ من أول لحظة من لحظات الفجر الصادق وينتهي هذا الوقت بطلوع الشمس، فمن صلّى بعد طلوع الشمس صلّى قضاء ، ووقت الظهر من الزوال ثم ينتهى إلى أول العصر ، ووقت العصر إلى أن تغرب الشمس وتأتى المغرب من غروب الشمس إلى وقت العشاء ، ثم العشاء إلى طلوع الفجر الصادق .

ونزل سيدنا جبريل عليه السلام على سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم عندما فرضت هذه العبادة ، وجاء القرآن الكريم آمراً بها لا أكثر ، أما عن كيفية الصلاة وعدد الركعات ، وأما عن الركوع والسجود والاعتدال والجلوس وما يقرأ والوقت الذى يحدد ابتداء لها وانتهاء منها كل ذلك نزل به جبريل من قبل رب العزة سبحانه وتعالى فصلى بكل فريضة من هذه الصلوات الخمس إماماً بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذه الفروض عشر مرات ، كل فرض صلاه معه مرتين ، مرة فى أوله ومرة فى آخره ، فصلى به الصبح فى أول الوقت وفى آخر الوقت وكذا بقية الصلوات ، صلى به إماما ليوضح له الكيفية وليوضح له الوقت ثم قال له «الوقت بين هذين» (٢) أى بين هذين الوقتين اللذين صلى به فيهما ، وهو هنا يحدد المواقيت التى تبدأ بها صلاة كل فريضة وتنتهى بها صلاة كل فريضة، فما قبل الابتداء لاتصح الصلاة، وما بعد الانتهاء تكون الصلاة حينئذ قضاء، فالإسلام حين حدد لكل عبادة وقتها كان يحرص على أدائها فى موعدها وكانت الأمة تعرف بهذا قيمة الوقت وأهمية الزمن وقدر كل لحظة تمرّ ، وأن واجباتنا فى حياتنا الدنيا

(١) سورة النساء آية ١٠٣ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الصلاة باب أوقات الصلوات الخمس .

أكثر من أوقاتنا ، ومسئولياتنا فى حياتنا الدنيا أكبر من آجالنا وأعمارنا ، فكيف يأتى أحدنا إلى الآخر ويقول له تعالى نقضى الزمن أو نقتل الوقت أو نضيع الوقت ؟ كيف هذا ؟ على مقهى ، على قارعة الطريق ، على مكان ما ، هذا خطأ فاحش وضياع لنعمة كبرى نحن مسئولون عنها أمام الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، مسئولون عن كل وقت نضيعه هباء منثورا دون أن نستفيد منه ودون أن نشارك بـه فى عمـارة الحياة أو نتقرب به إلى الله ، لأن سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول : «لاتزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال : عن شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا علم فيه» (١)

فالعمر الذى نعيشه ، وفترة الشباب التى يقضيها شبابنا وأولادنا نحن مسئولون عنها ، مسئولون عن العمر والوقت ، هل ضيعه الإنسان هباء أم استفاد وأفاد به ، هل قطعه فى طاعة الله أم فى غضب الله ، كثير من الناس يسر حين ينتهى اليوم أو الأسبوع أو الشهر أو السنة والطالب يقول :

متى تنتهى هذه السنون حتى أتخرج ، والزارع يقول متى تنتهى هذه الفترة حتى يأتى وقت الحصاد ووقت جمع المحصول والصانع والعامل وكل إنسان يفرح حينما ينقضى اليوم أو الشهر أو السنة ، وكما يقول الشاعر :

يسُرُّ المرءَ ما ذهب الليالى   وكان ذهابهن له ذهابا

مع أنه لو تدبّر الأمر لعلم أن كل لحظة يفرح بانقضائها ، وأن كل ساعة يسرُّ لانحسارها وأن كل يوم أو شهر أو سنة يفرح بانتهائها ، لو تدبّر الحقيقة لأدرك أنها بانقضائها تنقص من عمره وتقرب من أجله .

والمرء يفرح بالأيام يقطعها   وكل يوم مضى نقصٌ من الأجل

مكتوب لك أن تعيش كذا فكل سنة تمر هى نقص من عمرك ، تقربك من أجلك، فاغتنمها لا تقتلها ، لاتُضيِّع واجباً فيها ، لا تكن آثما فى هذه الأوقات ، فقد قال الحسن

(١) أخرجه الطبرانى والبيهقى والخطيب وابن عساكر .

البصرى : ما من يوم ينشق فجره إلا وينادى مناد من قبل الحق : يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزود منى بعمل صالح فإنى لا أعود إلى يوم القيامة .

وهو حين يدرك هذه الحقيقة لايترك لحظة تمرُّ دون أن يتدبر فيها قدرة ربه سبحانه وتعالى ، مظلوم هذا الذى عنده الفراغ والوقت ولم يستفد به ، ظلم نفسه ، ومظلوم من عنده الصحة ولم يقدم بها خيرا ، كما قال سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» [1] .

وهو الوقت الذى يضيعه سدى ، لايستفيد فيه ، ولايفيد فيه ، إن للوقت قيمة قدرها ديننا الحنيف أيما تقدير ، وبين لنا أن واجبنا أن نستفيد من الماضى : العبرة ، ومن الحاضر : العمل ، ومن المستقبل : التأهب والاستعداد ، فالماضى كيف نستفيد منه ؟ أمرنا القرآن أن ننظر فى الأمم التى خلت وما حدث فيها ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [2] .

إنه يربط الحاضر بالماضى لنعتبر بقصص السابقين الذين عاشوا أعمارهم وحياتهم ووقتهم فمنهم من اغتنم الوقت ومنهم من أهدره وضيعه ، وقد وضح لنا سيدنا رسول الله صلى اله عليه وسلم هذه الدنيا ومعالمنا فيها حيث قال « إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم وإن المؤمن بين مخافتين بين أجل مضى لايدرى ماذا قضى الله فيه ، وبين أجل بقى لايدرى ماذا سيقضى الله فيه ، فليعمل المرء من صحته لمرضه ومن الشبيبة قبل الكبر فوالذى نفسى محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار» .

وهو هنا ينصحنا صلوات الله وسلامه عليه أننا بين مخافتين ، كل إنسان منا صغر سنه أو كبر ، شابا كان أو شيخا ، طفلا كان أو عجوزا ، كل واحد منها على ظهر هذه الأرض بين أجلين : أجل انتهى من حياته وانقضى وهو الذى مضى ولايدرى ماذا قضى الله فيه وماذا كتب عليه فيه ، وبين أجل قد بقى لايدرى ماذا سيقضى الله فيه ، فيوجهنا

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق .

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٧ .

إلى أن نستفيد منه، فمن كان فى صحته فليعمل لمستقبله قبل أن تذهب الصحة وتقدم الشيخوخة وقبل أن يتعرض للمرض فليعمل من صحته لمرضه ، ومن الشبيبة - وقت الشباب - قبل الكبر ليغتنم هذا الوقت وليتق الله ربه وألا يعبث مع العابثين ، وألا يضيع الوقت مع المضيعين وأن يدرك أنه حين يعنى بالوقت ، وحين يحترمه كما بينه الدين وجعل يومنا يبدأ من أول الفجر الصادق ، فلا ينام أحدنا حتى تطلع الشمس ثم يبدأ عمله بعد طلوع الشمس ، يضيع صلاة الفجر ويصليها قضاء ، وكم يقضى كثير منا ليله حتى المنتصف ومنا من يقضيه بعد المنتصف ومنا من يقضى ليله ساهرا ، أيـا كان نوع هذا السهر وهذا مضيعة للوقت ، وإهدار للعمر والزمن فيما لايفيد حتى إذا ما استيقظ بعد طلوع الشمس ضيع على نفسه صلاة الصبح أداء وضيع على نفسه رزقا واسعا ، فإن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم حين أدرك ابنته فاطمة وهى متصبحة أى وقت الصباح نائمة نبهها وقال لها : قومى يا ابنتى فاشهدى رزق ربك ولاتكونى من الغافلين ، فإن الله يقسم الأرزاق من الفجر إلى طلوع الشمس .

هكذا وجه المصطفى صلى الله عليه وسلم أحب آل بيته إليه ، ونبه أن هذا الوقت هو وقت الغنيمة ووقت التجلى الإلهى ووقت الفتوح ، فليجرب ذلك شبابنا وأبناؤنا الطلاب والتلاميذ الذين يدرسون فى المدارس والمعاهد والجامعات ولينبههم آباؤهم أن يستيقظوا من صلاة الفجر وأن يصلوا الفجر وقولوا لهم جربوا مذاكرة الدروس فى هذا الوقت ، هو وقت الفتوح بحق ، هو وقت يكون فيه الذهن أعظم ما يكون تفتحا وإدراكا ، وقد جربت ذلك كثيرا وأنا شاب وطالب أستذكر دروسى ، وجربته الآن وما وجدت وقتا فيه من الفتوح الإلهى كهذا الوقت الذى يكون بعد صلاة الفجر ، فلا تضيعوا أوقات الفتوح الإلهى التى يفتح الله بالفهم الصحيح وبالتجلى الكريم إلى عباده فيها كما نبهنا إلى ذلك سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم «ولاتكونوا من الغافلين» .

إن قيمة الوقت مهمة ، وإن حقيقة العمر فى هذه الحياة يجب أن يتنبه إليها كل الناس ، وألا يضيعوا أعمارهم سدى ، وألا يضيعوا دنياهم هباء منثورا ، لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فمن زرع فيها خيرا حصد خيرا ، ومن زرع فيها شرا حصد شرا ، ومن كان سلبيا لم يفعل شيئا كان صفر اليدين يوم يلقى الله . من أجل ذلك وجب علينا أن نعى

قيمة الوقت وأن ندرك تلك الحكمة التى تقول : «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك» .

وكما قال صلى الله عليه وسلم «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ» [1].

أيها الإخوة المؤمنون : إذا كان للوقت هذه القيمة ، وإذا كان الإسلام قد عنى به على هذا النحو فجعل الأهلة مواقيت للناس ، وجعل الصلاة بمواقيت ، والحج بمواقيت ، والصوم بميقات ، وإدراكه بهلال شهر رمضان وانتهاؤه بهلال شهر شوال ، وجعل الزكاة بِحَوَلَانِ الحَوْل أو بيوم الحصاد .

كل ذلك يجعلنا نلتفت إلى قيمة الوقت والزمن ، وإلى أهمية العمر ، وأن يدرك كل إنسان منا أنه قد لايعيش أكثر مما عاش فليعمل لآخرته .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق .

(٥٠)

دعوة الإسلام إلى عزة النفس

الحمد لله رب العالمين ، خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وكرمه على جميع خلقه فقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [١] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له بتوحيده يعز العباد وبكفره يذل الخلق .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله دعا إلى العزة والكرامة ، ودعا إلى أن يعيش الناس أعزة كما أرادهم ربهم سبحانه وتعالى.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الكرماء الأعزاء الأتقياء الأنقياء ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ففازوا بسعادة الدنيا وعز الآخرة ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

أما بعد ، فيا معشر المسلمين : يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢] ويقول جل شأنه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [٣] **ويقول سبحانه «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» .**

وفى هذه النصوص القرآنية الكريمة تحمل الآيات الكريمة الحكيمة توجيها ربانيا

(١) سورة الإسراء آية ٧٠ .

(٢) سورة : المنافقون آية ٨ .

(٣) سورة فاطر آية ١٠ .

للناس جميعا أن يطلبوا العزة من الله سبحانه وتعالى ، وأن يعيشوا أعزة فى الدنيا ، فلايليق بمسلم أن يكون ذليلا أو مهانا ، ولايعيش الإنسان المؤمن ضعيف الشخصية مهانا فى حياته، بل يطلب الإسلام منه مادام قد آمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا أن يكون عزيز النفس ؛ لأن خالقه كرمه ، ولأن الأمور التى قد تدعو البعض إلى ذلة النفس لاتعدو أن تكون أحد أمرين :

الأول : هو خوف الإنسان على حياته ، وأما الثانى : فهو خوف الإنسان على رزقه أو دنياه أو ما فيها من مظاهر ، لا يعدو سبب الذلة أن يكون واحداً من هذين الأمرين أو يذل الإنسان نفسه لأنه يخاف بطش جبار من البشر ، أو يخشى على نفسه من ظالم ، أو يخشى على ماله أو رزقه أو جاهه أو منصبه أو ما إلى ذلك من مظاهر الحياة الدنيا . ومخافة الإنسان على واحد من هذين الأمرين تدعوه أن يخضع أمام هذا الإنسان الذى قد يتعرض لحياته بالعدوان عليها ، أو يعرض رزقه أو جاهه إلى ضياع ، فتأتى ذلة الإنسان من هذين السببين .

ولكى يزيح الإسلام من طريق الإنسان المؤمن أسباب الذلة جعل هذين السببين لايملكهما واحد من البشر ، وإنما يملكهما خالق القوى والقدر سبحانه وتعالى .

لم يملّك الله تعالى حياة الناس للناس ، وإنما جعل حياة الناس وآجالهم بيد الخالق الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا .

هو وحده المحيى والمميت : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) فما دام الأجل بيد الله ، وما دام الذى يملك الموت والحياة هو الله فلماذا يذل الناس أنفسهم ؟ ولماذا تخضع رقابهم وتعنو جباهم لغير خالقهم الذى يملك الموت والحياة ؟ قد يقول قائل : إن هناك ظالمين وجبارين فى الأرض قد يتربصون ببعض الناس الدوائر وقد يعتدون عليهم، ونحن معه فى هذا ، فالإسلام أمر أن يأخذ الناس حذرهم فقال تعالى ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (٢) وقال سبحانه ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (٣) ولكن ليس معنى أخذ الحذر وعدم إلقاء النفس إلى التهلكة أن يعرض الإنسان نفسه إلى المهانة

(١) سورة الأعراف آية ٣٤ .

(٢) سورة النساء آية ١٠٢ .

(٣) سورة البقرة آية ١٩٥ .

والذلة ، أو أن يزعم أن حياته مملوكة لبشر مثله ، فعليه أن يوقن بأن الشجاعة لاتقصر العمر ، وأن الجبن لايطيل العمر ، ولذلك كان على الفارس والشجاع فى ميدان الحرب أن يقبل وألايدبر وألايزعم أن خوفه أو جبنه و اختفاءه فى البيت قد يطيل حياته ، وأن إقدامه فى ساحة الجهاد قد يعرضه لنقصان الأجل ، كلا ، فلكل نفس ميقات أجل لاتستأخر عنه ساعة ولاتستقدم عنه أخرى ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [1] فكون رب العزة سبحانه يجعل الموت والحياة بيده يورث الإنسان العزة والكرامة وألا يفرط المؤمن فى كرامته .

الأمر الثانى : أن الذى يملك الرزق هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [2] فتكفل سبحانه وتعالى برزق العباد وقال : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [3] على الله ، ليس عليك ولا عليَّ ولا على أى عظيم من عظماء البشر مهما كان جاهه ومهما كانت منزلته ، وإنما تكفل رب العزة برزق عباده الذين خلقهم حتى لايذل أحدهم لأى إنسان من البشر ، تكفل بالرزق وقال ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ وأقسم رب العزة على ضمان الرزق فقال ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [4]. فما دام قد تكفل بهذه الأمور التى يكون فى فقدانها الذلة والضعة والهوان فلايصح لإنسان بعد ذلك أن يريق ماء وجهه ، ولا أن يذل نفسه لأحد ، وإن كان فى سؤاله للناس ذلة فعليه أن يسأل رب الناس ،

لاتسألن بُنيَّ آدم حاجة ... وسل الذى أبوابه لاتحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنيَّ آدم حين يُسأل يغضب

أمرنا أن نتوجه إليه حتى لانذل أنفسنا ، ووجهنا ديننا الحنيف إلى ذلك ، وبين لنا أنه قد يظن بعض الناس أنه من الممكن أن يضر أحد الناس أحدا ، أو أن ينفع أحد الناس أحدا،

(١) سورة النساء آية ٧٨ .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ – ٥٨ .

(٣) سورة هود آية ٦ .

(٤) سورة الذاريات آية ٢٢ ، ٢٣ .

فقال سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم : «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلابشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلابشيء قدكتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» (1) وفى هذا البيان ما يورث فى نفس الإنسان ، المؤمن عزة وكرامة ، وألا يريق ماء وجهه لإنسان كائنا من كان ، وأنه حين يمنعه أو حين يريد أن يَسْتَعْلى عليه فعليه أن يجرب من منحه هذه القوة أو هذا الجاه أو هذا المال ، عليه أن يجرب ويسأل الخالق والمانح والنافع والضار مالك الملك سبحانه وتعالى ، عليه أن يتوجه إليه بالسؤال ، وأن يتوجه إليه بقلب صادق مخلص ، اطلبوا الأشياء بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير .

أمرنا أن نطلب الأشياء بعزة الأنفس ، لكن مما يؤسف له أن بعض البشر يزعمون أنهم حين يداهنون الرؤساء والزعماء والكبراء أو بعض ولاة الأمر أو بعض الأثرياء أو بعض أصحاب الجاه أو بعض الذين وُلُّوا شيئاً من أمور الدنيا حين يداهنونهم وينافقونهم أنهم يمكن أن يصلوا إلى مآربهم ، وبعض الناس يتسلقون من هذا الطريق ، والبعض الآخر يحاول أن يرتفع على أنقاض إخوانه من البشر ، وهنا يأتى التوجيه النبوى بشىء من الحسم والحزم حتى لايخامر الشك نفس إنسان ، وحين يتجه التوجيه النبوى يوضح أنه توجيه من قبل الحق ، انظروا إلى قوله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث فى روعى» ومعنى روح القدس أى جبريل ، نفث فى روعى أى ألقى فى قلبى ، أى أن التوجيه الذى يوجهنا إليه رسولنا صلى الله عليه وسلم ليس من عنده هو ، ولكنه من عند رب العباد ، حمله ملك الوحى الموكل بأمر السماء ، وهو روح القدس ليلقى هذا التوجيه فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه المقدمة فى هذا الحديث توضح لنا أهمية هذا التوجيه النبوى ، وأنه نزل من قبل السماء مؤكدا ومحققا «إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل أجلها ورزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولايحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لاينال إلا بطاعته» .

ماعند الله لاينال إلا بطاعته ، فليس استبطاء الرزق داعيا أن تطلبه بمعصية الله ، ولابإراقة ماء الوجه ، ولابنفاق من ترجو منهم مطلبك ، ولابالتسلط على الآخرين ،

---

(1) أخرجه أحمد بن حنبل ٢٩٣/١٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ والترمذى فى كتاب القيامة .

ولابعصيان الله ، بل عليك أن تطلب ذلك ، وطريق ذلك إنما يتمثل فى طاعة الله سبحانه وتعـالى .

ولكى يملأ الإسلام حياتنا بمعنى العزة ، ولكى يشيعها فى كل مناحى معاملاتنا وعباداتنا جعل العبادة التى تتكرر فى اليوم خمس مرات وهى الصلاة وهى الصلة بين العبد وربه جعلها تمثل العزة ، وجعلها تشير بأنه لاخضوع ولاسجود إلا لله الملك المعبود سبحانه وتعالى وحده ، لاسجود لبشر ، لاخضوع لبشر ، إنما السجود لله وحده فقط .

وفى كل عباداتنا يبدأ الوقت للصلاة بالأذان ، وتبدأ كلمات الأذان بماذا ؟ بكلمات يقول فيها المؤذن على ملأ الناس : الله أكبر الله أكبر ، ومعنى الله أكبر : أنه أكبر من كل كبير وأكبر من كل عظيم وأكبر من كل زعيم أو رئيس وأكبر من كل ملك أو أمير وأكبر من كل غنى وأكبر من كل قوى فهو وحده الكبير المتعال . فيامن تطلب العزة أو الحياة أو المال أو الجاه من غنى فالله أكبر من الغنى ، يا من تطلبه من رئيس أو زعيم أو كبير أو ولى أمر ، الله أكبر منه مهما عظم ، ويا من تريد أن تعصى ربك بطاعة بشر اعلم أن الله سيسخط عليك ويسخط عليك البشر ، فمن أسخط الله برضا العبيد اسخط الله عليه وأسخط العبيد ، ومن أرضى الله بسخط العبيد رضى الله عنه وأرضى العبيد.

وهنا نجد فى كل أذان ابتداءا وانتهاء الله أكبر الله أكبر لنعلم أنه أكبر من كل كبير حتى إذا بدأنا تكبيرة الإحرام ونوينا أن نصلى فرضا من الفروض نقول : الله أكبر فلا يشغلنا شيء عن تكبيرة الإحرام مهما كان قدره ولو دخل البيت عظيم وقلت الله أكبر تكبيرة الإحرام فالله أكبر منه وتؤثر عبادتك عليه فإذا ركعت تقول الله أكبر فلا ركوع إلا له ، وإذا اعتدلت وإذا سجدت وفى كل أركان الصلاة شرع الله أن نردد الانتقال من ركن إلى ركن بقولنا الله أكبر فإذا ركعت تقول سبحان ربى العظيم فلا عظيم إلا الله ، وإذا سجدت تقول سبحان ربى الأعلى فلا أعلى على الخلق إلا الله ، وهذا يورثك معنى العزة والكرامة التى يعرف الإنسان بها قدره وأن العظمة لله وحده وأن العلو لله وحده وأنه لااستعلاء لأحد من البشر، ولايصح لإنسان أن يذل نفسه ولا أن يهينها .

وهنا ندرك عظمة هذا الدين الذى يربى أتباعه على العزة والكرامة ، والذى جعل من عناصر العقيدة الإسلامية التى نؤمن فيها بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا ،

جعل من عناصر هذه العقيدة أن نؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره ، والإيمان بالقضاء والقدر يورثنا العزة والكرامة ، حتى لايظن أحد أنه إن فاته خير فاته لأنه غضب عليه فلان من البشر أو أنه إذا جاء خير جاءه لأن أحداً من البشر رضى عنه ، لا ، إن الأمور تجرى بمقادير .

إيماننا بالقضاء والقدر يجعلنا نوقن بهذا الحق ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ (١)

فالأمر بيده وحده سبحانه وتعالى ، فلماذا الخشوع والخضوع للبشر ؟ ولماذا الذلة والهوان للناس ؟ ولماذا يحاسب الإنسان نفسه وأيامه على دنيا أفلتت منه أو على رزق غدٍ ضمنه له رب العزة سبحانه؟!

---

(١) سورة يونس آية ١٠٧ .

(٥١)

صفاء القلوب

الحمد لله رب العالمين .. نحمده سبحانه وتعالى على نعمه التى لاتحصى وآلائه التى لا تستقصى ، ونشكره سبحانه وتعالى على نعمة الإيمان وكفى بالإيمان نعمة ، وعلى ما أنعم به علينا من جوارح وأعضاء ننعم بها فى حياتنا الدنيا ونتقرب بها إلى المنعم الرزاق سبحانه وتعالى ، كما أنعم علينا بنعمة العقل ونعمة القلب الذى جعله ملكا على الأعضاء ومحركا لوظائفها وأفعالها وحركاتنا وسكناتنا .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة نقر فيها بربوبيته ووحدانيته وعظمته وقدرته .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله خير العابدين وإمام المتقين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين حملوا قلوبا تقية ، ونفوساً صافية نقية ، آمنوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، رضوان الله عليهم أجمعين .

أيها الإخوة المؤمنون : من نعم الله سبحانه على الإنسان من بين ما أنعم به عليه فى جسده وفى أعضائه من بين ذلك نعمة القلب ، والقلب عرفه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب» [1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب فضل من اسبرأ لدينه ، وأخرجه مسلم فى كتاب البيوع باب أخذ الحلال وترك الشبهات .

فنبهنا سيدنا المصطفى صلى الله على وسلم إلى أن سلامة القلب تكون بها سلامة سائر الأعضاء والجوارح ، وأن فساد القلب يكون به فساد سائر الأعضاء والجوارح ، وهو فى هذا يؤكد ويقرر ما أكده وقرره القرآن الكريم فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1] . فالقلب السليم إذا أتيت الله به وإذا كان لقاؤك مع ربك يوم أن تلقاه بسلامة قلب فكن على يقين ، فلا المال نافعك ولا الأبناء نافعوك .

ما الذى ينفع يا رب العزة فى هذا اليوم ؟ قال : إلا من أتى الله بقلب سليم . بعض السذج يقولون إن هذه الآية تدعو إلى سلامة القلب ، فما دام القلب سليما بنص الآية فأنا أطمئن بلقاء ربى ، ولا يعنيهم بعد ذلك إن هم أدوا ما أوجبه الله عليهم من عبادات أو انتهوا عما نهاهم الله عنه من ذنوب ومعاص ، فيقولون : الله رب قلوب ، فما دام القلب سليما فلا يكترث بما يفرط فى طاعة أو ما يأتى من معصية مستندين إلى قوله «إلا من أتى الله بقلب سليم» ولم يدركوا الحقيقة التى تعنيها الآية الكريمة وتفصلها آيات من القرآن أخرى لأن ما جاء مجملا فى آية كهذه الآية فصلته آيات أخرى ، وما جاء مطلقا فى موضع قيدته آيات أخرى ، وما جاء مبهما فى موضع وضحته آيات أخرى فى مواطن أخرى ، ثم جاء حديث سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم يفسر القرآن ويفصل مجمله ويقيد مطلقه ويخصص عامه ويوضح أحكامه ، فقوله إلا من أتى الله بقلب سليم يعنى أن سلامة القلب إذا كان صالحا سيحرك سائر الأعضاء إلى طريق الصلاح والعبادة فلا تتوقف الأعضاء فى أداء ما فرض الله على الإنسان ولاتنطلق الأعضاء إلى ما حرمه الله على الإنسان، فالذى يكون سليم القلب يكون سليم الجوارح ، يكون مستجيبا طائعا لربه ، لأن القلب كما يقول بعض العارفين هو ملك الأعضاء تأتمر بأمره وتنتهى بنهيه ، فإذا حمل القلب صفاء ونقاء وحبا لله ولرسوله وللمؤمنين كان طائعا لله ولرسوله ومخلصا لعباد الله أما إذا حمل القلب فسادا أو شرا أو حقدا أو ضغينة أو كراهية دمر العلاقة التى بينه وبين الخلق وأضعف العلاقة التى بينه وبين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . ولكن ما سبيلنا إلى صلاح القلب ؟ وهل فى يدنا ما يصلح قلوبنا ؟ وهل القلب هو تلك العضلة التى يعرفها الأطباء وعلماء وظائف الأعضاء ، ويمكن بعملية جراحية نعالج بعض شرايين القلب

---

(١) سورة الشعراء آية ٨٨ ، ٨٩ .

كما تعالج طبيا أيمكن أن يعالج القلب دينيا وروحيا ومعنويا ؟ لنقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ورد فيه ذكر القلب وصلاح القلب وفساده فهو صلوات الله وسلامه عليه يقول:«الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لايعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه الأ وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب» فنلاحظ أن فى الحديث بداية ونهاية ، أما بداية الحديث فتتكلم عن الحلال والحرام وما بينهما من أمور مشبهة – أى تُشْتَبه على الإنسان – لا يعلم أهى من الحلال أم من الحرام، أو هى الأمور التى اختلف فيها العلماء بعضهم يقول هى حلال وبعضهم يقول هى حرام هذه هى الأمور المشبهات التى يقصدها الحديث ، أما الحلال فهو واضح ما أحله الله من طعام وشراب وملبس وما إلى ذلك ، والحرام معروف ما حرمه الله تعالى من كذب وغيبة ونميمة وسرقة وفاحشة وغير ذلك ، وعلاقة بداية الحديث مع نهايته حيث إن بدايته تتكلم عن الحلال والحرام وما فيه شبهة ، وحيث إن نهايته تتكلم عن القلب وصلاحه وفساده ، ما علاقة الحديث عن القلب بالحلال والحرام ؟ أو بعبارة أخرى ما علاقة الحلال والحرام وما أثرهما على القلب ؟ نعم هناك علاقة وثيقة لمن يبحث عن إصلاح قلبه ولمن يريد أن يصحح فساد القلب ، إن العلماء يقولون إن علاقة الحديث بالحلال والحرام فى نفس المكان وفى نفس القول النبوى علاقته بالحديث عن فساد القلب وصلاحه إشارة نبوية إلى جميع المؤمنين أن أكل الحلال يورث صلاح القلب وأن أكل الحرام أو ما فيه شبهة يورث فساد القلب والعياذ بالله .

ومن هنا اتضحت علاقة بداية الحديث مع نهايته ، وأن من أراد أن يصلح قلبه فعليه أن يأكل الحلال ، ومن أراد أن يصحح فساد قلبه فعليه أن يتحاشى الحرام وما فيه شبهة ، ولذلك لما سأل سيدنا سعد بن أبى وقاص رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يكون مستجاب الدعوة قال له : ادع الله لى أن أكون مستجاب الدعوة، فماذا قال له ؟ قال له يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة [1] .

---

(١) رواه الطبرانى في الصغير.

أى كل الحلال وقال ﷺ: «إن الله تعالى طيب لايقبل إلا طيبا» [1] .

ومن هنا ندرك أهمية صلاح القلب لأن بصلاحه يكون صلاح سائر الأعضاء ولأن بفساده يكون فساد سائر الأعضاء ، وكما يكون صلاح القلب بالأكل من الحلال وبالبعد عن الحرام فإن صلاح القلب أيضا يكون بصفائه ونقائه ومحاولة صاحبه أن يبتعد عن إيذاء خلق الله وعن حسد الناس على نعمة أنزلها الله بأحد ، لاتحسد أخاك على نعمة أنعمها الله عليه ولا تتمن زوال النعمة عنه لتكون عندك فلست أنت الذى يقسم الأرزاق وإنما يقسمها الرزاق ذو القوة المتين ، وله حكمة فى أن يجعلك غنيا ويجعل الآخر فقيرا ، وله حكمة فى أن يجعلك فقيرا ويجعل الآخر غنيا ، وما كانت هذه الحكمة ظالمة لمن كان فقيرا ، ولا كانت الحكمة الإلهية محابية لمن كان غنيا ، كلا كلا حاشا لله، فإن الله تعالى هو الحكَم العدْل، ويجعلك غنيا لأنه يعلم أن الغنى يرتبط صلاح أمرك به ويجعل الآخر فقيرا لأنه رأى أن صلاح أمره يكون فى الفقر وأن سعادته فى الآخرة تكون فى المال القليل فربما لو أعطى كثيرا لفسد إيمانه ولم يؤد حق الله فيه فيورده المال موارد الهلاك ، والله أعلم حيث يجعل رسالته : «إن من عبادى من لايصلح إيمانه إلا الصحة ولو مرض لفسد حاله، وإن من عبادى من لايصلح إيمانه إلا المرض ولو صح لفسد حاله ، وإن من عبادى من لايصلح إيمانه إلا المال ولو افتقر لفسد حاله ، وإن من عبادى من لايصلح إيمانه إلا الفقر ولو اغتنى لفسد حاله ، وإن من عبادى من يريد أن يأتى نافلة فأصرفه عنها كى لايدخله الغرور بها ، إنى أدبر أمر عبادى لعلمى بما فى قلوبهم إنى عليم خبير» .

إنه يعلم ما فى قلوبنا ويعلم ما يصلحنا وما يفسدنا فيبعدنا عما يفسدنا ويقربنا مما يصلحنا ، إنه يعلم ما فى قلوبنا لأنه عليم خبير ، والقلوب هى التى تحرك الأعضاء ولايعلم ما فى القلوب إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى .

ومن هنا كان على الإنسان أن ينقى قلبه وأن يصفيه أولا بأول وأن يحاسب نفسه كما يحاسب التاجر نفسه ويحسب أرباحه وخسائره فعليك أن تحاسب قلبك ونفسك فى كل ليلة ماذا ربحت وماذا خسرت ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، لقد وضح لناسيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم شرار الناس لنتحاشى

(١) رواه مسلم.

خصالهم حين قال : ألا أنبئكم بشراركم ؟ فقالوا : بلى إن شئت يا رسول الله . فقال : «إن شراركم الذى ينزل وحده ويجلد عبده ويمنع رفده» - ينزل وحده إنه ذو الأثرة والأنانية ، ويجلد عبده : صاحب القلب القاسى الذى يكون عنيفا مع الضعفاء ، ويمنع رفده : أى يمنع عطاءه وإطعامه للناس .

ثم قال : أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ فقالوا بلى إن شئت يا رسول الله . فقال : من يبغض الناس ويبغضونه، ثم قال أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا بلى إن شئت يا رسول الله قال : الذى لايقيل عثرة ولايقبل معذرة ولايغفر ذنبا - ومعنى لايقيل عثرة : يعنى إذا رأى هفوة من أخيه لايتسامح معه ، وإذا رأى خطأ من إنسان عنفه وكان قاسيا معه ، ولايقبل معذرة : بعض الناس إذا أخطأ أحد فى حقه وجاء يعتذر يقول لا أريد أن أكلمه أبدا ، لا أريد أن أراه أبدا ، هذه مقاطعة لماذا !

ليس هذا من خصال المؤمن ، وليس هذا بصاحب القلب الصالح ، بل لابد أن تقبل عذر أخيك الذى أخطأ فيك ، اقبل منه المعذرة ولاتعن الشيطان عليه - ثم قال : أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا بلى يا رسول الله قال : من لايرجى خيره ولايؤمن شره.[1]

هناك حديث يصور هذا المعنى بصورة فيها من الحيطة ما يجعلنا نعجب لرحمة وعطف ورأفة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يغرس علائق الحب والمودة ويصفى قلوب العباد بعضهم لبعض ، ليس فقط أن تقبل العذر من أخيك بل أكثر من ذلك ، ربما يكون حين يعتذر إليك يقول أنا لم أفعل ذلك أو لم أقصد ذلك ، لكن هناك إنسان تتأكد تماما أنه أخطأ فى حقك مائة فى المائة ولكنه حين أراد أن يعتذر إليك تنصل بمعنى أنه يريد أن يخرج من ذنبه وهو يعلم ذلك ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : «مَنْ تُنصِّل إليه فلم يقبل لم يَرِدْ علىّ الحوض»[2].

يريد أن يؤكد علائق الحب ، يريد أن يوثق علائق المودة بين الناس ، والرسول صلى الله عليه وسلم هنا يوقفنا على أن الإنسان الذى يحمل قلبا نقيا صافيا هو الذى يرجى خيره،

(١) رواه الطبرانى.

(٢) رواه الطبرانى.

هو الذى يؤمن شره ، هو الذى يقبل عذر المعتذرين إليه ، هو الذى يقيل عثرات الناس ، هو الذى يتصافح ويتسامح مع إخوانه المسلمين ، هو الذى لايمزق أواصر الود بينه وبين الناس .

إن صفاء القلب ونقاءه ، وإن سلامة القلب بهذا المعنى تجعل صاحبه يوم القيامة مقبلا على ربه آمنا غير خائف ، فرحا غير حزين ؛ لأن علاقته بربه كانت صافية ، إن لله أوانى فى أرضه ألا وهى القلوب فأقربها إلى الله مارق وصفا . أيها الإخوة المؤمنون : ماذا على الناس لو حملوا قلوبا صافية نقية ، ماذا عليهم لو عاشوا أحبة ودعاء ، ماذا عليهم لو طهروا قلوبهم من الأحقاد والأضغان والكراهية وتحابوا وتآلفوا وتعاطفوا .

إن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف المتعاطفين فى قوله : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [1] .

ويبشر صلوات الله وسلامه عليه أحد الصحابة ثلاث مرات بأنه من أهل الجنة حين قالت كما روى أنس رضى الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ فقال : «يطلع الآن عليكم – رجل من أهل الجنة» فخرج رجل من الأنصار يحمل نعله بيده اليسرى ويتقاطر ماء الوضوء من أعضائه فقالها فى اليوم الثانى فدخل الرجل نفسه فقالها فى اليوم الثالث فدخل الرجل نفسه ، فلما رأى ذلك سيدنا عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أراد أن ينزل على الرجل ليكتشف سر تبشير الرسول صلى الله عليه وسلم له بأنه من أهل الجنة ، فقال لاحيت أبى – أى حدثت بينى وبينه خصومة – وأردت أن أنزل عندك ضيفا ثلاث ليال فقال الرجل : على الرحب والسعة ، وأخذ يرقب عبادته فما وجده بعد أن يصلى العشاء وسنتها إلا أن ينام وإذا قام من نومه ذكر الله تعالى لاأكثر من ذلك ، يقول سيدنا عبد الله ابن عمرو بعد انتهاء الأيام الثلاثة حتى كدت أن أحتقر عمله ، لأنه لايفعل أكثر مما يفعل عامة الناس ، فقال له وصارحه القول ، ما كان بين وبين أبى شيء ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر بأنك من أهل الجنة ثلاث مرات فأردت أن أكتشف السر الذى

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم .

تتقرب به إما ليلا أو نهارا ، إلى ربك فما وجدتك تفعل أكثر مما أفعل بل مما يفعل سائر الناس فلماذا بشرك بأنك من أهل الجنة ثلاث مرات فقال : «ماهو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا و لا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه» فقال عبدالله: هذه التى بلغت بك»[1] .

(١) رواه أحمد.

مؤلفات أ. د. أحمد عمر هاشم

١ - السنة النبوية وعلومها.
٢ - قصص السنة.
٣ - دعائم الإسلام.
٤ - الإسلام وبناء الشخصية.
٥ - منهج الإسلام فى العقيدة والعبادة والأخلاق.
٦ - الأخلاق فى ضوء الكتاب والسنة.
٧ - الإسلام والشباب.
٨ - السنة النبوية فى مواجهة التحدى.
٩ - الإسلام وإقرار الأمن.
١٠- من هدى السنة فى العبادات.
١١- من توجيهات الرسول ﷺ.
١٢- قبس من الحديث النبوى.
١٣- فى ظلال الهدى النبوى.
١٤- فى رياض السيرة النبوية.
١٥- المنهج النبوى فى تعليم المسلمين.
١٦- معالم على طريق السنة.
١٧- مناهج المحدثين.
١٨- قواعد أصول الحديث.
١٩- تدريب الراوى (تحقيق) (جـ١ ، جـ٢).
٢٠- الكفاية فى علم الراوية (تحقيق).
٢١- المسند للإمام أحمد بن حنبل (تحقيق) (جـ٢٠, ٢١, ٢٢).

٢٢- المحدثون فى مصر والأزهر.

٢٣- من توجيهات الشريعة الإسلامية.

٢٤- أضواء من هدى النبوة.

٢٥- شرح وتحقيق صحيح مسلم. (١-٥) خمسة أجزاء.

٢٦- منهج التشريع الإسلامى فى بناء الفرد والأسرة والمجتمع.

٢٧- الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها.

٢٨- (فتح المبدى) (تحقيق) (جـ١، جـ٢، جـ٣، جـ٤).

٢٩- نسمات إيمانية (ديوان شعر).

٣٠- منهج الدفاع عن الحديث النبوى.

٣١- التصوف الإسلامى فى مواجهة الشبهات.

٣٢- التربية الإسلامية للصف الثالث الإعدادى.

٣٣- التربية الإسلامية للصف الأول الثانوى.

٣٤- التربية الإسلامية للصف الثانى الثانوى.

٣٥- التربية الإسلامية للصف الثالث الثانوى.

٣٦- الإسراء والمعراج.

٣٧- رمضان والصيام.

٣٨- فقه الدعوة.

٣٩- أزمة الخليج فى ميزان الإسلام.

٤٠- واجب الأمة الإسلامية.

٤١- القرآن وليلة القدر

٤٢ - المرأة في الاسلام

٤٣ - طبقات الفقهاء الشافعيّين (تحقيق) (جـ ١ ، ٢ ، ٣)

٤٤ - من أداب النبوة

٤٥ - فتاوى دينية

٤٦ - قضايا ومفاهيم

٤٧ - محنة الخليج

٤٨ - الشريعة والمجتمع

٤٩ - التربية الاسلامية للمرحلة الثانوية الفنية

٥٠ - التربية الاسلامية للمرحلة الابتدائية

٥١ - زاد الداعية

٥٢ - مكانة الحرمين الشريفين

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ٢١٩٧ / ٩٥
I. S. B. N 977 - 215 - 148 - 0